دراسات في تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى مؤتمر فينا

١٤٥٣-١٨١٥

الدكتور اياد تركان ابراهيم الدليمي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
تمهيد / الأوضاع العامة في أوربا قبل عصر النهضة	٣
الفصل الاول	
النهضة الأوربية	٩
دور الحضارة العربية الاسلامية في قيام النهضة الاوربية	١١
ايطاليا مهد النهضة الاوربية	١٣
مظاهر النهضة الاوربية	١٥
١- حركة احياء العلوم القديمة	١٥
٢- الحركة الانسانية	١٧
٣- تطور العلوم والثقافة	١٨
٤- تطور علم التاريخ والسياسة	٢٠
٥- تطور الفن في عصر النهضة	٢١
أ- النحت	
ب- الرسم	
١- ليوناردو دافنشي	
٢- رافائيل	
ج- الادب	
١- دانتي اليجيري	
٢- شكسبير	
انتشار النهضة خارج ايطاليا	٢٥
حركة الاصلاح الديني اسبابها ونتائجها	٢٧
مارتن لوثر وحركة الاصلاح الديني	٢٩

الاصلاح الكاثوليكي المضاد	**٣٣**
١- مجمع ترنت	
٢- جمعية اليسوعيين (الجزويت)	
٣- محكمة التفتيش	
الكشوفات الاوربية والاستعمار الحديث	**٣٥**
فضل البحارة المسلمين على البعثات الكشفية الاوربية	**٣٦**
دوافع الكشوفات الجغرافية	**٣٧**
الكشوفات البرتغالية	
الكشوفات الاسبانية	
الكشوفات الانكليزية	
الكشوفات الفرنسية	
نتائج الكشوفات الجغرافية	
الفصل الثاني / أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر	
انكلترا في عهد آل تيودور (١٤٨٥-١٦٠٣)	٤٧
هنري السابع	
هنري الثامن	
ادوارد السادس	
ماري تيودور	
اليزابيث الاولى	
حرب الارمادا	
الامبراطورية الرومانية المقدسة في عهد شارل الخامس	٥٤
مشاكل شارل الخامس وحروبه الداخلية والخارجية	
ثورة الفرسان ١٥٢٢	

ثورة الفلاحين ١٥٢٤	
حروب شارل الخامس الخارجية	
الحرب مع ملك فرنسا فرانسوا الأول	
الحرب بين شارل الخامس والدولة العثمانية	
اسبانيا في عهد فيليب الثاني وثورة الاراضي المنخفضة	٦٠
ثورة الاراضي المنخفضة	
فرنسا .. الصراعات الدينية ووصول آل بوربون الى الحكم	٦٥
حروب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨)	٦٧
معاهدة وستفاليا وصلح البرانس	٧٣
تدهور اسبانيا والبرتغال في القرن السابع عشر	٧٥
فرنسا في عصر لويس الرابع عشر عصر التفوق الفرنسي	٧٧
ثورة الفروند	
لويس الرابع عشر ونظرية الحق الالهي للملوك	
سياسته الداخلية	
سياسته الخارجية	
حروب لويس الرابع عشر	
١- حرب الانتقال ١٦٦٧-١٦٦٨	
٢- الحرب ضد هولندا ١٦٧٢	
٣- حرب عصبة أوغسبورغ ١٦٨٩ أو حرب الملك وليم	
٤- حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١-١٧١٣)	

انكلترا في عهد آل ستيوارت(١٦٠٣-١٧١٤) الثورة الجليلة	٨٧
جيمس الأول (١٦٠١-١٦٠٢٥)	
شارل الاول (١٦٢٥-١٦٤٩)	
البرلمان الطويل	
الاحتجاج العظيم	

الحرب الاهلية	
الجمهورية	
عودة الملكية وتولي شارل الثاني (١٦٦٠-١٦٨٥)	
جيمس الثاني (١٦٨٥-١٦٨٨)	
الثورة الجليلة ١٦٨٨	
نتائج الثورة الجليلة	
الملكة آن (١٧٠٢-١٧١٤)	
روسيا في عهد بطرس الكبير (١٦٨٩-١٧٢٥)	١٠٥
تولي بطرس الاكبر السلطة	
اولاً : اقامة الحكم المطلق	
ثانياً : السياسة التوسعية والوصول الى المياه الدافئة	
ثالثا : دخول روسيا الى العصور الحديثة	
السويد في القرن السابع عشر	
الفصل الثالث / أوربا في القرن الثامن عشر	
فرنسا في عصر لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٧٤)	١١٥
الوصاية (١٧١٥-١٧٢٣)	
تولي لويس الخامس عشر الحكم (١٧٢٣-١٧٧٤)	
ظهور بروسيا على مسرح الاحداث في اوربا	١١٨

فردريك وليم الملقب بالناخب الكبير (١٦٤٠-١٦٨٨)	
فردريك الأول (١٦٨٨ - ١٧١٣) وظهور الملكية في بروسيا	
فردريك وليم الأول (١٧١٣-١٧٤٠)	
فردريك الثاني الكبير (١٧٤٠-١٧٨٦)	
روسيا في عهد كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦)	١٢٣
السياسة الداخلية	
السياسة الخارجية	
انكلترا في عهد آل هانوفر (١٧١٤-١٩٠١)	١٢٦
جورج الأول (١٧١٤-١٧٢٧)	
جورج الثاني (١٧٢٧-١٧٦٠)	
جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠)	
التنافس البريطاني-الفرنسي في المحيط الهندي	١٣٢
حروب القرن الثامن عشر	١٣٤
١- حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣-١٧٣٨)	
٢- حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-١٧٤٨)	
٣- حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٨٦٣)	
٤- حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣)	
الثورة الفرنسية ١٧٨٩	١٤٤
قائمة المصادر	١٦٧

المقدمة

تناول هذا الكتاب حقبة تأريخية مهمة من تأريخ أوربا بدأت بظهور عصر النهضة أو الانبعاث في منتصف القرن الخامس عشر وإنتهت بإندلاع الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر ، وخلال تلك الحقبة المهمة تطرق المؤلف الى ما حدث من تغييرات على المجتمع الأوربي بعد ظهور عصر النهضة والتي شملت كافة جوانب الحياة ، فلم تعد الكنيسة تتحكم في عقول الناس وتدهور النظام الاقطاعي بشكل كبير ، كما إنشق المحتجين الالمان على كنيسة روما وأسسوا كنائسهم البروتستانتية الخاصة بهم ، فأدى ذلك الى حروب طائفية مدمرة عرقلت مسيرة النهضة الاوربية حيناً من الزمن ، فضلاً عن حركة الكشوفات الجغرافية ومانتج عنها من تغيير خارطة العالم المعروفة وظهور الاستعمار الاوربي الحديث ، ولذلك تستحق هذه التغييرات وقفة ودراسة مستفيضة لما أعقبها من تطورات في القرون اللاحقة إنعكست آثارها على العالم أجمع .

إنّ هذا الكتاب هو حصيلة ٩ سنوات من تدريس مادة عصر النهضة الأوربية في جامعة ديالى ، قام خلالها المؤلف بإقتناء الكثير من المصادر العربية والاجنبية التي تتحدث عن تلك الحقبة ، ورغم كثرة الكتب التي تناولت عصر النهضة ، إلا أن طلاب الدراسات الاولية بحاجة الى كتاب مختصر يعرض لهم المعلومات بإسلوب بسيط وهذا ماحاولنا القيام به خلال تأليف هذا الكتاب ، والذي جاء مطابقاً للمنهج الوزاري الذي يدرس في أقسام التاريخ في كليتي التربية والتربية الأساسية . تضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول تناول الأول النهضة ومانتج عنها من تطورات مثل حركة الاصلاح الديني والكشوفات الجغرافية ، أما الفصل الثاني فجاء بعنوان أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشرالصراعات الدينية وظهور الملكيات المطلقة ، في حين تطرق الفصل الثالث والأخير الى أوضاع أوربا في القرن الثامن عشر ، وماحدث خلال هذه الحقبة من حروب وازمات . وإعتمد الكتاب على مجموعة مهمة من الكتب العربية والاجنبية .

وفي الختام أسأل الله سبحانه أن يوفقنا في تقديم ماهو أفضل لطلاب العلم والباحثين .

ومن الله التوفيق

الدكتور اياد تركان ابراهيم الدليم

تمهيد

الأوضاع العامة في أوربا أواخر العصور الوسطى

ان الباحث في تاريخ أوربا اذا ما بدأ بحثه بظهور عصر النهضة مباشرة وجد نفسه عاجزا عن تفسير كثير من مظاهر هذا العصر ، وقد يرتبك أحيانا فيجد نفسه منبهرا أمام هذا التيار من التاريخ لأنه لا يعلم منابعه ولا الروافد التي تصب فيه ، فعليه إذاً أن يمد النظر وراء الافق الى اليوم الذي تزعزت فيه أركان الامبراطورية الرومانية بعد غزوات القبائل البربرية من الجرمان والسلاف لأراضيها لفهم الاحداث التي جرت بعد ذلك ، إمتد تاريخ أوربا في العصور الوسطى لمدة مايقارب الف عام من سقوط روما ٤٧٦م على يد القبائل الجرمانية وحتى سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م على يد الاتراك العثمانيين ، وخلال هذه الحقبة شهدت اوربا فوضى سياسية وأمنية نتيجة لغياب مفهوم الدولة بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، وتمخضت القرون التالية عن تطور في المؤسسات الاجتماعية والسياسية فأنتج ذلك بروز مؤسستين رئيسيتين هما الاقطاع والكنيسة تحكما في المجتمع الاوربي خلال تلك الحقبة ومنعاه من التقدم والازدهار .

ظهر النظام الإقطاعي في أوربا بسبب فقدان الامن والاستقرار نتيجة الحروب الاهلية المزمنة وهجمات القبائل الجرمانية فاضطر ابناء الطبقات الدنيا من فلاحين بسطاء وصغار الملاكين الى اللجوء الى النبلاء الاقوياء طلباً للحماية ولم يتردد كبار النبلاء وملاكي الاراضي بقبول هذه الحماية لأنهم كانوا بحاجة الى اتباع مسلحين يساعدونهم في التغلب على ما يواجهونه من اخطار فكان النبيل أو السيد الاقطاعي يمنح الفرد أو الجماعة المنضوية تحت حمايته اقطاعا من أراضيه ليعملوا فيها وليكونوا تابعين له على أنه كان يتطلب من طالب الحماية لقاء ذلك التنازل عن أرضه لمصلحة من يمنحه الحماية ، مما أدى الى إزدياد مساحة الاراضي التي يمتلكها النبلاء ، وبينما كان النبلاء يعلو شأنهم كانت المدن تنحط وتتدهور اوضاعها تحت حمل الضرائب والفوضى الادارية والامنية . وهكذا تجمعت السلطة والثروة بيد فئة قليلة من الاشخاص مما أدى الى ظهور النظام الاقطاعي ويمكن تعريفه بأنه عقد اجتماعي مقبول من الطرفين ، يحدد حقوق وواجبات السيد الإقطاعي (النبيل) وتابعه (الفلاح) بشكل متبادل وملزم للطرفين ، فالإقطاعي يقدم الحماية والارض

الى التابع ، ويقوم الاخير بالخدمة فيها لصالح السيد الاقطاعي وعلى التابع ايضاً ان يحترم الاقطاعي وان يؤدي الخدمة العسكرية في حالات الحرب وأن يفدي سيده اذا وقع في الاسر ويدفع له الضرائب مثل ضريبة الرأس السنوية وضريبة الصيد أو الرعي وأن يحسم قضاياه امام محكمة السيد ، لم يكن عقد الاقطاع مكتوبا إلا في حالات استثنائية وعموما يجري العقد وفق مراسيم خاصة تسمى بحفل الولاء أو القسم ، ففي الولاء يجثم طالب التبعية على ركبتيه مكشوف الرأس مجردا من سيفه ويضع يديه مضمومتين في يدي الاقطاعي إشارة الى انه يفوض اموره إليه ويقدم له الولاء ، ثم يشير الاقطاعي على طالب التبعية بالوقوف ويقبله وعندئذ يردد طالب التبعية القسم بالانجيل وهو : **" سيدي انني ادخل في تبعيتك وعهدك وقد أصبحت منذ الآن من رجالك بالقول والإشارة وإنني أقسم وأعد أن احافظ على العهد والولاء لك امام الآخرين وأن أبذل كل ما في وسعي من قوة للذود عن حقوقك "** ويسلم الاقطاعي لطالب التبعية عادة عصا أو سيفا رمزيا يسترجع منه في نهاية حفل التولية .

أدى توسع الأراضي والإقطاعيات التابعة للسيد الاقطاعي الى صعوبة ادارتها والسيطرة عليها فظهر وكلاء لهم في غرب اوربا واصبحت اوربا عبارة عن اقطاعيات صغيرة تتمتع كل منها بالاكتفاء الذاتي . واصبح المجتمع الاقطاعي مقسماً الى ثلاث طبقات بارزة :-

١- طبقة الاسياد : وهم الاقطاعيون الذين يمتلكون الارض وما عليها من مستلزمات الانتاج مثل الطاحونة والفرن والمعصرة ، كما كانوا يتمتعون بحصانه قضائية وعسكرية ، ويدخل رجال الدين الكبار ضمن طبقة الاقطاعيين لامتلاكهم الاراضي رغم أنهم يتميزون عن النبلاء في مهمتهم واهتماماتهم ، وفي بعض الاحيان يتحول النبيل الى رجل دين .

٢- طبقة الفرسان : لا يفرق بعض المؤرخين بين هذه الطبقة وطبقة الاسياد بل إنهم يعتبرون النبلاء ورجال الدين والفرسان طبقة اجتماعية واحدة تقابلها طبقة الفلاحين أو العبيد (الاقنان) ويعود ذلك الى أن الفارس هو إبن النبيل الذي يؤخذ للتدريب العسكري منذ سن الحادية عشرة ويستمر في تدريبه حتى السادسة عشر ليمنح بعدها في حفل خاص لقب فارس وهذه الطبقة بمثابة الضباط القياديين في العصور الحديثة .

٣- الطبقة العامة : وتشكل غالبية المجتمع وتتكون من :

أ- العبيد : يؤلف العبيد غالبية أفراد الطبقة العامة والمتبقي منها الفلاحون ، وارتبط العبيد بالارض فأصبحوا بتطور الاقطاع ملكاً للاقطاعي مثل الأرض والماشية ومستلزمات الزراعة ففقدوا حريتهم بشكل كلي بحيث لايمكن للعبد أن يغادر مزرعة السيد الى مزرعة أخرى ، وعندما تنتقل ملكية الارض الى سيد آخر فإنه ينتقل معها واذا ما أراد العبد أن يرسل ابنه الى المدرسة عليه ان يدفع عنه تعويضا لسيده ، وإذا تزوج وكان الزواج يستلزم انتقاله الى الاقطاعية التي توجد فيها الزوجة فعليه أن يدفع تعويضا أيضا ومثل هذا ينطبق على الفتاة التي تلتحق بزوجها في ضيعة اخرى .

ب- الفلاحين : كان الفلاحون يعيشون في القرى المؤلفة من بيوت بائسة وفقيرة وبالقرب منها الكنيسة وبيت الملاك أو من يمثله ، ولم يكن الفلاح في أغلب الاحيان حراً بل كان تحت رحمة السيد الاقطاعي ، وكانت الارض التي بيده ملكا لسيده وعلى الفلاح العمل فيها طوال السنة إلا أياماً معدودة وتقديم مقداراً من الحاصل ونقله الى دار السيد ، وكان الفلاحون يتعاونون فيما بينهم لحرث أراضيهم حيث أن مواشي السحب لاتكفي وكانت النساء تعمل الى جانب الرجال في الحقول الزراعية فالمسؤوليات كانت جماعية ، وكان على الفلاح ايضا أن يعمل ثلاثة أيام بالاسبوع مجاناً لسيده فضلا عن العمل أياماً إضافية في موسم الحصاد ، وعلى الفلاح أن يقدم حصة السيد من المال أو الحاصل بصورة منتظمة ، بالاضافة الى ضريبة العشر التي كانت تدفع الى الكنيسة ، وبعبارة أخرى إن كافة جهود الفلاح كانت تصرف لخدمة سيده ، ولا يبقي له السيد من وسائل العيش الا ما يمكنه من الاستمرار في خدمته والانتاج له ، ويمكننا أن نقدر الوضع الاقتصادي في النظام الإقطاعي إذا لاحظنا ان أراضي انكلترا مثلاً كانت مقسمة كما يلي : ١- ٥٠% للنبلاء الاقطاعيين ٢- ٣٠% للكنيسة ٣- ٢٠% للملك .

ونتيجة لذلك ضعفت سلطة الملوك خلال العصور الوسطى تدريجيا بنمو النظام الاقطاعي وتوسعه ، وفي بعض الاحيان كان الملوك في أوربا يمنحون الاقطاعيين صلاحيات واسعة بغية الاعتماد عليهم في إدارة مقاطعاتهم فضلا عن الاعتماد عليهم خلال الحروب فلم تكن لدى الملوك جيوشا نظامية وانما يعتمدون على مساعدات الاقطاعيين في هذا المجال ، ومن الجدير بالذكر أن الطبقة الوسطى (البرجوازية) لم تكن موجودة خلال

العصور الوسطى بسبب اندثار المدن وتوقف التجارة وانعدام الامن فساد التفاوت الطبقي في المجتمع الاوربي حيث كان الفرد أما من طبقة الاشراف أو من الطبقة العامة ولايوجد مايربط بين هاتين الطبقتين .

كانت الكنيسة الكاثوليكية ركيزة اساسية من ركائز الاقطاع خلال العصور الوسطى ، فقد التقت مصالح رجال الدين مع الملاكين الاقطاعيين حيث حولت الكنيسة المفاهيم الدينية السمحاء الى غطاء يمنع تمرد المظلومين على واقعهم المهين من خلال التأكيد على الحياة الآخرة وإهمال الحياة الدنيا مما يعزز القناعات عند ابناء الطبقة العامة أن حياتهم في ظل الإقطاع أمر لا أهمية له مهما بلغت من السوء مادامت الروح هي الاساس في حكم الآخرة ، وتصدت الكنيسة لكل أفكار علمية جديدة تعطي للعقل القدرة على التفكير والابداع فحكمت على العلماء بالحرمان من غفران الذنوب وأهدرت دم البعض منهم وأحرقت كتب البعض الآخر ، وكانت الكنيسة وحدها هي ملاذ الثقافة والتعليم ولذلك اصطبغت الثقافة في العصور الوسطى بالصبغة الدينية ، فقد كان العلماء في تلك العصور هم انفسهم رجال الدين وما يقوله رجال الدين يتقبله الناس وما يرفضونه يرفضه الجميع وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الاساسية التي يجب على كل فرد أن يتعلمها ويتقنها أما اللغات القومية الأخرى فكانت لغة للتخاطب المحلي .

وفي المقابل تمتع رجال الدين ولاسيما الكبار منهم بامتيازات واسعة وتحولوا الى اكبر ملاكين للأراضي وأصبحوا يعيشون حياة مترفة وماجنة لاتنسجم مع مواقعهم الدينية ولاتتفق مع تعاليمهم للناس ، ولقد بدأ تحول رجال الدين تدريجيا الى اقطاعيين عندما أعطي الحق للسيد بتعيين اسقف أو كبير الأساقفة في اقطاعيته ، فكان السيد الاقطاعي يمنحه إقطاعاً من عنده ، فتكاثرت الإقطاعات الكنسية حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأرض اضافة الى انها كانت تتلقى الهدايا والنفائس ونصيب من الايرادات الاقطاعية والضرائب بمختلف اشكالها ، بما فيها الاراضي والعبيد ، من الملاك والنبلاء والسادة تكفيراً عن ذنوبهم وخطاياهم ولكسب مساندة الكنيسة لهم . ثم تعددت مسؤوليات الكنيسة لتصبح مركزا للتجارة والبيع وكذلك المتاجرة بالممتلكات بما فيها المناصب الدينية ، وهكذا ارتبطت الكنيسة مصيريا بالنظام الاقطاعي وتطورت سلطاتها لتشمل الامور الدينية والدنيوية ولاشك أن

تبنيها مقاومة المسلمين في اسبانيا وإثارة الحروب الصليبية قد جعلها أقوى سلطة ونفوذا على المسيحيين في أوربا .

واجهت الكنيسة الكاثوليكية تحديات كبيرة خلال العصور الوسطى اشغلتها حيناً من الزمن وافقدتها زعامتها أحياناً أخرى ، ومن هذه التحديات الانشقاق الذي حصل بعد تأسيس الكنيسة الشرقية الارثوذكسية (ومعناها باليونانية الايمان القويم) في القسطنطينية بعد أن أسس الامبراطور قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧م) تلك المدينة عام ٣٣٠م واتخذها عاصمة ثانية للامبراطورية وبعد سقوط روما أصبحت للقسطنطينية بمرور الزمن كنيستها الخاصة بها ذات الطابع القومي والتي تشرف على مجموعة كبيرة من الكنائس الفرعية في الشرق ، وحمل رئيس الكنيسة الشرقية لقب البطريرك كلقب موازي للبابا في روما ، واشتد الخلاف بين الكنيستين طوال فترة العصور الوسطى . أما التحدي الآخر الذي واجهته الكنيسة الكاثوليكية في روما خلال العصور الوسطى هو اصطدامها مع الملوك الاوربيين الاقوياء لاسيما أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فعلى الرغم من نجاح الامبراطور شارلمان (٧٦٨-٨١٤) في الحد من تدخل الكنيسة في الشؤون السياسية للإمبراطورية الرومانية المقدسة التي اسسها ، إلا إن خلفاءه اصطدموا من جديد مع البابا في روما عدة مرات بل وصلت الامور الى حد ارسال الجيوش الى روما لخلع البابا وتنصيب آخر ، وأحيانا يتم نفي البابا أو وضعه قيد الإقامة الجبرية ، كل ذلك من وجوه الصراع بين البابوية والامبراطورية شكل تحدياً حقيقياً للكنيسة الكاثوليكية في روما .

بالإضافة لما سبق فإن هيبة ومكانة البابا قد تزعزعت أواخر العصور الوسطى بسبب الانحرافات الخلقية في سلوك رجال الدين عموما وسعيهم وراء المكاسب الدنيوية والملذات في الوقت الذي كان ابناء الطبقة العامة يعيشون الفقر والحرمان ، ومما زاد من انهيار هيبة البابا ما حدث عام ١٣٧٨ عندما وقع ما سمي بالانقسام البابوي العظيم حيث انقسم الكرادلة واختاروا اثنين من البابوات كل واحد منهم يدعي شرعية توليه كرسي البابوية مما أدى الى ضعف المؤسسة الدينية في أوربا ، مما دفع الكثير من المصلحين الى المطالبة بالإصلاح الذي شكل احدى الظواهر الأساسية لعصر النهضة فيما بعد .

بدأت العقول تتحرر أواخر العصور الوسطى واتجه الناس الى نقد ما كان شائعا في العصور الوسطى حتى في الدين نفسه ، فقد وجد من ينتقد الكنيسة نتيجة نمو الروح النقدية وظهرت الجامعات وما تبعها من انتشار التعليم والثقافة ، ونمت المدن نتيجة لإزدهار التجارة مع الشرق الاسلامي خلال الحروب الصليبية وأدى نموها الى ظهور طبقة اجتماعية لاتعتمد في حياتها على الزراعة ولاتحتاج الى الخضوع لنفوذ النبلاء والاقطاعيين وقلاعهم الحصينة وبذلك لم تعد الارض مصدر الانتاج وأساس الثروة خصوصا بعد اكتشاف العالم الجديد المتمثل بأمريكا الشمالية وتدفق الذهب ، وبتنامي هذا الطبقة التي سميت بالطبقة الوسطى وزيادة قوتها واتساع حجمها تعارضت مصالحها مع مصالح الاقطاعيين الذين كانوا يقيمون الحواجز والحدود بين الاقطاعيات مما يعرقل نمو التجارة وتطورها فكان لابد من الاصطدام بهم ، وقد وجدت الطبقة الوسطى في ملوك أوربا الذين كانوا تواقين لتقوية سلطتهم السياسية ، خير حليف في الكفاح ضد الاقطاع والقضاء عليه ، فمدت الطبقة الوسطى ملوك أوربا بالمساعدات المادية لإعداد الجيوش ، ومما ساعد في تحقيق أهداف هذا التحالف اكتشاف البارود الذي استخدمته الجيوش الملكية في دك حصون الاقطاعيين .

وهكذا تظافرت العوامل التي أضعفت الاقطاع بعد أن إنتفت الحاجة إليه ، وأصبح على مر الزمن نظاماً قاسيا مضطهداً للإنسان ، لكن ضعفه وسقوطه لم يأت بشكل حاد ومفاجيء وإنما كان تدريجياً لأن عصر النهضة كان متداخلا مع المراحل الأخيرة من العصور الوسطى ومن الصعب الفصل بينهما . وبحلول القرن السادس عشر بدا النظام القديم والأفكار التي بني عليها هذا النظام تتدهور وتنهار ، وأخذت الإقطاعيات تضعف والفروسية تزول ، وأصبحت الحياة في المدن تزداد أهمية ، وفتحت أبواب المناصب للطبقة المثقفة من خريجي الجامعات ، كما أن التجارة والصناعة نالت إهتمام منقطع النظير وأصبحت عماد الاقتصاد الاوربي وحلت محل الزراعة ، وإنقرضت العبودية وحل محلها المزارعون الاحرار في معظم أنحاء أوربا الغربية كما ظهرت الحكومات الملكية القوية هناك أيضاً . وإزداد الشعور القومي بين الشعوب الأوربية المبني على الولاء التام للملك الذي إستطاع أن يوحد المملكة .

الفصل الأول

النهضة الأوربية Renaissance

عصر النهضة (الإنبعاث او الولادة الجديدة) هو وصف يطلق على تلك الحقبة الزمنية مابين القرن الرابع عشر والسادس عشر والتي نشطت فيها حركة إحياء العلوم والمعارف والآداب والفنون في ايطاليا ثم انتقلت منها ببطء الى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) وإسبانيا ثم الى بقية دول أوربا . ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية آخر عاصمة لدولة الروم عام ١٤٥٣ حيث نزح العلماء الى ايطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان ، ولم يكن الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة مفاجئاً أو واضحاً أو محدداً بعدد من السنين ، وإنما تم بشكل تدريجي ، ذلك أن لكل عصر جذور تمتد في أعماق العصر الذي سبقه ، ولابد من وجود فترة انتقال طويلة تتصادم وتتفاعل فيها المثل والقيم والمفاهيم القديمة مع الجديدة ، حتى تستقر في أذهان الناس عملية التغيير ليبدأ بالتدريج عصر يختلف عما سبقه في كل مناحي الحياة .

إن مصطلح النهضة يعبر عن نهوض وارتقاء أوربا من الركود والإنحطاط العلمي ، وذلك لايعني أن العصور الوسطى قد إنعدم فيها كل اختراع واكتشاف ، فقد كان المغنون قد أبدعوا في كتابة الموسيقى التي تحتاجها الكنيسة لصلواتها ، واقتبس البحارة البوصلة عن العرب ليهتدوا بها في رحلاتهم ، وأخترع المصورون الأصباغ الزيتية لرسم تصاويرهم . لكن خلال أواخر العصور الوسطى حصل نمو كبير في ميدان التجارة الداخلية والخارجية ، وأدت هذه العلاقات التجارية الى تكدس الاموال وتوفرها مما ساعد على تطور المدن وإتساعها وبالتالي ظهرت فئة في المجتمع الأوربي هي الطبقة الوسطى التي كانت مهيئة لحمل لواء النهضة ، وتدريجياً سادت العلمانية في أوربا فأخذت بعض الحكومات الأوربية تعتمد على القانون الروماني بدلاً من القانون الكنسي ، كما حدث تطور مهم في التعليم بعد ظهور الجامعات وانتشار الأدب العلماني باللغات المحلية بعد أن كانت اللغة اللاتينية هي هي لغة العلم والادب الوحيدة في العصور الوسطى ، كما خرج الأدب عن قيود الدين في روحه ومحتواه ليعبر عن حياة المجتمع الجديدة ومشكلاته الاجتماعية .

كان الايطاليون في فترة الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، أول من لاحظ أن عصراً جديداً قد بدأ بإنتعاش أوربا سياسياً واقتصادياً ، تقودها دول أوربا الغربية شمال جبال الألب وحركة فكرية فنية أدبية تقودها ايطاليا ، وقد كان الفرق بين ايطاليا والدول الأوربية الأخرى أن الإقطاع لم ينل من ايطاليا تماماً ، ورفضت المؤسسات الإقطاعية بوقت مبكر ، ولم تقبل بحكم الامبراطور الألماني ولا بمملكة موحدة ، وبقيت معظم مدنها حرة ويسود فيها التعليم المدني في الوقت الذي كان التعليم كنسياً في بقية أنحاء أوربا ، ومن كل ذلك نستنتج أن مؤسسات العصور الوسطى كانت ضعيفة في ايطاليا مما قدمها على باقي الدول الأوربية في مجال النهضة كما سنرى .

أخذ ادباء عصر النهضة يخرجون عن تقاليد العصور السابقة فعبروا عن خفايا النفس البشرية وما فيها من أحاسيس بعد أن كانوا يحصرون أفكارهم داخل نطاق العقيدة فتحدثوا عن الحب والغزل وعن المرأة ، وبدأ النزوع الى التفكير الحر وتنمية قدرات الفرد او ما أطلق عليه حينها بالفردية Individualism وهي تحرر الفرد من القيود والاعتماد على النفس ، وأصبح الفرد بموجبها لايقتنع إلا بما يتفق مع فهمه وفكره وظهرت مفاهيم وآراء جديدة وصل ببعضها الأمر الى العصيان على آراء الكنيسة والدعوة الى تغييرها ، فدعى اورلاندوا الى اصلاح الكنيسة واعترض على أملاك رجال الدين وملابسهم الفاخرة ونادى بإقامة حكومة حرة مستقلة عن سلطات الكنيسة ، وقام يواكيمو بحركة دينية في جنوب ايطاليا حذر فيها العالم المسيحي مما ينتظره من أيام سوداء نتيجة مفاسد الكنيسة ورجالاتها .

كما هاجم الراهب سافونا رولا (١٤٥٢-١٤٩٨) في اسلوب يفيض بالحماسة الدينية والفصاحة والعنف رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا ، ودعى الى السير على تعاليم المسيحية الصحيحة والاستمساك بالفضيلة ، وترك حياة الفسق والمجون التي يحياها البابا الاسكندر السادس ، كما أعلن سخطه على رجال الدين الذين أصبحوا رمزاً للكسل الطفيلي الذي يعيش على مجهود غيره ، واستطاع سافونا رولا أن يجد السبيل الى قلوب سامعيه وكثر اتباعه كما اصدر مجموعة من المؤلفات التي تنتقد الكنيسة وتتحدى سطتها ، فأصدر البابا في الثالث عشر من آيار ١٤٩٧ قرار الحرمان ضده متهما إياه بنشر عقائد فاسدة بين الناس وعصيان أوامر الكنيسة ، وعلى الرغم من ذلك فإن سافونا رولا لم يهتم بهذا القرار

وكتب رسالة فند فيها إدعاءات البابا واعلن ضرورة مقاومة سلطة البابا الذي يعمل ضد تعاليم الكنيسة ، والذي وصل الى كرسي البابوية عن طريق الرشوة . أصر البابا على تسليم الراهب الثائر اليه بالرغم من وساطات البعض للعفوا عن سافونا رولا ، وفي النهاية تمكن اعدائه من تقديمه للمحاكمة وإعلان إعدامه شنقاً مع حرق جثته ، وقد تم ذلك بالفعل في ٢٢ أيار ١٤٩٨ ، وعلى الرغم من تخلص البابا من سافونا رولا لكن دعوته الاصلاحية قد فتحت الباب لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية فعلياً في القرن السادس عشر .

دور الحضارة العربية الإسلامية في قيام النهضة الأوربية

اعترف العديد من المؤرخين والباحثين الأوربيين بفضل العرب على أوربا وأكدوا أن الأوربيين يدينون للعرب بحضارتهم التي انبعثت في عصر النهضة ، وفي هذا الصدد قال المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) في كتابه حضارة العرب أنه **" إذا كانت هنالك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان "** ، وقال مسيو ليبري الفرنسي ايضاً **" لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون "** . واستناداً لهذه الشهادات وغيرها لابد من دراسة واقع أوربا ومقارنتها بواقع العرب المسلمين قبل قيام النهضة الأوربية ، ففي القرنين التاسع والعاشر الميلادي كانت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في أوج عظمتها بينما كانت اوربا تتخبط في ظلمات العصور الوسطى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في اواخر القرن الخامس الميلادي وفي ذلك الوقت الذي ساد فيه الانحطاط العلمي ، ولم يبق اثر للحضارة والعلم في اوربا إلا بصيص خافت في المدارس التي لم تكن تهدف الا لتخريج رجال الدين بينما حرم الجرمان ، الذين اقاموا ممالك في غرب اوربا ، الأطفال من التعليم على اعتبار إن التعليم يقتل شخصية الطفل ، وقالوا إن الطفل الذي يتعلم الجلوس أمام المدرس ويخشى العصا لايصلح للحرب والقتال ، في هذا الوقت كان المسلمون في أوج مجدهم الحضاري وكانت الحضارة الاسلامية تمثل قمة ما وصلت اليه الحضارة العربية والفارسية والهندية والاغريقية فالعرب لم يغلقوا على انفسهم أبواب المعرفة بل اخذوا من كل هذه الحضارات ومزجوها . واستمرت اوربا تتخبط في الحروب الداخلية والتخلف الفكري زمناً طويلا الى

أن ظهر بعض الميل الى العلم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، ولم يكن أمام الأوربيين غير التوجه الى العرب أصحاب الحضارة والرسالة الإسلامية الخالدة .

إن دخول العلوم العربية الى أوربا لم يكن مفاجئاً ، وكانت ترجمة الكتب من العربية الى اللاتينية هي بداية الطريق لإطلاع الأوربيين على انجازات العرب المسلمين الحضارية ، ومنذ عام ١١٣٠ بدأت في طليطلة ترجمة الكتب العربية واستمرت مع بزوغ عصر النهضة ، فترجمت كتب الرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد ، كما ترجمت الى اللاتينية الكتب التي ترجمها العرب عن اليونانية مثل كتاب جالينوس وسقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وارخميدس وبطليموس ، فزاد عدد ماتمت ترجمته من كتب العرب على الى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب ، ويعترف الاوربيون أنه لولا العرب لما اطلعوا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب ابولونيوس في المخروطات وكتاب جالينوس في الأمراض السارية وكتاب ارسطو في الحجارة . أخذت الحضارة العربية تزحف الى أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر وكانت هناك ثلاث طرق رئيسية عبرت عن طريقها الحضارة الاسلامية الى اوربا وهي :

١- صقلية : كانت بمثابة المعبر في الطريق بين البلاد العربية وأوربا ، وذلك بحكم موقعها الجغرافي وسط البحر المتوسط وصلاتها بالعالم العربي وامتداد النفوذ العربي السياسي والحضاري إليها بعد أن حكموها مباشرة خلال السنوات (٩٦٥-١٠٧٢) .

٢- شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) : وفيما يتعلق بالأندلس فان العرب حكموا هذه البلاد لمدة ٨٠٠ عام وتطورت على أيديهم الزراعة والصناعة والإدارة ، وترك العرب طابعهم الحضاري في اسبانيا في فنون الملاحة وأصحاب المهن وفي الأدوات التي يصنعون بها هذه الفنون ، ولم يقتصر الأمر على الأندلسيين بل كان يؤم اسبانيا مسيحيون من مختلف البلاد الأوربية ليدرسوا مع الأسبان في مدارسها ، وكانت مدينة طليطلة التي استردها الاسبان في عام ١٠٨٥ أول وأعظم مركز لنقل الثقافة من المسلمين إلى المسيحيين في الغرب.

٣- بلاد الشرق الأدنى : أما عن بلاد الشرق الادنى واحتكاكها باوربا خاصة اثناء الحروب الصليبية فاثرها واضح في نقل حضارة هذه البلاد الى اوربا ، وادى هذا الاحتكاك الى ان استيقظ الاوربيون من سباتهم وتفتحت عيونهم على الحضارة العربية العملاقة وبدأت في

اوربا نهضة يطلق عليها البعض تعبير النهضة الوسيطة ، ولم تبدا النهضة الاوربية في كل اوربا في وقت واحد ، لكن بدايتها كانت في جنوب القارة ، وفي شبه الجزيرة ايطاليا بالذات ، وكانت هذه البداية بمثابة الاعداد للانقلاب الذي عم كل اوربا فيما بعد .

كانت الأندلس من أهم الطرق التي انتقلت بها الحضارة العربية الاسلامية الى اوربا وذلك لموقعها الجغرافي ، فهرع طلاب العلم من مختلف أنحاء أوربا الى اسبانيا يدرسون ويترجمون ويقتبسون من معالم الحضارة الاسلامية ، فدرسوا مؤلفات ابن سينا وابن رشد والرازي والخوارزمي وغيرهم من الفلاسفة والعلماء المسلمين ، وترجموا كتبهم الى اللغة اللاتينية ، وظل طب ابن سينا والرازي يدرس في الجامعات الأوربية الى أن ظهر الطب الحديث في القرن السابع عشر . وكان لفلسفة ابن رشد تاثيراً عظيماً على الكنيسة المسيحية في زمن توماس الكويني ، وكانت نتيجة هذه الدراسات والترجمات ظهور حركة فكرية في أوربا في القرن الثاني عشر والثالث عشر سميت بالحركة المدرسية Scholasticism متاثرة بالحضارة العربية الإسلامية ، وعن طريق هذه الحركة تمكن الأوربيون ان يتصلوا بالحضارة اليونانية والرومانية القديمة وبعث هذه الحضارة من جديد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ايطاليا مهد النهضة الأوربية

لم يظهر عصر النهضة مرة واحدة في كل انحاء اوربا ، فقد اختلفت من مكان لاخر زمانا ومكانا ، فايطاليا سبقت غيرها من دول اوربا في النهضة التي بدات فيها قبل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، ويعود سبب ظهور اولى بوادر الانبعاث الحضاري في ايطاليا قبل غيرها من دول اوربا كون ايطاليا مركز الامبراطورية الرومانية ونواتها ولذلك فان سقوط هذه الامبراطورية لم يؤد الى تحول ايطاليا نحو الاقطاع بشكل تام كما حدث في فرنسا والمانيا مثلا . فقد حافظت مدن ايطالية عديدة على مظاهر الحياة المدنية ونشطت فيها التجارة والطبقة الوسطى ، وبقيت المؤسسات السياسية والاجتماعية لهذه المدن حية فاعلة مثل البندقية وجنوة ونابولي وفلورنسا التي شكلت امارات ايطالية مستقلة ، ان قرب هذه المدن من الامبراطورية البيزنطية ووقوعها على خطوط التجارة الدولية ابقى لها بعض

صناعتها ونشاطها التجاري وهكذا كانت المدن الايطالية هي وحدها القادرة على حمل لواء البعث الجديد في اوربا بوجه نظام الاقطاع يساعدها في ذلك عوامل اخرى مهمة ومنها :

١- الموقع الجغرافي لايطاليا : الذي يقع وسط البحر المتوسط ، ذلك البحر الذي قامت على ضفافه اقدم الحضارات واعرقها ، وكانت المدن الايطالية بفصل هذا الموقع حلقة اتصال بين اوربا وبين الحوض الشرقي للبحر المتوسط هذا بالاضافة الى انها كانت طول العصور الوسطى مركزاً للنشاط الاقتصادي وحلقة من اهم حلقات الاتصال التجاري بين الشرق الاسلامي واوربا .

٢- الرخاء الاقتصادي : فدور المدن الايطالية في التجارة بين الشرق الاسلامي واوربا معروف وقد ازدهرت هذه المدن من التجارة ، كما أن الرخاء الاقتصادي مرتبط بالنهضة دائما ويفتح لها الطريق .

٣- ماضي الايطاليين وتاريخهم الحضاري السابق : فايطاليا مهد الحضارة الرومانية ، وما تزخر به روما وغيرها من مدن الايطالية يذكرنا بهذا التراث القديم ، مما يحفز الهمم لاستعادة هذا المجد التالد ، ونذكر في هذا المجال اثر الفنون الرومانية القديمة من نحت وتصوير ونقش وعمارة في قيام الحضارة الحديثة .

٤- تمتع ايطاليا بالسلام : فقد تمتعت شبه الجزيرة الايطالية بالسلام احقابا طويلة وخاصة في القرن الخامس عشر الميلادي بينما كانت الدول الاوربية تخوض حروباً واسعة فيما بينها مما مكن ايطاليا من التفرغ للبحث والاطلاع والاندفاع بعجلة التطور الى النمو والازدهار .

٥- قيام دويلات سياسية متنافسة في ايطاليا : فقد اشتد التنافس على تشجيع العلوم والادب والفنون بين الاسر الحاكمة في ايطاليا ، ويذكر في هذا المجال جهودا اسرة مديتشي في فلورنسا التي انشات اكاديمية علمية مشهورة .

٦- مقر البابوية (الزعامة الدينية للمسيحين في اوربا) : اضفى وجود البابوية في روما على ايطاليا مركزا ممتازا فصارت قبلة العالم المسيحي ، رغم انغماس كثير من رجال الدين في الملذات ، فقد انفق كثير من البابوات الاموال التي تدفقت الى الكنيسة على النهوض بالعلم وانشاء المكتبات فكانت مكتبة الفاتيكان من اشهر المكتبات التي غصت بالكتب العلمية ، كما

ان وجود مقر البابا في روما جعل الايطاليون يشعرون بسيطرة بلادهم الدينية على باقي جهات اوربا .

٧- طبيعة الشعب الايطالي نفسه : لقد اشتهر الايطاليون بميلهم للفنون وحبهم للموسيقى والرقص والاغاني والتصوير والنحت والعمارة والشعر والادب عامة ، فحين وجدت هذه الطاقات الجو المناسب ظهرت هذه المواهب ، كما ظهر في ايطاليا مجموعة من رواد النهضة في الفن والادب والشعر والرسم والنحت وغيرها ساهموا كثيرا في تمثيل جانب من جوانب النهضة ساعدهم توفر المطابع في ايطاليا مما ساعد على انتشار الفكر والثقافة ، وهكذا ساعدت هذه الظروف على ان تبرز معالم النهضة في شبه جزيرة ايطاليا قبل غيرها من الدول الاوربية .

مظاهر النهضة الأوربية

اتخذت النهضة الأوربية في بداية امرها اشكالا متنوعة اختلفت مظاهرها من بلد لاخر ففي ايطاليا اتخذت مظهرا فنيا وثقافيا وعلميا وادبيا ، كما تمثلت في الانغماس في اللهو والملذات والترف ، وفي المانيا كان مظهرها الاصلاح الديني وفي فرنسا وجه الادباء اهتمامهم الى الابداع القصصي والتحليل النفسي ، وتحقيق المؤلفات القديمة والتعليق عليها وفي بريطانيا برز الاهتمام بالمسرح والادبيات ، وكان من ابرز ادبائها وليم شكسبير ، اما في اسبانيا والبرتغال فقد تغنى الأدباء بالفروسية وبالصفات التي يتحلى بها الفارس . ويمكننا ان نبين أبرز مظاهر عصر من خلال مايلي :

١- حركة احياء العلوم القديمة

وهي محاولة العودة الى التراث اليوناني والروماني لدراسته والتعرف على مافيه من علم ومعرفة ، وتعد هذه الحركة من أبرز واول مظاهر النهضة ، وقد ظهرت في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى (١٣٠٠-١٥٠٠) ، عندما اخذ المثقفون في المدن يهتمون بالتنقيب عن الآثار والمخلفات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ودراستها والاستفادة منها . أما قبل هاذين القرنين فقد كانت الكنيسة ترى في تراث القدماء صورة لوثنيتهم وبالتالي لافائدة من إحياءه لما فيه من قيم وفلسفات ومثل لاتقرها المسيحية ، إلا أن انتشار المدارس والجامعات وظهور طبقة المتعلمين والمثقفين في المدن في أواخر العصور الوسطى قد حطم

ذلك الحصار الذي فرضته الكنيسة . وقد كان للعرب المسلمين في الاندلس دور كبير في توجيه المثقفين والمتعلمين نحو آثار اليونان القدماء بما ترجموه عن اليونانية الى اللغة العربية ومن ثم الى اللاتينية . بدأت حركة احياء العلوم بالبحث عن المخطوطات اليونانية واللاتينية وجمعها ودراستها ، وساهم سكان المدن الإيطالية الأثرياء في هذه الحركة بتشجيعهم الباحثين مادياً ، وقد تنافست الاسر الحاكمة في ايطاليا باقتناء المخطوطات ، وهاجر كثير من الايطاليين الى القسطنطينية للبحث عن تلك المخطوطات ولدراسة اللغة اليونانية والتعمق في فنونها وقواعدها .

أما ابرز رواد حركة احياء العلوم القديمة هو بوكاشيو (١٣١٣-١٣٧٥) فكان من المتحمسين للأدب اللاتيني القديم فكتب باللاتينية وإكتشف عددا من المخطوطات الضائعة لمؤلفين رومان ولاسيما الحوليات للمؤرخ الروماني تاكيتوس ، كما ترجم ملحمتي الالياذة والاوديسة الى اللغة اللاتينية ، واشتهر بوكاشيو بكتابه دي كامرون أي الأيام العشرة وهي مائة قصة خيالية نثرية مستمدة من الآداب القديمة .

أدت حركة احياء العلوم الى تغيير نظرة الناس الى نتاج الرومان واليونان القدماء ، فقد أصبح بالنسبة لهم تراث فكري قائم بذاته ، يمكن فعلا تذوقه وفهمه والتعمق في دراسته للتعرف على ما كان عند القدماء من افكار ومعان انسانية بغض النظر عن ما إذا كانت هذه الافكار منسجمة أو غير منسجمة مع المعتقدات الدينية لعصر النهضة . وامام هذا الزخم المتصاعد باتجاه احياء التراث والتمسك به اضطرت الكنيسة إلى التخلي عن مواقفها المتزمتة واقبلت بمبادرة من البابا نفسه على المشاركة في حركة احياء التراث من الجانب الذي يجعل تأثير الفكر اليوناني والروماني في الفكر المسيحي المعاصر محدداً في الإطار العلمي والأدبي ولايتجاوز الإطار العقائدي ، ولهذا نجد أن النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر قد شهد بابوات جمعوا حولهم في روما العديد من رجال العلم والادب والفن الذين اندفعوا بحماسة كبيرة لدراسة التراث القديم وابرزهم البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) الذي منح لرواد حركة احياء العلوم الجوائز الثمينة كما جمع كثيراً من الكتب الكلاسيكية في مكتبة الفاتيكان وكذلك فعل البابا بيوس الثاني (١٤٥٨-١٤٦٤) والبابا ليو العاشر (١٥١٣-١٥٢١) .

٢ـ الحركة الانسانية

ارتبطت الحركة الانسانية بإحياء التراث اليوناني والروماني حتى أصبحت أحد مظاهر عصر النهضة ، وقد إهتمت الحركة الإنسانية بكل ما يخص الانسان نفسه ، حياته ورغباته وتأمين العيش الرغيد له مع مراعاة تنمية قدراته من دون التركيز على الزهد فقط ونكران الذات في سبيل الآخرة ، ويعود ذلك الى ان المهتمين بالدراسات الكلاسيكية وجدوا ان اليونان والرومان كانوا قد ركزوا إهتمامهم على الدنيا والإنسان أكثر من إهتمامهم بالآخرة ، ذلك ان العصور الوسطى تناست انسانية الانسان فتفشت افكار التقشف والصوم وإذلال الجسد وإهماله والإهتمام بالروح فقط وبعلاقة الانسان بالخالق . لذلك لم يجد الفن أرضاً له في تلك العصور التي كانت فلسفتها ترتكز اساساً على الروح وليس على الجسد ، في حين أن مفكري عصر النهضة انطلقوا من منطلق جديد وهو الإعتزاز بالإنسان ودوره في الحياة فكانت صورة الانسان عندهم تمثل القوة والإيمان بالذات والثقة بالنفس ، ومن هنا جائت تسمية الحركة بالإنسانية لأنها تركز على الانسان كقيمة عليا في هذا الكون وسمي روادها بالإنسانيين Humanists .

يعد فرانسسكو بترارك (١٣٠٦-١٣٧٤) رائد الحركة الانسانية في ايطاليا لما كان له من فضل في بعث الفكر القديم وبصورة خاصة اللاتيني منه ، ولد في فلورنسا وأمضى حياته الدراسية الاولى في توسكانيا ، وقد أرسله والده فيما بعد الى مونبلييه لدراسة القانون ولكنه لم يستسغ تلك الدراسة وتحول إهتمامه الى دراسة الآداب القديمة فجمع كلما وصلت إليه يده من مخطوطات وآثار ومخلفات رومانية ، وكان بترارك هو من بعث الحضارة الكلاسيكية في الادب في ايطاليا مكرساً حياته للتعليم ودراسة الأدب ، ونظم الشعر باللغة اللاتينية ، وكانت له قصائد وجدانية جميلة الأسلوب تدعى السونيتات (Sonnets) ، وجاء بعده في نظم السونيتات الشاعر الانكليزي ملتون ثم شكسبير ليصبح الثلاثة من رواد هذا اللون من الشعر . كان بترارك يرى أن الإنسان يجب أن يهتم أولا بحياته على وجه الأرض قبل أن يوجه إهتمامه الى أشياء تخص الحياة الآخرة ، ولهذا نراه في حديثه عن حبيبته لورا يخرج عن مألوف أهل زمانه فعبر بصراحة وحرية عن عواطفه وأحاسيسه تجاهها ، وهي امور لم تكن مقبولة كثيراً في أيامه ، كما هاجم بترارك الكنيسة بقوة وصراحه .

ظهر رواد آخرين للحركة الانسانية منهم ديسيدريس أرازمز (١٤٦٦-١٥٣٦) الذي كان مفكراً وانسانياً ، ولد في مدينة روتردام بهولندا لكنه قضى معظم حياته متجولاً في فرنسا وانكلترا والمانيا وسويسرا وايطاليا ، اختص باللاهوت وأصبح قساً لكنه كان شغوفاً بالقراءة وألف كثير من الكتب ونال شهرة بين الانسانيين كأستاذ ومفكر وكان على اتصال وثيق بصديقه توماس مور وملوك انكلترا وفرنسا ، وأصبح رئيساً لجامعة باريس مدة من الزمن . كان ارازمز يؤيد الحرية والتسامح وكرجل مؤمن بالمسيحية لم يناقش سلطة البابا والكنيسة ، لكنه كرجل انساني استخف بالخرافات السائدة في الكنيسة واللاهوت والرهبنة والمتعصبين للدين ، وفي كتابه (مدح فولي) The Praise of Folly الذي كتبه في دار صديقه توماس مور عام ١٥١١ ، سخر ارازمز من نقائض الانسان وانتقد الرهبان ورجال الدين مدعياً انهم يحصرون الدين في الحج الى الأراضي المقدسة والإبتهال الى القديسين والتبرك بآثارهم ، ومع ذلك فإنه لم يؤيد الثورة ضد الكنيسة ودافع عن البابا .

٣- تطور العلوم والثقافة

كانت ثقافة العصور الوسطى دينية صرفة توافق مع النصوص المقدسة والتقاليد المسيحية ، فكانت الكنيسة تهيمن على الثقافة والأدب ويحتكر رجالها من الكهنة والرهبان المعرفة والتعليم دون سائر البشر ، ومما كان يقوي من هيمنة الكنيسة على الحياة الفكرية كون اللغة اللاتينية هي اللغة المتداولة في المدارس والجامعات من دون سائر اللغات القومية ، وقد حافظت الكنيسة ولزمن طويل على سيادة اللغة اللاتينية على الحياة العقلية لأن ذلك يسمح لها بفرض رقابة شديدة على تطور الثقافة ، وحارب رجال الكنيسة بشدة اللغات القومية والمحلية واتهموها بأنها متخلفة وغير قادرة على احتواء ثقافة انسانية متطورة ، وهذا ما يبقى الغالبية من الذين لا يتكلمون اللاتينية بمعزل عن الثقافة والعلم والأدب .

إن تقلص نفوذ الكنيسة في عصر النهضة أدى الى انتشار اللغات القومية كأداة للتخاطب ونقل الثقافة والفكر على نطاق واسع بين الناس ، وقد رافق ذلك حركة جدية لدراسة الكون وعلم الفلك والتعرف على اسراره وقوانينه ، وأدى اختراع الطباعة في مدينة متز الألمانية حوالي عام ١٤٥٠ الى انتشار الثقافة والعلوم بين ملايين من الناس وبتكاليف رخيصة الثمن نسبياً وباللغات القومية أيضاً ، وانتشرت الطباعة في المانيا وانكلترا وفرنسا

وايطاليا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ورحب بها الأساتذة والبابوات ، وأسس البابا مطبعة في روما عام ١٤٦٦ . بدأ الانسانيون باستعمال اللغة الإيطالية لأنهم وجدوا في كتاباتهم بهذه اللغة رواجاً وإنتشاراً لأن جماهير المدن كانت تجهل اللغة اللاتينية بحكم صعوبتها وتعقيد قواعدها ، فأصبحت اللغة الإيطالية لغة الأدب والشعر والمعرفة وهكذا تحطم احتكار اللاتينية للمعرفة ، وانتهت رقابة الكنيسة على عقول الناس ، ولم تعد الثقافة خاصة بمن يتقنون اللاتينية وجلهم من الرهبان ورجال الكنيسة والآخرون ممن يملكون القدرة المالية على اقتناء المخطوطات الباهضة التكاليف ، بل أصبحت الثقافة والمعرفة متاحة للجميع ، واتجهت الجامعات في العصور الحديثة الى اللغات القومية ، كما تصدت الجامعات لسياسة البابوية وناهضت مبدأ خضوع جميع الكنائس خضوعاً تاماً للبابوية ، وكان على رأس الجامعات المعارضة جامعة باريس التي أيدت مبدأ استقلال الكنيسة الفرنسية ، وقد تحقق فعلاً استقلال هذه الكنيسة في عهد لويس الحادي عشر (١٤٦١-١٤٨٣) ، كما فرضت اللغة الفرنسية في القرن السادس عشر وجودها كلغة للأدب والثقافة ، وفي القرن نفسه فرضت اللغة الإسبانية نفسها في اسبانيا وهكذا تطورت اللهجات القومية في اوربا الى لغات قومية لها أدبها الخاص .

وتطورت العلوم في عصر النهضة تطورا كبيرا ولاسيما في مجال الفلك حيث برز رواد لهذا العلم ومنهم القس البولندي كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) الذي بين أن الأرض كوكب من الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس ، فضلا عن العالم الايطالي غاليلو (١٥٦٤-١٦٤٢) الذي أكد ان الارض تدور حول نفسها مما أثار خلاف شديد بينه وبين الكنيسة . كما تطور علم الرياضيات في عصر النهضة تطوراً ملحوظاً حيث اخترع العلماء اللوغارتمات عام ١٦١٤ ، كما بذل علماء عصر النهضة الكثير من الجهود لوضع علامات الجبر ، وأبدع رواد النهضة الاوربية في مجالات كثيرة أخرى منها الميكانيك والفيزياء والتعدين والطب وعلم النبات والحيوان وعلم الاقتصاد بالاضافة الى علم الفلسفة والجغرافية التي خطت خطوات مهمة منذ بدء الاستكشافات الجغرافية .

٤- تطور علم التاريخ والسياسة

شهد عصر النهضة أيضاً تطور علمي في مجالي التاريخ والسياسة ، فظهر اتجاه جديد في علم التاريخ يعتمد على التحليل والاستقراء والاستنتاج بإخضاع الرواية التاريخية للبحث والمناقشة وصولا الى الحقيقة التاريخية غير المزيفة ، أي أن مؤرخي عصر النهضة وضعوا أسس التأليف في التاريخ الأوربي الحديث ، كما أصبح النتاج الأدبي والتأريخي في القرن السادس عشر قوميا ، ومن الأسماء البارزة في هذا الشأن هو ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) القاضي والمؤرخ والكاتب والدبلوماسي ، نشأ ميكافيلي في فلورنسا وتعرف على علماء مدينته وجامعاتها ، ثم التحق بخدمة الدولة بصفة أمين سر المجلس الحاكم ومن خلال عمله اتصل بأبرز قادة عصره فإكتسب خبرة كبيرة وحصل على معلومات كثيرة عن أوضاع البلاد وعن اسرار السياسة الأوربية والعلاقات الدولية .

اشتهر ميكافيلي بتأليفه لكتاب الامير عام ١٥١٣ ، الذي هو تحليل وتعليل للإستبداد المستنير الذي عم إيطاليا والى حد ما اسبانيا وفرنسا ، وقد دون افكاره في هذا الكتاب على شكل نصائح يقدمها الى أمير وطني تخيله منقذاً لإيطاليا من الإنقسام والغزو الأجنبي واضعاً نصب عينيه مبدأ الغاية تبرر الوسيلة في حكمه وإن اختلفت الوسيلة مع المبادي والقيم والاخلاق الموروثة ، وينصح ميكافيلي الأمير ان يكون إنسانياً وطاغية في آنٍ واحد ، وإذا لم يكن كذلك فلا يستطيع البقاء ، وعليه أن يكون مخادعاً متى إقتضت مصلحة الأمة ذلك ، وأن يتعلم كيفية التنصل من المواثيق والعهود عند زوال مبرراتها خاصة إذا كان الاستمرار بها لايخدم مصلحة بلاده ، ويوصي ميكافيلي الأمير أن لايعطي الحرية للناس إلا بقدر معين لأنهم غالباً يسيئون استعمالها ، ونصحه أن يكون أميرا محبوبا من خلال توفير المشاريع التي تحبها الناس وبذلك يخافه الناس ويحبونه في آن واحد . وأخيرا رأى ميكافيلي أن على الأمير أن يجند جيشاً وطنياً قوياً موالياً له ، وأن يختار وزراءه من أفاضل الرجال وحكمائهم ويفسح المجال لأصحاب المواهب والكفاءات حتى تصبح حكومته مثالية تخشاها الرعية وتلتف حولها . تعرض كتاب الأمير لإنتقادات لاذعة في وقته لأنه تخطى قواعد الاخلاق وتجاهل فضائل المسيحية ، ومع هذا فمن المؤكد أن آراء ميكافيلي في كتابه الأمير كانت في عصر النهضة من المرتكزات الرئيسية لأنظمة الحكم في أكثر بلدان أوربا .

٥- تطور الفن في عصر النهضة

كانت الحركة الفنية موجودة في أوربا منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي ، حيث تطورت وتقدمت خلال اواخر العصور الوسطى بعض فنون النحت والعمارة ، إلا أن ما يميز بينهما هو أن فن العمارة بالذات بدأ يأخذ اتجاهات جديدة بحكم تأثير حركة احياء التراث ، يضاف الى هذا ان النهضة الفنية الجديدة تميزت بأنها أكدت على الإنسان من خلال النحت والرسم فلم يعد الفن مجرد عملية استنساخ آلي لقوالب معينة تفرضها الكنيسة وانما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان الذي تميز في عصر النهضة بكشفه النقاب عن جمال الآثار ومحاكاتها في الروح والتعبير وتميزه بالخلق والإبداع . كان لتنافس حكام الامارات الايطالية دوراً كبيراً في تقدم النهضة في بلادهم يضاف إليه دعم بعض البابوات لرواد النهضة الفنية ، حيث تم تزيين قصر الفاتيكان خلال تلك المدة من قبل فناني عصر النهضة ، كما شارك رواد النهضة في تزيين كنيسة القديس بطرس حيث تعاقب على تزيينها وزخرفتها كبار المعماريين والرسامين والنحاتين .

أ- **النحت** : ظهرت الحركة الكلاسيكية في النحت في القرن الرابع عشر نظراً لوجود المخلفات القديمة التي كانت منتشرة في ايطاليا والتي جلبت انتباه الإنسانيين ، وشجعت عائلة مديتشي في فلورنسا على دراسة فن النحت والتماثيل دراسة علمية ، فكانت القطع المنحوته في اثينا في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد تشبه تماما القطع الفنية المنحوتة في القرن الخامس عشر والسادس عشر ، كما أتيح لفن النحت عامل هام ساعد على إزدهاره ، حيث كانت التماثيل التي خلفها الرومان لاتزال قائمة ، فكان ذلك بمثابة أمثلة يحتذي بها فنانو عصر النهضة في نحت تماثيل جديدة ، ومن أبرز رواد فن النحت آنذاك هو مايكل أنجلو (١٤٧٥-١٥٦٤) ، ولد انجلو في فلورنسا وذاع صيته حين قام بنحت المجموعة الرخامية الشهيرة التي تمثل العذراء والطفل ومع ان انجلو كان يفضل فن النحت على اي فن آخر الا انه كان متفوقا في الرسم وهندسة البناء ومغرماً بكتابة الشعر كما كان رساماً ايضا ورسم ما يقارب ٢٠٠ لوحة جسد فيها إبداعاته الفنية ومهاراته ، وقد دعاه البابا يوليوس الثاني الى نحت ورسم سقف كنيسة سيستين في الفاتيكان ، فأمضى انجلو اربعة أعوام ونصف يقوم بتلك المهمة التي بذل فيها ماعنده من فكر وإبداع فني ، وكان أنجلو يعمل مستلقياً على ظهره فوق

منصة عالية حتى أنجز إنجازه الرائع الذي يعد إعجوبة من أعاجيب الفن في التاريخ ، وله أعمال أخرى في النحت تنطق بعبقريته مثل تمثال العذراء والمسيح المقام في كنيسة القديس بطرس في روما وتمثال النبي داود في فلورنسا المنحوت من الرخام ، وقد نصب هذا التمثال أمام قصر الإمارة في فلورنسا عام ١٥٠٤ . انتشر النحت خارج ايطاليا ايضاً واستدعى ملوك انكلترا وفرنسا النحاتين لصنع تماثيلهم ، كما تم نحت قبر فردناند وايزابيلا في اسبانيا على الطراز الكلاسيكي ، وظهر النحت في المانيا قبل مجيء حركة الإصلاح الديني وأخذ ينتشر في أوربا الغربية في القرن السادس عشر .

ب- الرسم : وهو الفن الاول لعصر النهضة في شبه الجزيرة الايطالية ، فقد تميزت الفنون بالتحرر من قيود الروح الدينية فأخرجوا صوراً تنبض بالحياة واستخدموا الأصباغ الزيتية ، وكان لكل مدينة ايطالية مدرستها الخاصة في فن الرسم والتصوير ، تطور الرسم أكثر من النحت ووصل الى مرحلة لابأس بها أواخر العصور الوسطى ، إلا أنه كان حبيس اتجاهات الكنيسة ولخدمة أغراضها ، وكان الرسم يتم على جدران الكنائس والقصور أو على الخشب أما في عصر النهضة فقد طور الايطاليون فن الرسم وتعلموا فن الرسم الزيتي وأساليب تحضير الأصباغ ومزجها بالزيت ، وبدأ الرسامون يعالجون مواضيع بعيدة عن الروح الدينية مستمدين أفكارهم من الطبيعة والحياة والإنسان والجسد ، وعبروا في رسومهم عن العواطف والمشاعر والغرائز والأحاسيس ، وعندما سادت افكار عصر النهضة بشكل واسع اتخذ الرسامون من الانسان موضوعاً لذاته فأبرزوا قوته وركزوا على النواحي الجمالية في الجسد . ومن أبرز رواد الفن :

١- ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) : ولد دافنشي في بلدة فيشي الجبلية في ١٥ نيسان وإمتاز بتعدد ملكاته وإتساع ثقافته ، فقد برع في الطب والميكانيك وفي تصميم الآت الحرب والنحت والرسم والتصوير والعمارة وعلم وظائف الاعضاء والرياضة وعلوم الطبيعة وعلم التشريح والجغرافيا ، هذا الى جانب كونه موسيقياً وشاعراً ، مما دفع البعض الى وصفه بأنه كان موسوعة علمية ضمت شتى العلوم التطبيقية . ومن أهم أعمال دافنشي صورتيه الشهيرتين عذراء جروتو إحداها في متحف اللوفر في باريس ، والأخرى في المتحف الوطني في لندن ، وصورة العشاء الأخير في كنيسة سانتا ماريا في ميلانو ، والتي دلل فيها

على إبداعاته ، وتعمقه في إدراك النفس البشرية وإنفعالاتها وردود أفعالها وذلك في المنظر الرائع الذي جمع المسيح وحواريه الاثني عشر ، على مائدة وضع عليها الخبز واقداح الشراب وهو يعلن لهم أن أحدهم سوف يخونه وقد ظهر وجه المسيح بصفائه الروحاني وهدوءه في حين كانت صورة الانزعاج تبدوا على وجوه أتباعه .

ولدى دافنشي رائعته الشهيرة الموناليزا أو الجيوكندا في متحف اللوفر في باريس وهي صورة لسيدة شابة جميلة كانت زوجة لضابط يكبرها سناً إسمه فرانشسكو جيوكندا ، وقد قام دافنشي بوضع كل طاقاته وإمكاناته ومواهبة الفنية خلال رسمه للموناليزا التي استغرقت منه اربع سنوات (١٥٠٢-١٥٠٦) وهي لوحة لسيدة من فلورنسا جميلة وشابة متزوجة من ضابط يكبرها سناً اسمه الجيوكندا ، وكان حاكم فلورنسا معجباً بجمالها الهاديء الحزين فأمر دافنشي برسمها وتعد الموناليزا أشهر الإنجازات الفنية لدافنشي .

٢- رافائيل (١٤٨٣-١٥٢٠) : يعد ثالث العمالقة الكبار في فن النحت والتصميم والرسم فقد درس أعمال دافنشي ومايكل أنجلو وتلقى الكثير عنهم في أثناء وجوده في فلورنسا ، كما استفاد منهم في أعماله الفنية ، ولم يكن رافائيل تلميذاً يقلد استاذه بل استفاد منهم وفاقهم في الإبتكار والابداع فكانت له شخصيته القائمة بذاتها ، وقد رسم رافائيل لوحات عديدة للعذراء مريم ، كما قام بتزيين قاعات الفاتيكان وزخرفة بعض غرفه ، والى جانب ذلك له روائع فنية أخرى تدل على عبقريته مثل مدرسة اثينا التي اوضح فيها خلاصة تاريخ الفلسفة والسر المقدس التي لخص فيها تاريخ الكنيسة . وقد توفي رافائيل عام ١٥٢٠ عن سن لا يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد ان ترك نتاجاً ضخماً في ميدان التصوير والعمارة ، وعلى كل حال فإن دافنشي وانجلو ورافائيل يشتركون معاً في إبراز معالم النهضة الفنية في ايطاليا لدرجة جعلتها في طليعة ما قدمه الفنانون للبشرية من إبداع فقد اخرجوا لها انتاجاً فنياً افتخرت به العديد من الاجيال وعدته نبراساً لها في محاكاته .

ج- الأدب : لعل أبرز ماتوصل إليه الفن الأدبي في القرن السادس عشر كان في حقلي الشعر والمسرح ، وقد تأثر الأدب في هاذين الحقلين بالكلاسيكية والإنسانية من حيث الموضوع والنوعية ، وظهر كتاب وأدباء وشعراء في ايطاليا وخارجها وسنتناول نموذجين للأدب في أوربا النموذج الأول من ايطاليا والنموذج الثاني من انكلترا كما يلي :

١- دانتي اليجيري (١٢٦٥-١٣٢١) : كان دانتي شاعراً بالدرجة الأولى ، ويعد من القمم العالية في مجال الأدب العالمي فقد كان خير شاهد على نهاية عصر وميلاد عصر جديد ، خصوصاً أنه عاش في مفترق الطرق بين عصرين فتأثر بتقاليد العصور الوسطى ، وساهم في الوقت نفسه بدور مهم في أدب عصر النهضة . ولد دانتي في مدينة فورنسا من اسرة نبيلة فقدت ثروتها وسلطانها وقت ولادته وقد أصبح حالها متواضعاً للغاية ، كما فقد دانتي والديه ولم يكن قد بلغ مرحلة الشباب بعد . كان مولعاً منذ صغره بسماع القصص ، ودرس اللاتينية القديمة وألمَّ بآثار اليونان والشرق القديم وتراث العصور الوسطى في جامعتي بادوا وبولونيا ، كما درس الفلك والرياضيات والفلسفة وعلوم الدين والى جانب ذلك درس الشعر وأحب الأدب حباً كبيراً . ألف دانتي كتاب الملكية باللغة اللاتينية ودعا فيه الى توحيد ايطاليا في نطاق الامبراطورية وطالب بوجود سلطتين احدها سلطة البابا الدينية والاخرى سلطة الامبراطور السياسية ، وإن كلا السلطتين تستمد سلطتها من الله سبحانه وتعالى مباشرة بحيث لايكون أحدهما تابعاً للآخر بحيث يتفرغ البابا للمسائل الدينية وتوضيح تعاليم المسيحية والدعوة الى الخلق الكريم على حين يتفرغ الامبراطور للامور السياسية وتنظيم العلاقات بين الحكام والمحكومين وبين الحكومات وبعضها ، وهنا يتضح رغبة دانتي بفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية مما يعني بانه سبق بهذا التفكير فلاسفة الثورة الفرنسية ، كما يتضح في هذا الكتاب تمسك دانتي بفكرة الامبراطورية التي تجعل أوربا كلها تحت حكم امبراطور واحد يكون مقره في روما ، وهي الافكار نفسها التي كانت سائدة في العصور الوسطى .

كان دانتي ولوعاً بلغته القومية لذلك نجده قد كتب أهم أعماله الكوميديا الإلهية باللغة المحلية رغم معرفته باللغة اللاتينية التي كانت سائدة في ايطاليا ، مما شجع القراء والكتاب الآخرين للسير على منواله ، مجّد دانتي في ملحمته الشعرية الكوميديا الإلهية حبه لحبيبته بياتريشي التي رفعها فوق مصاف البشر ، لكن حبه لها لم يكن متكافئاً خاصة وإنه كان من اسرة متواضعه ، في حين كانت حبيبته إبنه احد أثرياء فلورنسا ، ونتيجة لهذا التفاوت الطبقي بينهما حرم من لقاء فتاته على مسرح الواقع مما دفعه أن يتصورها في خياله ، وقد زاد من حزنه عندما رآها تتزوج من رجل آخر في مثل ثراء والدها ، ثم انفطر قلبه عندما

سمع بوفاتها وهي في عز شبابها ، ومن هنا بدا دانتي يحاول مرافقتها في خياله في مرحلة ما بعد الموت فمضى حوالي ثمانية عشر عاماً يكتب حتى هداه خياله الى تأليف الكوميديا الإلهية ، التي ضمت حوالي خمسة عشر الف بيتاً من الشعر مقسمة الى ثلاث أقسام وتشمل رحلته الى الجحيم أي جهنم والفردوس أي الجنة ، وقد صحب معه في هذه الرحلة الشاعر الكبير فرجيل الذي كان بمثابة المرشد له ، وتصور دانتي انه رأى حبيبته بياتريشي في الفردوس وأرتقى معها في طبقاته الواحدة بعد الأخرى .

٢- **شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) :** ولد شكسبير في مدينة ستراتفورد من أبوين انكليزيين ، وكان والده أمياً كثير الأولاد ، ولهذا لم تتح لشكسبير فرصة الدراسة الجامعية ، ومع ذلك كان شاعرا مشهوراً ، درس في مدرسة ستراتفورد الابتدائية وتزوج من إحدى فتيات المدينة وعمره ١٨ عاماً ، وأنجبت زوجته بنتاً اسمها سوزانا وتؤأمين ، ظهر شكسبير ككاتب مسرحي عندما رحل الى لندن عام ١٥٨٤ ، وبدأت شهرته تزداد هناك فأصبح من رموز عصر النهضة في انكلترا لكثرة النتاجات الادبية التي قدمها ، بدأ مشواره كممثل لكنه تحول فيما بعد الى كاتب لثلاث مسارح رئيسية في لندن ، وبحلول عام ١٥٩٤ أصبح شكسبير نبيلاً وصاحب ثروة ويمتلك شركة مكونه من عدة مسارح في لندن ، كما أصبح صديقاً لعدد من الشخصيات في بلاط الملكة اليزابيث ، وكان شكسبير ينتج مسرحيتين سنوياً ، ونشرت مسرحياته لأول مرة عام ١٦٢٣ ، أما أشعاره (السونيت) فعبارة عن ١٥٤ قطعة نشرت عام ١٦٠٩ خلال حياته ، وكتب شكسبير قصتين شعريتين ، وأشهر مسرحياته كانت هاملت الذي يمثل الصراع بين الحب والانتقام ، كما كتب مسرحية روميو وجوليت التي مثلت قصة شابين فشلا في الحب ، ولديه أيضاً مسرحية ماكبيث التي هي عبارة عن دراما ينال فيها المجرم العقاب ، ومسرحية يوليوس قيصر التي مثلت الصراع الروحي بين الطموح الشخصي والواجب الوطني ، ومسرحيات أخرى كثيرة تراجيدية (مأساوية) ، وهزلية ، وتأريخية كتاجر البندقية ، كما أن اشعاره السونيت بقيت تلهم الشعراء والكتاب الى الابد .

انتشار النهضة الى خارج ايطاليا

أدى اختراع الطباعة دوراً كبيراً في انتشار النهضة في اوربا ، إذ سهل عملية توزيع المؤلفات العلمية والأدبية على عامة الشعب ، إضافة الى هذا أن طلاب العلم والباحثين من

أوربا الغربية أخذوا يترددون على جامعات ايطاليا وأكاديمياتها للدراسة على يد الأساتذة الإيطاليين ، وقد كان هؤلاء الأوربيون الغربيون متأثرين بفكر النهضة الإيطالية ومعجبين بالتراث القديم وبعقلية الإنسانيين ، من جانب آخر أخذ الإنسانيون الإيطاليون يتجولون الى أوربا الغربية ليبشروا بأفكار النهضة وليعلموا الناس آداب القدماء وفنونهم ، وقد كان لهذه الإتصالات أثرها بحيث أن جامعات أوربية كثيرة إستدعت أساتذة ومحاضرين ايطاليين ليدرسوا طلبتها فكر النهضة الإيطالية وفنونها وآدابها .

أدت هذه العوامل الى انتشار النهضة من ايطاليا الى باقي الدول الأوربية مما ساعد في ظهور مفكرين وعلماء أوربيين تبنوا النهضة في بلادهم وفي أوربا عموماً ومنهم أرازمز الذي يعود له الفضل الكبير في نشر فكر النهضة في بلده هولندا وفي كل بلاد أوربا حيث اشتهر إسمه وأرتفعت مكانته وكثر طلابه ، وأصبح ارازمز رائد مدرسة خاصة به في الدراسات الإنسانية جعلت له اتباع كثيرين في انكلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا . تاخر وصول النهضة الى فرنسا بسبب حرب المائة عام ومشاكلها الداخلية ، لذلك تأخر وصول النهضة إليها إلى مطلع القرن السادس عشر بعد غزو الفرنسيين لإيطاليا ، وفي هذا الوقت انتشر تدريس اللغة اليونانية في الأكاديميات الفرنسية وخاصة في باريس حيث حاضر اساتذة انسانيون في اللاتينية واليونانية القديمة ، ومما شجع نمو الحركة رعاية حكام فرنسا لها ففتحوا قصورهم لرواد النهضة وأمدوهم بالمال والرعاية ، وأقاموا أكثر من مركز واكاديمية للدراسات الإنسانية مثل الكلية الملكية في باريس التي أقامها الملك فرانسوا الأول (١٥١٥-١٥٤٧) ، ويجب أن لايفوتنا ذكر الملك شارل الثامن الذي جلب معه من ايطاليا الى فرنسا عدداً من فناني عصر النهضة فقامت في مطلع القرن السادس عشر منشآت وقصور ذات أسس ايطالية-فرنسية في معمارها وصار للفرنسيين في اواخر القرن السادس عشر فن يتسم بطابع النهضة الفرنسية .

أما إسبانيا فقد كان إتصالها بالنهضة في ايطاليا قديماً بسبب الوجود السياسي الإسباني في ايطاليا وهو عرش الفونسو الخامس الأراغوني في ميلانو ، ونشطت هذه الاتصالات في عهد البابا الإسباني كاليكست الثالث والاسكندر السادس حيث بدأ الإنسانيون الإيطاليون ينشرون أفكارهم بين الإسبان ، لكن قيام حركة الإصلاح الديني ووقوف إسبانيا بقوة إلى

جانب الكنيسة الكاثوليكية أدى الى ظهور معارضة قوية للحركة الإنسانية من قبل الدولة والكنيسة في اسبانيا مما أدى الى ايقاف تطورها وتقدمها . وفي انكلترا أعاقت حروب المائة عام وحرب الوردتين تقبل الانكليز لأفكار النهضة ومسايرة ركبها ، ثم وصلت النهضة اليهم على يد عدد قليل من الطلاب والدارسين الذين بهرتهم انوار عصر النهضة في ايطاليا فقصدوا جامعاتها ليتعلموا على أيدي اساتذتها منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وبرع في الدراسات الانسانية في انكلترا توماس مور صديق ارازمز ، كما تبنت جامعتا اكسفورد وكامبرج مباديء النهضة في تدريس اليونانية والقانون وعلوم الطبيعة .

حركة الإصلاح الديني أسبابها ونتائجها

أصبحت الكنيسة سيدة اوربا بلا منازع خلال العصور الوسطى ، بفعل الظروف التي رافقت قيام النظام الإقطاعي ، لكن فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها في المشرق أفقد الكنيسة الكثير من قدراتها وطاقاتها ، يضاف الى هذا أن رجال الدين ولاسيما الكبار منهم قد تركوا واجباتهم الدينية مندفعين نحو الإستفادة من النفوذ والسلطان ، فأهتم البابوات وبعض رجال الدين الكبار بمظاهر الترف وحياة البذخ مما أفقد هذه المهمة الدينية بعض هيبتها واحترامها لدى الجماهير الأوربية . تعتبر حركة الإصلاح الديني التي اشتدت جذوتها في القرن السادس عشر الميلادي من نتائج عصر النهضة ولا تزال إفرازاتها باقية الى اليوم تتمثل في المذاهب الجديدة التي اتت بها حركة الاصلاح الديني وفي الانقسام الديني في أوربا بل وفي العالم الذي يدين بالمسيحية ، وكما سنرى ان هذه الحركة جرت اوربا الى حروب دموية ، وكانت هذه الحركة اعنف ضربة تلقتها الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر وترتب عليها ان خرج على هذه الكنيسة أكثر من نصف اوربا الغربية التي كانت تدين لها بالولاء الديني والتي ظلت اكثر من الف عام تحت نفوذ كنيسة روما .

ومن اهم الاسباب التي أدت الى ظهور حركة الاصلاح الديني في اوربا هي :

١- التدهور الذي أصاب مكانة البابوية ورجال الدين في روما : فقد حدث انشقاق بين رجال الدين في روما ترتب عليه أن وجد في بعض الاحيان على راس العالم المسيحي الغربي ثلاثة بابوات (في مدينة افينون الفرنسية وروما وبيزا الايطاليتان) يتنازعون على زعامة العالم المسيحي ويطعن كل منهم في صلاحية الاخر لتولي كرسي البابوية ، وأدى هذا بالطبع

الى ان فقدت البابوية هيبتها ومكانتها في نظر المسحيين ، هذا بالإضافة الى ما وصل اليه كبار رجال الدين من تكالب على الإثراء والبعد عن التضحية وحياة التقشف فانهمكوا في الملذات وحياة البذخ والترف بل والمجون والفسق ثم زجوا بانفسهم في الحياة السياسية فشاعت في المجتمع البابوي في روما وسائل التآمر والغدر والاغتيال بالسم واثارة الحرب لتحقيق اغراض دنيوية ، وقد ظهر مصلحون أواخر العصور الوسطى نادوا بأن على الكنيسة ورجال الدين أن يصلحوا أنفسهم منهم على سبيل المثال الانكليزي جون ويكليف (١٣٢٨-١٣٨٢) الذي دعا رجال الدين الى أن ينصرفوا لواجبهم الأساسي وهو العمل على احياء كلمة الله ، وإن اتجاههم الى جمع الثروات الكبيرة انحراف يؤدي الى افقار خزينة الدولة ، وهاجم حياة الرهبنة واعتبرها استكانه لحياة الكسل والهدوء ، وان تدخل رجال الدين في حياة الناس الخاصة بإدعائهم انهم حلقة الوصل بين الإنسان وخالقه أمر يتنافى مع الدين الصحيح . وظهر في التشيك جون هس (١٣٧٠-١٤١٥) الذي كتب عدة مقالات ندد فيها بالحياة الماجنة التي يعيشها رجال الدين ، وهاجم صكوك الغفران وانتقد سلطة البابا المطلقة ، وفي ايطاليا انتقد الراهب سافونا رولا الكنيسة في روما وممارسات كبار رجال الدين ومساؤهم ، ومن دعاة الإصلاح الآخرين ارازمز الذي كان معتدلا في انتقاده للكنيسة ودعا الى اصلاح رجالات الكنيسة بحلم ورفق ، مما يشير الى أن حركة الإصلاح الديني لها جذور تأريخية وليست حركة آنية .

٢- انتشار روح النقد والتحرر الفكري : تحرر كتاب المفكرون من قيود الكنيسة على العقول والكتابة والخطابة وادى هذا الى كشف النقاب عن فضائح رجال الدين وظهرت للعيان الانحرافات الدينية التي أذاعوها وانبرى عدد من رواد الفكر لإظهار كل هذه النقائض وتصدت البابوية لهذه الحركات الاصلاحية وهاجمت دعاة الاصلاح ووصفتهم بالزندقة والكفر وأدى هذا الى صراع مرير .

٣- رغبة حاكم ألمانيا في التخلص من سيطرة كينسة روما : فقد كانت المانيا مقسمة الى عدة مقاطعات تجاوزت ٣٥ ، وكان حكام هذه المقاطعات يرون ان سلطات البابا تحد من حريتهم واستقلالهم ويجب ان يخضع رجال الدين الالمان لسلطات حكومتهم بدلا من سلطات البابوية كما كانت اراضي كثيرة في الاقاليم الالمانية تابعة للكنيسة وتخضع لسلطات البابوية

فرأى حكام المانيا ان تخلصهم من سلطات البابوية يعني ان يمتد سلطانهم الى هذه الارض فلا تتسرب الاموال الالمانية الى روما .

٤- صكوك الغفران : كانت هذه هي السبب المباشر للحركة الثورية التي اندلعت في المانيا وقد نشأت فكرة هذه الصكوك عن فكرة دينية اتبعها رجال الدين وروجوا لها مفادها ان الانسان اذا ارتكب خطيئه وندم على ارتكابه لها وتاب عنها ثم اعترف بها امام رجال الدين فانه لا يدخل الجنة مباشرة لكنه يظل فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ليتطهر تماماً من ذنوبه ، وقد اشاع رجال الكنيسة ان العذاب الذي يلقاه المذنب التائب في اثناء وجوده في المطهر (المكان الذي يتطهر به من ذنوبه وقد يكون في احد الاديرة) يمكن تحقيقه بالحج الى بعض كنائس روما او الصلاة فيها ثم زيارة قبور الرسل ، وتطورت فكرة تخفيف عذاب المطهر فاجاز رجال الكنيسة تقديم الهبات المالية الكنيسة لشراء ما اطلق عليه اسم(صكوك الغفران) بدلا من تحمل مشقة الحج الى روما .

وتطور أمر هذه الصكوك واتسع نطاقها اذ اخذ بابوات روما يرسلون مندوبين عنهم الى مختلف الأقاليم لبيع صكوك الغفران ، ووجدت البابوية في هذه الصكوك موردا ماليا غزيرا وزاد اقبال الناس على شراء هذه الصكوك كل حسب مقدرته المالية ، وزعم رجال الدين ان الموتى يمكن ان يستفيدوا من هذه الصكوك ، وليس ذلك فحسب بل أصبحت صكوك الغفران ثمنا لغفران جميع الخطايا التي ارتكبها الانسان في الماضي وحتى الحاضر أو المستقبل ، فأصبحت تحريضا سافرا على الانغماس في الخطايا . ووجدت الكنيسة في هذه العملية موردا ضخما تحت ستار ديني وصورتها على انها بمثابة تذاكر تبيح لحاملها فرصة دخول الجنة ، وكان بيع صكوك الغفران مثار سخط عميق عن كثير من المفكرين الأحرار فاندفع عدد كبير منهم يستهجنون الفكرة من اساسها وتطور الامر الى ان حدثت حركة الاصلاح الديني والتي ابتدأت في المانيا .

مارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني

ولد مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) في إمارة سكسونيا الألمانية من ابوين فلاحين ، وعاش حياة تعيسة فقيرة ، وقد درس القانون في جامعة ارفورت ، وفي عام ١٥٠٥ أصبح راهباً ، اهتم والده بتعليمه فأرسله الى المدرسة ثم الى الجامعة لدراسة القانون ، الا انه قرر

ان ينخرط في سلك الرهبنة ، وفي الوقت نفسه كان يدرس علم اللاهوت حتى نال شهادة الدكتوراه واستدعي للتدريس في جامعة سكسونيا عام ١٥٠٨ حيث لمع اسمه وكثر المعجبين بآراءه خاصة حول مسالة الخلاص والتطهير من الخطايا ، وزار روما عام ١٥١١ وقد أدهشه في روما انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين والبابوات وإنغماسهم في حياة التبذل والملذات فقال عبارته : **" إنّ من يذهب الى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء مايرى هناك "** ، وفي عام ١٥١٧ جاء الى مدينة ووتنبرغ راهب ليوزع صكوك الغفران يدعى حنا تتزل ، وخصص الراهب جزء صغير من حصيلة البيع الى كبير أساقفة مانيز ، والجزء الأكبر الى خزانة البابا ليو العاشر للإسهام في نفقات المبنى الجديد لكنيسة القديس بطرس في روما .

دعا تتزل الناس الى شراء صكوك الغفران لانها ستمنحهم الغفران بغض النظر عن الذنب الذي اقترفوه ، وكان ذلك بمثابة تحريض على ارتكاب الآثام والخطايا ، وعهد البابوات الى البنوك والمصارف في ألمانيا للقيام بعملية البيع وجمع الاموال ، فادى تدخل المصارف الى أن تصبح المسألة تجارية بحتة فيكفي لأي انسان ان يدفع مبلغاً لأحد المصارف المخولة والحصول على صك الغفران ، لم يكن بيع صكوك الغفران مقبولاً من قبل حكام المانيا ومثقفيها الذين كانوا يرون في بيع هذه الصكوك ضياعاً للثروة القومية الالمانية لصالح روما والإيطاليين في الوقت الذي تحتاج فيه المانيا لهذا المال لمعالجة مشاكلها الإجتماعية والإقتصادية الكثيرة . أما مارتن لوثر فكان ينظر الى الموضوع من زاوية عقائدية صرفة ، وكان يعتقد أن الغفران لايأتي إلا عن طريق الإيمان برحمة الله ، وليس من حق الكنيسة او رجال الدين ان يمنحونه للناس لأنه هبة من الله للتائبين ، وقد استغل لوثر فرصة اجتماع الناس في كنيسة ووتنبرغ سنة ١٥١٧ وعلق على باب الكنيسة اعلاناً يتألف من ٩٥ بنداً بين فيه آراءه ومواقفه من قضية صكوك الغفران وقضايا أخرى كثيرة من أبرزها أن البابا لا يستطيع التدخل في غفران الذنوب وان الكتاب المقدس وحده هو القانون الذي يرجع اليه في جميع المسائل المختلف عليها ، وان ليس للبابا الحق في احتكار تفسيرة ، فكان ذلك بداية للثورة اللوثرية التي انتشرت بسرعة بين الناس والتي قادت الى تأسيس الكنيسة البروتستانتية المستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية .

لاقت آراء لوثر رضا الكثيرين والتف حوله اتباع متحمسين في ألمانيا ، وفي عامي ١٥١٩و١٥٢٠ عبأ لوثر الرأي العام بسلسلة من الكتابات الدينية التي ضمنها تفسيره للعقيده الجديدة ، وان على الناس ان يبحثوا عن الحقيقة بانفسهم في الكتاب المقدس ، ووجه نقد عنيف للكرادلة على حياة البذح والرفاهية التي يتمتعون بها واعلن وجوب إنقاص عدد الأديرة ، كما أكد على ضرورة التخلص من السيطرة الأجنبية وايقاف دفع الأموال الى البابا ونبه النبلاء والطبقة الوسطى بما سيرجع إليهم من الثروة والسلطة على حساب املاك الكنيسة وثروتها الضخمة ، ولما كان الامبراطور شارل الخامس مشغولاً بالحروب الأجنبية مع فرنسا في ايطاليا ، ومع العثمانيين شرق أوربا ، لم يستطع أن يتخذ أي إجراء ضد مارتن لوثر وأنصاره . ردت الكنيسة في روما على لوثر بان اصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان من الكنيسة ضده عام ١٥٢٠ ، وكان رد لوثر أن احرق قرار البابا علانية امام الناس في ساحة كنيسة ووتنبرغ ، وفي عام ١٥٢١ احيل لوثر الى المحاكمة بطلب من البابا وحكم عليه بإهدار دمه وحرمانه من الحقوق المدنية في الإمبراطورية ، لكن صديقه فردريك أمير سكسونيا وضعه تحت حمايته ، ووضعه في قلعة حصينة وأقام لوثر هناك سراً بمعزل عن الناس لمدة عام ترجم خلالها الإنجيل الى اللغة الالمانية وكان لهذه الترجمة اثر كبير في احياء الادب الالماني وسهل على العامة فهم معاني الكتاب المقدس ، كما أصبحت هذه الترجمة تحفة رائعة في الأدب الألماني .

استطاع اللوثريون ان يسيطروا على مساحات واراضي تابعة للكنيسة الكاثوليكية وانضم اليهم بعض الامراء في الوقت الذي انتشرت فيه افكار لوثر في المانيا ونتيجة لذلك دعا شارل الخامس الى ارجاع الاراضي وامر بقمع اللوثرية ، فاحتج الأمراء اللوثريون على هذه القرارات لانها ستحرمهم من الثروة التي هبطت عليهم بعد استيلائهم على ممتلكات الكنيسة لذلك قرروا عدم الموافقة على تلك القرارات وسموا انفسهم بالمحتجين Protestants وهو الاسم الذي يحمله اتباع هذا المذهب حتى اليوم ، وادى هذا الإنقطاع العقائدي مع روما الى ظهور الكنائس البروتستانتية في المدن الألمانية التي أصبحت لوثرية ، وأشرف مارتن لوثر بنفسه على تأسيس تلك الكنائس الجديدة ، ونبذ لوثر المبادىء الأساسية للكاثوليكية ، وألغى لوثر الرهبنة والبابوية والنظام الكهنوتي ، وأصبح امراء

المقاطعات هم رؤساء الكنائس البروتستانتية بدلاً من البابا وحلت اللغة الألمانية محل اللغة اللاتينية في المواعظ الدينية ، وألغيت الأعمال الصالحة كالحج والصيام وعبادة العذراء والقديسين وصكوك الغفران ، وأصبحت ترجمة لوثر للأنجيل الى الألمانية المصدر الأساسي للبروتستانتية . وفي نفس الوقت ازدادت الخلافات بين البروتستانت والكاثوليك وتطور الامر الى الحرب والصدام العسكري بين الطرفين ، وحاول الإمبراطور شارل الخامس ان يصل الى حل يرضي جميع الاطراف ، وخلال تلك الاحداث توفي مارتن لوثر في ١٧ شباط ١٥٤٦ وخسر البروتستانت زعيمهم الروحي الكبير .

وبعد حروب طاحنة ودامية بين الطرفين توصلوا الى عقد صلح ديني اطلق عليه صلح اغسبورغ عام ١٥٥٥ ، أهم ماجاء فيه :

١- إعطاء الحرية لكل امير ان يختار المذهب الذي يروق له في امارته .

٢- على الرعايا الذين يريدون البقاء حيث هم ان يدينوا بالمذهب المختار ، وإلا فلهم حق المغادرة للولاية التي يعيشون فيها إلى التي تدين بالمذهب الذي اختاروه لانفسهم ولكل شخص منهم الحق في ان يأخذ معه أمواله دون التعرض له باي اذى .

٣- تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التي اخذها البروتستانت قبل عام ١٥٥٢م في أيدي من استولى عليها من رجال الدين وغيرهم ، أما الأملاك التي فقدتها بعد عام ١٥٥٢م فيجب ردها الى الكنيسة الكاثوليكية في روما .

كان هذا الصلح من الناحية الدينية انتصارا كبيرا للبروتستانت ولكنه ادى الى تجزئة المانيا من الناحية السياسية وبعثرتها الى دويلات كثيرة منفصلة بعضها عن بعض . ولم تقتصر حركة الاصلاح الديني على المانيا بل ظهر مصلحين في مناطق أخرى من أوربا ومنهم جون كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) الذي ولد في فرنسا ودرس علم اللاهوت في جامعة باريس ، لكنه غادر فرنسا بسبب اضطهاد الملك فرانسوا الاول للبروتستانت ، فأستقر في سويسرا وهناك أصدر كتابه الشهير تنظيمات الدين المسيحي ، وأسس في جنيف حكومة دينية بقي يرأسها حتى وفاته ، وتشابهت آراء كالفن مع لوثر في كثير من الامور لكنه أختلف معه في موضوع خضوع الكنيسة للدولة ، فرأى كالفن ضرورة خضوع الكنيسة بشكل كامل للدولة وتكون واجبات الملوك فيه خدمة الدين والعمل بما انزله الله في الكتاب المقدس . لقيت

دعوة كالفن استجابة واسعة في فرنسا فانتقلت الحركة الكالفنية من السرية الى العلنية ، وأقامت اول كنائسها في باريس عام ١٥٥٩ ، كما انتشرت بين عدد من سكان المجر وبوهيميا وفي بولندا والأراضي المنخفضة ووصلت أيضاً الى انكلترا واسكتلندا . وفي سويسرا نفسها ظهر مصلح آخر هو اولريخ زونجلي (١٤٨٤-١٥٣١) الذي بدأ دعوته في مدينة زيوريخ بعد أن تثقف بأفكار المصلحين مثل ارازمز وقرأ الدراسات الرومانية القديمة وبدا يبث أفكاره من خلال وعظه في كنيسة زيورخ الكبرى ، فأصبح له اتباع كثيرون وتوسعت هيمنته مما ادى الى انقسام المقاطعات السويسرية بين بروتستانت وكاثوليك .

كان زونجلي شديد التأثر بالكتاب المقدس وركز على القضايا الوطنية والقومية ، واكد على ضرورة خدمة سويسرا قبل كل شيء وان لايخضع السويسريون الى سلطة روما التي كانت السبب في نكباتهم ، وهاجم نظام الرهبنة وحرم استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة ، أختلف زونجلي أيضاً مع لوثر في بعض الامور ، فبينما اعتبر لوثر الملك او الامير أو الإمبراطور رئيساً أعلى للكنيسة والمهيمن على شؤنها نجد أن زونجلي يرفض ذلك ويدعوا الى تحويل الكنيسة الى مؤسسة قائمة بذاتها ، كما أختلف زونجلي عن لوثر في تمسكه باستعمال العنف لنشر دعوته بينما فضل اللوثريون العمل السياسي ولذلك خاض الحروب ضد الكاثوليك بنفسه عام ١٥٣١ ولقي حتفه واحرق الكاثوليك جثته .

الإصلاح الكاثوليكي المضاد

عندما وجدت الكنيسة الكاثوليكية أنها لن تستطيع الوقوف بقوة وصمود أمام الموجه العارمة لحركة الإصلاح الديني ، إتجه بعض رجالاتها الى التفكير بإصلاح أوضاعها بالشكل الذي يجعلها مقبولة أكثر من قبل الناس الذين وجدوا في البروتستانتية وعقائدها ما يتلائم مع روح العصر الجديد الذي رفض مظاهر العصور الوسطى ، وكانت إحداها الكاثوليكية المتعصبة . لقد انتشرت البروتستانتية في ثلاثة أرباع ألمانيا وتأثرت بها فرنسا وهولندا وبلجيكا وانكلترا والدول الاسكندنافية ، وقد استدعى هذا الإنتشار الواسع للبروتستانتية القيام بإجراءات مضادة من قبل البابوات لوقف هذا الخطر أو الحد منه على الأقل ، وتمخض عن حركة الإصلاح المضاد مايلي :

١- مجمع ترنت : إنعقد هذا المجمع عام ١٥٤٢ في مدينة ترنت على الحدود الإيطالية-الألمانية ، وقد امتدت اجتماعاته المتقطعة حتى عام ١٥٦٣ ، وحظره مندوبوا الملوك والامراء الأوربيين وكبار رجال الدين ، وأصدر المجتمعون مجموعة قرارات حيث أكدت القرارات على ضرورة استخدام اللغة اللاتينية وليس القومية في الصلاة بالكنائس الكاثوليكية ، كما اكدت على تحريم زواج القس والتمسك بنظام الأديرة ونظرية الغفران وسلطة البابا المستمدة من سلطة المسيح ، كما رفض المجمع أفكار لوثر وكالفن ، ومن أجل الحفاظ على العقيدة ووحدتها فقد قرر مجلس ترنت تفويض البابا بإعداد قوائم بأسماء الكتب والمطبوعات التي كتبها لوثر وكالفن وزونجلي وغيرهم من الكتاب البروتستانت الذين تعتبرهم الكنيسة خارجين عن الدين لتحريم قراءتها على الكاثوليك ولمنع تداولها وبيعها .

٢- جمعية اليسوعيين (الجزويت) : ظهرت هذه الجماعة في إطار حركة الإصلاح المضاد وكان هدفها إعادة تثبيت أركان الكنيسة الكاثوليكية المهزوزة ، أسس هذه الجمعية اجناتيوس لويولا (١٤٩١-١٥٥٦) ، وهو ضابط شاب اسباني درس الكتاب المقدس وتعمق في قراءة سير الرسل والقديسين ، وبعد ذلك حج الى بيت المقدس والتحق بجامعة باريس ودرس فيها . إبتدأ لويولا جمعيته بسبعة من رفاقه ارتحلوا الى روما في الوقت الذي بدأت فيه سياسة البابا تتجه نحو الإصلاح ، فوافق البابا على تأسيس هذه الجمعية عام ١٥٤٠ وصارت تعرف بالآباء اليسوعيين ، كانت أنظمة جمعية اليسوعيين صارمة شبه عسكرية ، فرئيس اليسوعيين ينتخب قائداً مدى الحياة ويتبع البابا مباشرة ويعلن يمين الطاعة له ، وهي طاعة عمياء لا نقاش فيها ، لذلك وافق البابا على نظام الجمعية واعفاها من الضرائب ومن الخضوع لأية سلطة عدا سلطته ، وسمح للجمعية أن يكون لها قضاؤها الخاص بها . أدت جمعية اليسوعيين دوراً فاعلاً في الحياة السياسية المسيحية الأوربية فقد أعادت نفوذ البابا الروحي ووقفت الى حد كبير بوجه تيار البروتستانتية المتدفق في العديد من مناطق أوربا ، واهتمت الجمعية بالتربية والتعليم بحيث لم يمض قرن ونصف على تأسيسها حتى أصبح لها مايزيد على سبعمائة مدرسة وتجاوز تأثيرهم الأمريكيتين والشرق الأقصى ، فخلقوا اجيالا جديدة من الكاثوليك المعاصرين الموالين لروما وكنيستها .

٣- محكمة التفتيش : يضع المؤرخون المعنيون بالتاريخ الأوربي محكمة التفتيش ضمن حركة الاصلاح الكاثوليكي ، رغم انها لاتمثل وجهاً اصلاحياً حقيقياً ، ويعود ذلك الى ان هذه المحاكم قد خدمت حركة الاصلاح الكاثوليكي ، لأن الهدف من انشائها كان لوقف انتشار البروتستانتية ولكن بالعنف والقوة على غرار محاكم التفتيش التي اقامتها الكنيسة في اسبانيا للقضاء على العرب المسلمين وحضارتهم . أصدر البابا بولس الثالث قراراً عام ١٥٤٢ بقيام المحكمة وعين فيها ستة من الكرادلة منحهم سلطة مطلقة في التحقيق في كل الامور المتعلقة بالدين والحكم بالاعدام ومصادرة الأملاك والمؤلفات وإحراقها ، فبدأت المحكمة بممارسة صلاحياتها ضد البروتستانت وكذلك ضد الكاثوليك الذين يدعون الى الاصلاح على اساس التسامح والتفاهم ، وتذكر المصادر أن المحكمة استخدمت التعذيب واحراق الأحياء من مفكري البروتستانت ، ومع هذا فانها كانت أخف وطأة من اساليب محاكم التفتيش الاسبانية ضد المسلمين . عملت حركة الاصلاح الكاثوليكي على تطبيق قرارات مجمع ترنت والتمسك بكافة الوسائل التي تعيد للكاثوليكية مكانتها ، ولقد نجحت الحركة في القضاء على البروتستانتية في ايطاليا واسبانيا ، وبقي البروتستانت يتمتعون بنفوذهم في بقية المناطق في شمال غرب أوربا .

حركة الكشوفات الأوربية والاستعمار الحديث

تعد الكشوفات الجغرافية جزءاً من الحركة التجارية التي سادت المدن في عصر النهضة ، وهما أثر من آثار حركة احياء التراث اليوناني والروماني ، فقد استفادت حركة الكشوفات من نتاج حركة احياء العلوم من خلال اعادة دراسة نظريات بطليموس الجغرافية وماتبعها من الآراء القائلة بكروية الأرض ، كما تعد الكشوف الجغرافية مظهراً من مظاهر روح المغامرة وإثبات الذات لدى الفرد الأوربي ، وهي في نفس الوقت تمثل شكلاً جديداً للاستعمار الحديث الاستيطاني في الشرق ، فقد حققت هذه الكشوف كشف الامريكيتين وكشف الطريق البحري من اوربا الى الهند حول راس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ ، في الوقت الذي كانت فيه التجارة بين الشرق الإسلامي وأوربا قد إنتعشت خلال أواخر العصور الوسطى نتيجة للحروب الصليبية ، ولما كانت المدن الإيطالية كالبندقية وجنوة ونابولي وفلورنسا تتمتع بموقع جغرافي وسط البحر المتوسط لذلك أصبحت تلك المدن مركزاً لتجهيز

الصليبيين بالسفن والمعدات ، وقد درّ ذلك عليها أرباحاً طائلة ، وتدريجياً أصبحت المدن الإيطالية مراكز تجارية رئيسية بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي بل إحتكر الإيطاليون التجارة مع الشرق لعدة قرون .

شملت البضائع الشرقية التي كان الايطاليون يجلبونها الى أوربا على التوابل التي استعملت في طبخ الأطعمة وفي حفظ اللحوم ، ومنتوجات آسيوية أخرى التي كان الأوربيون يستخرجون الأدوية من بعضها مثل الدارسين والقرنفل والكافور والنيلة والشب وغيرها ، وكذلك كانت أوربا تستورد من الشرق الأحجار الكريمة المختلفة مثل الماس والياقوت واللؤلؤ بالإضافة الى البضائع المصنعة كالزجاج والحرير والسجاد والأقمشة المزركشة والاواني المعدنية ، أما البضائع الاوربية التي تصدر الى الشرق فتتألف من القماش الصوفي والزرنيخ والانتيمون والزئبق والنحاس والرصاص ، وكان التجار المسلمون يجلبون البضائع الشرقية من شتى انحاء آسيا ثم يبيعونها الى التجار الايطاليون الذين ينقلونها بدورهم من مؤانيء بلاد الشام ومصر الى المدن الإيطالية عبر البحر المتوسط ثم تنقل تلك البضائع على ظهور الخيل الى كافة أنحاء أوربا ، وكان التجار يدفعون رسوماً باهضة على تلك البضائع للدول الاوربية التي يمرون بها فضلا عن تعرضهم لقطاع الطرق لذلك كانت البضاعة عندما تصل الى المستهلك الأوربي تكون باهضة الثمن ، يضاف الى ذلك ظهور الدولة العثمانية وسيطرتها على الشرق العربي الاسلامي مما ضاعف المخاطر بوجه التجارة الاوربية ، لذلك فكر حكام دول أوربا الغربية بالبحث عن طريق تجاري جديد يتمكنون من خلاله من الوصول مباشرة الى بلدان الشرق دون أن يضطروا الى استخدام التجار الإيطاليين كوسطاء ودون المرور بالشرق العربي الإسلامي .

فضل البحارة المسلمين على البعثات الكشفية الأوربية

عرف العرب ركوب البحار منذ الازمنة القديمة ، وبعد ظهور الاسلام ركبوه للجهاد والتجارة والبحث عن المعادن النفيسة ، وعندما اتسعت ارجاء الدولة الاسلامية ، ووصلت إلى أوربا غربا والى بلاد الصين شرقا كثرت رحلات المسلمين العلمية ووصل نشاطهم الملاحي الى ارجاء المحيط الهندي ، وأرخبيل الملايو والصين والبحر المتوسط والبحر الأحمر ، وساهموا في تطوير علم الجغرافيا وتصحيح الكثير من اراء اليونان القدامى حول

تصورهم عن البلاد المجهولة ، ووضع المسلمون خرائط بحرية اللاسترشاد بها منذ القرن العاشر الميلادي ، كما اخترعوا البوصلة والاسطرلاب هذا في الوقت التي كانت فيه معلومات الاوربيين الجغرافية ضئيلة وممزوجة بالخيال الى جانب ذلك كانت اوربا تؤمن بان الارض قرص كبير منبسط ويحيط به البحر ومركز هذا القرص بيت المقدس ، وتحرق الكنيسة كل من يخالف ذلك من علم ومعرفة ، كما كانت معلومات اهل اوربا الجغرافية ضئيلة جداً ولاتتجاوز معرفة السواحل الشمالية من قارة افريقيا وجزءا صغيرا من ساحلها الشمالي الغربي ، كما إن المحيط الأطلسي والبحار الجنوبية ماؤى للشياطين والجن والوحوش ، وليس باستطاعة الانسان ان يحاول استكشاف مافيه او مابعده ، فقد ساد الاعتقاد بوجود صخور في البحر تجذب اليها السفن اذا ما اقتربت منها ، وان في تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن واغراقها ، وما من شك ان هذه التصورات كانت خاطئة وهي عبارة عن خرافات اشتملت على عنصر التخويف الا انها في الوقت عينه كانت تحتوي على عنصر التشويق الذي شجع الأوربيين على القيام بمغامرات في تلك البحار من اجل الوصول الى المجهول .

دوافع الكشوفات الجغرافية

١- الدافع الاقتصادي : كان الدافع الاقتصادي ابرز الدوافع التي دفعت الأوربيين لاكتشاف البلاد المجهولة والطرق البحرية الجديدة بين اوربا وبقية انحاء العالم ، للسيطرة على الطرق التجارية وتسهيل نقل بضائعهم وتحقيق هدفين ، اولها التخلص من احتكار تجار مدينة البندقية بالوصول الى اسواق الشرق مباشرة دون اية وساطة ، والثاني يرمي الى مهاجمة القوى العربية والاسلامية ، ورأت الدول الأوربية إن البحث عن طريق بحري جديد هو السبيل الوحيد للوصول الى طرق جديدة لاتملكها مصر او الدولة العثمانية أوتحتكرها البندقية ليحصلوا على المنتجات الشرقية باقل الاثمان ، إذ كانت السلع الشرقية تصل الى أوربا بأسعار مرتفعة نتيجة للرسوم الكمركية التي التي كان يفرضها المماليك حكام مصر والشام على تلك البضائع اثناء مرورها من بلادهم .

٢- الدافع العسكري : حاولت بعض الدول الاوربية التي اسهمت الاختراعات الحديثة في تحديثها وزيادة قوتها العسكرية الاستيلاء على طرق التجارة الشرقية والسيطرة عليها لجلب

السلع الشرقية وتصريفها في اوربا ، والحصول بذلك على كسب مادي كبير ، كما حاولت بعض الدول الاخرى احتلال بعض البلدان بحجة تامين مصالحها والسيطرة على بقاع جديدة من الارض واقامة مستعمرات تابعة لها فيها.

٣- الدافع الديني : كان للعامل الديني اثره الفعال ايضا في نشاط المغامرات الكشفية فقد كان الاوربيون وخاصة الاسبان يعملون للوصول الى البلاد يستطيعون جعلها ميدانا لنشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، والتوغل فيها عن طريق الدين ، وفي الوقت نفسه كانت لهم اهداف انتقامية موجهة نحو المسلمين في شمال افريقيا عام ١٤١٥ للوصول الى اسواق الهند والشرق اولا ثم الوصول الى مملكة القديس يوحنا في شرق افريقيا والتحالف معهم ضد المسلمين . وقد باركت الكنيسة هذه الجهود حيث اصدر البابا نيقولا الخامس منشورا يدعوا فيه إلى تكوين تحالف صليبي لغزو الشعوب التي لا تدين بالمسيحية وتنصير سكانها ، كما منح البابا ملوك اسبانيا والبرتغال حق ملكية الاقاليم الجديدة التي يتم كشفها .

٤- نمو الروح القومية : ارتبط نمو الروح القومية وانشاء الدول المستقلة في أوربا بالرغبة في التوسيع وبسط النفوذ بالاستيلاء على بعض البلدان في افريقيا واسيا والعالم الجديد ، وقد نتج عن ذلك التنافس بين هذه الدول في الاستيلاء على المستعمرات مما أدى إلى اندلاع الحروب بين الدول الاوربية نفسها من اجل السيطرة على بقاع جديدة ، وكانت الدول السباقة في هذا المجال هي البرتغال واسبانيا ثم هولندا وانكلترا وفرنسا ، وتكفلت تلك الدول بالكشوفات الجغرافية وامدتها بالمال والمعدات والرجال لأن تلك الكشوفات تكلف مبالغ باهضة لايمكن للافراد تحملها ، كما توفرت الشجاعة وروح المغامرة وقوة التحمل لدى رواد الكشوفات ومرافقيهم .

٥- تقدم العلوم الجغرافية والفلكية : نتيجة لتقدم علم الجغرافية وعلم الفلك ، وتطوير البوصلة والتعمق في ادراك حركات الكواكب والنجوم واختلاف الاجواء تشجع الملاحون في اختيار البحار والمحيطات والتوسع في بناء السفن ، فقد صنعت سفن تتلائم مع المحيطات وتتحمل أمواجها القوية ، كما تمت زيادة عدد أشرعتها ، فأصبحت السفن أكثر سرعة واكثر قابلية على زيادة حمولاتها ، وتم تزويد السفن بالمدافع بعد ان تم تطوير هياكلها واشرعتها لتلائم إطلاق المدفعية .

الكشوفات البرتغالية

كانت دولة البرتغال اول دولة بحرية قامت بسلسلة من المغامرات التي انتهت بكشف مواقع هامة وبلاد جديدة ، وساعدها على هذا النجاح ان توافرت لها الادوات اللازمة من دعم وخبرة وسفن متينة متطورة فضلا عن الانتفاع باختراع البوصلة البحرية والتعمق في ادراك حركات الكواكب والنجوم والاعتقاد بكروية الارض وزيادة الاهتمام بعلم الجغرافية ، وترتبط حركة الكشف والتوسع البرتغالي بحياة الامير هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠) الإبن الثالث لملك البرتغال جون الأول ، فقد اهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية وبجمع الخرائط الجغرافية وبدراستها دراسة دقيقة ، ودرس حركات الأجرام السماوية وطرق البحرية وحركات الرياح التي تساعد على الملاحة وتطور بناء السفن ، وكان هنري اول من فكر في تأسيس مدرسة بحرية لتعلم الملاحة في لشبونة ، وكان الحافز لذلك هو اشتراكه في حملة بحرية أعدّها أبوه للاستيلاء على مدينة سبتة المغربية ، وعينه ابوه حاكماً عليها عام ١٤١٥ ، وحاول احتلال طنجة القريبة منها عام ١٥٣٦ لكنه فشل نتيجة المقاومة المغربية للغزو البرتغالي ، فتحولت جهوده نحو استكشاف السواحل الغربية لأفريقيا المطلة على المحيط الاطلسي ، فتم له اخضاع افريقيا الشمالية الغربية من نهر السنغال الى غانا ، واهتم بنشر المسيحية في أفريقيا ، ولتحقيق هدفه الثاني في جمع الاموال لتجارة الرقيق ، وحاول الاستعانة بحاكم الحبشة المسيحي في انجاح مغامراته الافريقية .

نجح هنري الملاح في ارتياد جانب كبير من المحيط الاطلسي وبدأت الكشوفات الجغرافية بالكشف عن بعض الجزر ، ورسموا له الخرائط وعينوا عليها المعالم الجغرافية الهامة ، واكتشف البرتغاليين جزر خليج الرأس الاخضر ورسمت الخرائط ايضا لساحل السنغال وغامبيا ، وهكذا استطاع هنري قبل وفاته عام ١٤٦٠ ارتياد نحو ثلث الساحل الافريقي الغربي ، واقاموا عليها نقاطا حصينة اتخذوها مراكز حربية وتجارية لهم ، وفي العام ١٤٦٢م ارسلت بعثة بحرية الى ساحل ليبيريا ، ثم وصل البرتغاليون الى ساحل العاج وساحل الذهب ونيجيريا وكاميرون ومصب نهر الكونغو واصبحوا يحتكرون الملاحة على الساحل الافريقي الغربي . وفي نهاية القرن الخامس عشر كادت الحرب أن تنشب بين اسبانيا والبرتغال بسبب المنافسة الاستعمارية والأراضي الجديدة المكتشفة ، فتدخل البابا

الأسكندر السادس الذي قرر ان تقتسم اسبانيا والبرتغال كل اراضي التي تم كشفها بالفعل ، والتي سوف تكتشف بعد ذلك وتقرر بأن تتجه البرتغال شرقا في كشوفاتها وتتجه اسبانيا نحو الغرب .

أرسلت البرتغال بعثة تزعمها بارثلمو دياز الذي نجح في ارتياد الساحل الافريقي الغربي نحو الجنوب بالأبحار بموازاة الساحل الغربي للقارة ، ووصل عام ١٤٨٨ الى أقصى جنوب القارة الأفريقية وسماه رأس الزوابع ، ولما رجع دياز الى البرتغال وعلم الملك بوصوله الى جنوب القارة أطلق عليه أسم رأس الرجاء الصالح ، وبعد فترة من الركود إستأنف البرتغاليون كشوفاتهم فارسلوا فاسكو دي غاما في تموز عام ١٤٩٧ لتكملة ارتياد الطريق الجنوبي الافريقي راس الرجاء الصالح ومواصلة الرحلة الى الهند ، وكان عدد برفقته ١٥٠ بحاراً مستقلين أربعة مراكب ، وفي آذار ١٤٩٨ وصل دي غاما موزنبيق ثم واصل طريقه الى الهند ووصلها في آيار ١٤٩٨ ، واقام دي غاما ثلاثة أشهر في كاليكوت الهندية ، ثم عاد الى لشبونة ووصلها في ايلول عام ١٤٩٩م وسفنه مشحونة بالتوابل والمنتجات الشرقية مايعادل تكاليف الحملة بستين مرة ، وبذلك تحقق للبرتغال كشف طريق بحري مباشر الى الهند بالدوران حول أفريقيا ، وفي سنة ١٥٠٠ بينما كان بيدرو كابرال يقود اسطولا برتغالياً الى الهند بموازاة الساحل الأفريقي ورأس الرجاء الصالح ، جرفته العواصف والتيارات البحرية نحو السواحل الشرقية لأمريكا الجنوبية ، وسمى القسم الذي إكتشفه بالبرازيل ، واصبح تابعاً للبرتغال .

كونت البرتغال إمبراطورية تجارية واسعة في اجزاء من افريقيا واسيا ، ثم بدأت مطلع عام ١٥٢٥ تتوغل في البرازيل مستعمرة ارضها وسكانها كما نشر البرتغاليون المسيحية هناك الا ان إمبراطورية البرتغال الشرقية لم تكن متماسكة الاجزاء وخاضعة لحاكم واحد وانما كانت لا تتعدى ان تكون شريطا ساحليا ممتدا في افريقيا واسيا وجزائر متناثرة في البحار الشرقية . وفي عام ١٥٨٠ توفي ملك البرتغال دون وريث فأصبح ملك اسبانيا فيليب الثاني ملكاً على البرتغال واتحد التاج الاسباني بالتاج البرتغالي ، واخيرا سارت امبراطورية البرتغال في الشرق الى الانحلال عندما فقدت البرتغال نفسها استقلالها

ووقعت تحت حكم اسبانيا ، واستمرت الدولتان تحت تاج واحد حتى استقلت البرتغال ثانية عام ١٦٤٠ .

الكشوفات الاسبانية

شاركت اسبانيا في ميدان الكشف الجغرافي متاثرة بنفس المؤثرات التي دفعت البرتغال الى هذا الميدان ، وهي الرغبة في الاتصال بدول الشرق بطريق بحري مباشر والاستيلاء على التجارة الشرقية والوصول الى الهند والصين ، والتحرر من سيطرة البندقية الاحتكارية ، اتجه الاسبان في الكشف الجغرافي الى الغرب بموجب تعليمات البابا ، ونجح الملاح الإيطالي الأصل كرستوفر كولومبوس (١٤٤٦-١٥٠٦) في اقناع ملوك اسبانيا فردناند وإيزابيلا بخطته للوصول الى الهند عن طريق الغرب ، وكان كولومبوس يعتقد بكروية الأرض وإن من يتجه غرباً يرجع من الشرق ، وإن آسيا تقع غرب أوربا ، أبحر كولومبوس في الثالث من آب عام ١٤٩٢ مع ثلاث سفن و ٨٧ بحاراً ، ووصل كولومبوس الى مجموعة جزر اطلق عليها جزر الهند الغربية معتقداً انه وصل الى الهند من جهة الغرب ، ونزل في كوبا وهاييتي وتجول في جزر الكاريبي وأعلن ضمها الى اسبانيا ، وعاد في آذار ١٤٩٣ حاملا معه الاخشاب والذهب وعدد من الهنود الحمر ، وقد استقبلته الجماهير استقبال الابطال وأنعمت عليه الملكة ايزابيلا لقب أدميرال .

قام كولومبوس بعد ذلك بثلاث رحلات أخرى ، لكنه لم يحقق ما كان يأمله الاسبان من توابل الشرق ولم تحصل اسبانيا على الذهب الكثير، وقد وشي به بعض الخصوم عند البلاط الإسباني فاتهم بتبذير أموال اسبانيا برحلات لاطائل منها وأعيد كولومبس الى اسبانيا مكبلا بالأغلال ، ولما عاد أصدرت الملكة أمراً بالعفو عنه ، غير أن الحادث ظل عالقاً في ذهنه واحتفظ بالأغلال التي كبلوه بها ، وعندما توفي كولومبوس عام ١٥٠٦ اوصى أن تدفن الأغلال الحديدية معه في القبر ، مات كولومبوس معتقداً أنه وصل الى الهند من جهة الغرب وسمى السكان الأصليين بالهنود الحمر ، وتبين فيما بعد أن ما إكتشفه كولومبوس عبر المحيط الأطلسي ليس آسيا ، وإنما قارة جديدة هي قارة أمريكا الشمالية او كما أطلق عليها حينئذ العالم الجديد ، ففي عام ١٥٠٣ إكتشف احد المغامرين الإيطاليين وإسمه أمريكو فيسوبوتشي (١٤٥٤-١٥١٢) هذه الحقيقة بعدما زار المناطق التي اكتشفها كولومبوس بين

الاعوام (١٤٩٩-١٥٠٢) وعند عودته أعلن ان ما تم اكتشافه هو عالم جديد وليس الهند ، وسميت أمريكا نسبة لهذا المغامر . اما الرحلة الاخرى فقام بها الملاح البرتغالي فرناندو ماجلان (١٤٨٠-١٥٢١) عام ١٥١٩ ، الذي كان في خدمة ملك اسبانيا ، وإنطلق من أشبيليه ومعه خمس سفن لإكتشاف الطريق الغربي من أمريكا الى آسيا ، وعبر ماجلان المحيط الأطلسي ودار حول امريكا الجنوبية ودخل عام ١٥٢٠ في المحيط الذي سماه المحيط الهادي وواصل سيره حتى وصل جزر سميت فيما بعد الفلبين تيمنا بالملك الاسباني فيليب الثاني ، وهناك قتل ماجلان لإشتراكه في قتال بين السكان المحليين ، وواصلت سفنه الطريق عبر المحيط الهادي ودارت حول أفريقيا ووصلت الى اشبيلية عام ١٥٢٢ ، لقد كانت رحلة ماجلان أول محاولة ناجحة للدوران حول الأرض ، وبذلك اكتشف الاسبان طريقاً غربياً جديداً بين أوربا وآسيا .

اتصفت أعمال الغزاة الاسبان بالنهب والسلب والقسوة والعنف مما الحق ضررا بليغا بالاقتصاد القومي لتلك المناطق التي اكتشفوها ، واتجه الاسبان الى الاستحواذ على كنوز العالم الجديد في امريكا من ذهب وفضة وعندما استقرت الاحوال اتجه الاسبان الى تنظيم البلاد وعملوا على ادخال حضاراتهم في البلاد الامريكية التي استولوا عليها ، فنشأت مدن كبرى بحوار مناطق مناجم الذهب ، واتخذ السكان الأصليين اللغة الاسبانية لغة لهم كما اعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، ولما تطلب التوسع زيادة في الايدي العاملة اخذ الاسبان يجلبون الزنوج من افريقيا لإستخدامهم في العمل وصل عددهم الى حوالي ١٠٠ ألف شخص عام ١٥٦٠ .

الكشوف الانكليزية

أثار النجاح الذي احرزته كل من البرتغال واسبانيا رغبة الدول الاوربية الأخرى في النزول الى هذه الحلبة ، فأدلى الانكليز بدلوهم في هذا المجال ، وان كان الدور الذي قاموا به في كشف مناطق جديدة يعد ضئيلاً بالنسبة لما حققه الإسبان والبرتغاليين ، إذ كان هنري السابع منصرفاً الى توطيد دعائم اسرته في العرش الانكليزي وإقرار النظام في انكلترا في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يطوفون حول شاطيء أفريقيا وكولومبوس يعبر المحيط الأطلسي . وبعد ذلك بادر الملك هنري السابع بإرسال الملاح الإيطالي جون كابوت عام

١٤٩٧ لاكتشاف طريق يمر بشمال امريكا الى الهند فأبحر جون كابوت وولدة سيباستيان فإكتشفا سواحل نيوفاوندلاند في شرقي كندا ، وفي عام ١٤٩٨ قام سيباستيان برحلة أخرى لم تحقق أي نتائج في اكتشاف طريقاً جديداً الى الهند ، وارسلت انكلترا بعثه اخرى في العام ١٥٢٦م لاكتشاف طريق اقصر من طريق ماجلان ، لكن الرحلة لم تحقق اهدافها أيضاً .

توجه الانكليز برحلاتهم الإستكشافية الى أمريكا الشمالية ووصلوا الى مضيق كمبرلند وخليج هدسن ، وقامت بعد ذلك عدة رحلات استكشافية فتم اكتشاف عدة جزر على الشاطئ الغربي لخليج هدسن الذي سمي بذلك الاسم نسبة الى مكتشفه هنري هدسن ، وكانت نتائج سفرات الرواد الانكليز ان تأسست شركة خليج هدسن لتجارة الفراء والاسماك ، وإستغلت انكلترا موقعها الجغرافي للقيام بعمليات قرصنة بحرية ، وكانت انكلترا تعترض السفن الإسبانية القادمة من العالم الجديد في طريقها الى اسبانيا والمحملة بالذهب ، الامر الذي نتج عنه نشوب صراع بينها وبين إسبانيا أدى الى هجوم الإسطول الإسباني المسمى بالإرمادا ، وتعني باللغة الإسبانية الإسطول الذي لايقهر ، على السواحل الانكليزية فحدثت معركة بحرية بينه وبين الإسطول الإنكليزي عام ١٥٨٨ تحطم فيها الإرمادا وانهارت معه قدرات اسبانيا البحرية .

بدأت انكلترا في مطلع القرن السابع عشر بخطوات جدية لإنشاء مستعمرات تابعة لها ، فتأسست عام ١٦٠١ شركة الهند الشرقية الانكليزية وبدأت بالمتاجرة مع الهند وتوطيد النفوذ البريطاني هناك ، كما تأسست في عام ١٦٠٦ شركتان ملاحيتان هما شركة لندن وشركة بلايموث للإستيلاء على الشاطيء الأمريكي وانشاء مستعمرات انكليزية فيه ، وتميزت المستعمرات الانكليزية بإستقرار المهاجرين واستثمار الأرض بالزراعة عكس الإسبان الذين كان همهم الحصول على الذهب والمعادن النفيسة فتوسعت مستعمراتهم دون أن يحكموا سيطرتهم عليها . وفي عام ١٦٢٠ وصلت اول سفينة انكليزية تحمل البيورتان وهم طائفة من الانكليز الذين هجروا انكلترا بسبب الاضطهاد الديني ، فنزلوا سواحل امريكا الشمالية وكونوا مستعمرة بلايموث ومن هذا المكان بدا المهاجرون الانكليز يوسعون نفوذهم ويستعمرون السواحل المجاورة فأسسوا ثلاثة عشر مستعمرة انكليزية على الساحل الشرقي

لأمريكا الشمالية وكانت هذه المستعمرات الإنكليزية نواة لدولة الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد .

الكشوفات الفرنسية

جائت فرنسا بعد انكلترا في مجال الكشوفات الجغرافية ، وفي النصف الأول من القرن السادس عشر أرسلت فرنسا رحلة كشفية فرنسية وصلت الى امريكا الشمالية ووصلت الى شبه جزيرة فلوريدا ، واكتشف الرحال الفرنسي كارتييه في العام ١٥٣٤ نهر سانت لورنس وسار فيه حتى وصل مونتريال ، وهو اول من وضع اساس مستعمرة فرنسية في تلك المناطق ، ثم وصل الفرنسيون عام ١٦٠٣ الى كندا واكتشفوا معظم البحيرات وبسطوا نفوذهم هناك واسسوا مدينة كيوبك عام ١٦٠٨ ، واستمر الفرنسيون في اكتشافاتهم فاكتشفوا نهر المسيسيبي عام ١٦٧٣ ، كما أسس الرحالة الفرنسي دي لاسال عام ١٦٨٢ مستعمرة فرنسية في امريكا الشمالية بإسم لويزيانا تيمناً بملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وأسس الفرنسيين أيضاً مدينة نيواورليانز عام ١٧١٦ .

وفي افريقيا كان هدف الفرنسيين من إرسال حملاتهم الاستكشافية هو القضاء على احتكار البرتغاليين لإفريقيا الغربية ، فوصلوا عام ١٦٣٧ الى نهر السنغال ثم وسعوا مستعمراتهم بعد ذلك في افريقيا الغربية ، اما في الهند فحاول الفرنسيون ايجاد موطي قدم وخاصة بعد انتهاء الدور البرتغالي فأسسوا مراكز تجارية على شواطيء الهند ، واتخذت هذه المراكز نقاطاً للإندفاع الى الداخل والتوغل في الهند ، ومن هذه المراكز كاريكال ، يانون ، ماهي وشاندرجور .

نتائج الكشوفات الجغرافية

١- أدت حركة الكشوفات الجغرافية الى حدوث ثورة تجارية كبيرة ، وتدفق الذهب والفضة والمعادن النفيسة الى اوربا ، وتحولت نتيجة لذلك مراكز التجارة من دويلات المدن الإيطالية الى الدول القومية في غرب أوربا ، ومن البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلسي فإزداد عدد أفراد الطبقة الوسطى من التجار ورجال الصناعة وأرتفع مستوى معيشتهم وإزداد معه نشاط المصارف والمؤسسات المالية .

٢- أفرزت الكشوفات ظاهرة الاستعمار وسيطرة الاوربيين على شعوب المناطق المكتشفة ، واتصفت سياستهم بالقسوة والتعسف والعنف من خلال إبادة السكان الأصليين لأمريكا .

٤- حدث انقلاب في المباديء الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا وذلك بثبوت كروية الأرض ، فرسمت خرائط أكثر دقة ، وتم اظافة معلومات جديدة في مجال الملاحة وعدد القارات والبحار والمحيطات وعلم الفلك.

٥- اما من الناحية الدينية نجحت الكشوفات الجغرافية والبعثات التبشيرية المرافقة لها في نشر المسيحية في أمريكا الجنوبية والشمالية وشرق آسيا فضلاً عن أفريقيا واستراليا .

الفصل الثاني

أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الصراعات الدينية وظهور الملكيات المطلقة

انكلترا في عهد آل تيودور (١٤٨٥-١٦٠٣)

هنري السابع (١٤٨٥-١٥٠٩)

تمكن هنري تيودور زعيم عائلة لانكستر من قتل ريتشارد الثالث زعيم عائلة يورك عام ١٤٨٥ خلال حرب الوردتين ، وبإنتهاء تلك حرب إنتهت آخر الحروب الإقطاعية بين النبلاء الانكليز ، وأعتلى هنري تيودور العرش بإسم هنري السابع وتزوج من اليزابيث يورك ليضع حداً للعداء بين العائلتين ، وقاد هنري بلاده في فترة من أصعب الفترات في تاريخها ، وكان عهده بداية لتقدم اقتصادي بقيادة الطبقة الوسطى حيث بدأت النهضة في انكلترا ، وأتجه هنري الى الاستكشافات الجغرافية واحياء العلوم والتجارة وجمع الثروة ، من جانب آخر تأثر هنري السابع بما ساد اوربا من اتجاه في أنظمة الحكم نحو الاستبداد والحكم المطلق ، إلا إنه لم يجاهر بذلك علناً لما لانكلترا من تاريخ عريق في الحياة البرلمانية منذ وثيقة العهد الأعظم عام ١٢١٥ التي حدت من نفوذ ملوك انكلترا .

حاول هنري تجنب الإعتماد على البرلمان الانكليزي في جمع الاموال لكي لايضطر الى تقديم تنازلات تفقده صلاحياته ، لذلك اعتمد على القروض الخارجية والتمويل من خارج البرلمان مستفيداً من دعم الطبقة الوسطى التي كانت تواقة الى وجود حكم ملكي قوي يحقق الامن والأستقرار وينهي الحروب الإقطاعية ، ولهذا تميز عهد أسرة تيودور بضعف البرلمان الانكليزي ، واسفرت حرب الوردتين أيضا عن انهيار الأسر الإقطاعية الكبرى وضعف نفوذها ومقتل الكثير من أفرادها ، وللحد من نفوذ النبلاء أسس هنري السابع محكمة خاصة لمحاكمتهم سميت بمحكمة قاعة النجوم عام ١٤٨٧ ، وأصدر قانوناً آخر يقضي بمحاكمة معارضي الملك بتهمة الخيانة ، وقانون ثالث يحرم على النبلاء جمع الأتباع والأنصار بغرض زيادة نفوذهم ، مما أفسح المجال أمامه ليؤسس ملكية قوية وحكم البلاد حكماً مركزياً .

إتبع هنري السابع سياسة خارجية سلمية وتجنب الدخول في الحروب الخارجية الملكفة ، وأبرم عدد من المعاهدات التجارية مع الحكام الأوربيين لمنفعة التجارة الانكليزية ، كم شجع هنري التجارة الخارجية ، وأبرم السابع ايضا تحالفاً مع اسبانيا ، ويمكننا القول أن عهده شهد رخاءً اقتصاديا كبيراً . كما سعى هنري السابع لى تقوية مركز عائلته بزواج ابنه الكبير آرثر من كاثرين آراغون بنت فرديناند وايزابيلا ملوك اسبانيا ، إلا أن آرثر توفي بعد بضعة أشهر من هذا الزواج فما كان من هنري السابع إلا أن استحصل موافقة البابا على تزويج ابنه هنري الثامن بأرملة أخيه الراحل ، كما زوج ابنته مارغريت تيودور من جيمس الرابع ملك اسكتلندا .

هنري الثامن (١٥٠٩-١٥٤٧)

تولى هنري الثامن الحكم بعد وفاة والده ، وورث من أبيه مملكة موحدة وسياسة اقتصادية متزنة وثروة عظيمة ، وكان يساعد هنري الثامن في الحكم في هذا الوقت مستشاره الكاردينال توماس وولزي (١٤٧٥-١٥٣١) ، الذي شغل مناصب دينية ودنيوية في الكنيسة والدولة قبل أن يصبح كاردينالاً ثم مستشاراً لهنري الثامن وموجهاً لسياسة دولته الداخلية والخارجية ، واستطاع وولزي أن يقوي سلطة الملك فأضعف النبلاء واستخدم محكمة قاعة النجوم لمحاكمتهم ، ورشا البرلمان وكسب تأييدهم ، كما استخدم العداء بين فرانسوا الاول ملك فرنسا وشارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة لمصلحة انكلترا ، وسعى الى عدم تورط بلاده في حروب القارة الاوربية ، لإيمانه بإمكانية تحقيق العظمة لانكلترا بالسلم وليس بالحرب من خلال حفظ التوازن الدولي في القارة ، ولهذا يعتبر وولزي مؤسس سياسة التوازن الدولي .

وأهم مايميز حكم هنري الثامن تبنيه لحركة الإصلاح الديني التي لقيت شعبية كبيرة من قبل الانكليز مما جعل البرلمان الانكليزي أداة طيعة بيد الملك ينفذ رغباته ومشاريعه دون اعتراض . ولم يكن هنري الثامن مؤمناً بالبروتستانتية بل إنه كان يعارض حركة مارتن لوثر ، ولهذا منحه البابا لقب المدافع عن العقيدة ، ويمكننا القول ان هناك دوافعاً أخرى دفعت هنري الثامن الى اعتناق البروتستانتية وهي :

١- إنتشار اللوثرية في انكلترا منذ عام ١٥٢١ بين طلاب الجامعات الانكليزية والطبقة المثقفة في لندن وغيرها من المراكز الثقافية في البلاد .

٢- دوافع شخصية كان الغرض منها رغبته بطلاق زوجته كاترين آراغون التي كانت تكبره سناً ، وكان هذا الطلاق يتعارض مع المذهب الكاثوليكي ، والتي لم تنجب له ولداً رغم أنها انجبت منه العديد من الأطفال لم يعش منهم سوى الاميرة ماري والتي كانت مريضة ، في الوقت نفسه كان هنري متعلقاً بإحدى وصيفات زوجته وأسمها آن بولين ، وعندما أراد الطلاق من كاترين والزواج بوصيفتها رفض البابا في روما رفضاً قاطعاً الاستجابة لطلبه .

٣- كانت هنالك رغبة شعبية بزوال سلطة روما الأجنبية عن انكلترا ، كما ان التخلص من سيادة الكنيسة البابوية يؤدي الى تدعيم سلطة هنري وسيادته على جميع رعاياه ، فيصبح الولاء له دون غيره .

٤-الاستفادة من الأموال التي كانت ترسل الى كنيسة روما .

وبعد انفصال الكنيسة الانكليزية عن روما عام ١٥٣١ ، استطاع هنري الثامن طلاق زوجته كاترين والزواج من آن بولين عام ١٥٣٣ ، التي انجبت منه اليزابيث ، ولم يهتم بقرار الحرمان الذي اصدره البابا بحقه ، وفي عام ١٥٣٤ أصدر البرلمان الانكليزي قانون السيادة العليا الذي نص على أن الملك هو الرئيس الاعلى للكنيسة الانكليزية ومعاقبة كل من يتعرض لحقه هذا ، وعين الملك توماس كرانمر رئيساً لأساقفة كانتربري والذي عدّ زواج هنري بكاثرين ملغياً وأقر زواجه من آن بولين ، كما صدر قانون حل الأديرة الصغيرة واستولى على جميع ممتلكاتها ، وقمع حركة المعارضة التي قام بها بعض رجال الدين نتيجة الانفصال عن روما ، فقضى عليهم هنري الثامن وأعدم الكثير منهم .

أنشأ هنري الثامن إسطولاً قوياً وخاض عدة حروب ضد فرنسا ، ونجح في دمج ويلز بانكلترا وحاول ضم اسكتلندة الى التاج الانكليزي إلا إنه فشل في مسعاه ، وإستصدر هنري من البرلمان قانوناً أصبح بموجبه إبنه إدوارد من زوجته الثالثة جين سيمور ولياً للعهد وإذا لم يكن له وريث على العرش تخلفه اخته ماري ابنة هنري الثامن من زوجته الأولى كاترين آراغون ، وإذا لم يكن لها وريث يخلفها من بعدها فترثها على العرش أختها اليزابيث ابنته من زوجته الثانية آن بولين .

أما بالنسبة لمشاكل هنري العائلية فلم تنته بزواجه من آن بولين ، فقد ملّها سريعاً كما مل الاميرة الاسبانية قبلها ، ولما فشلت بمنحه المولود الذكر اتهمها بالخيانة وتم إعدامها عام ١٥٣٦ بعد ثلاث أعوام من زواجه منها ، ثم تزوج هنري الثامن من إحدى وصيفات الملكة وهي جين سيمور التي توفيت هي الأخرى اثناء ولادتها ابنه إدوارد عام ١٥٣٧ ، فتزوج بعدها من آن كليفز إلا أن زواجه لم يستمر فلم تنل الملكة الجديدة اعجابه وسعى لفك زواجه بها دون أن يلمسها ، وفي تموز عام ١٥٤٠ تزوج هنري الثامن هذه المرة من الشابة كاترين هاوارد ابنة عم آن بولين لكنه سرعان ما إكتشف بانها على علاقة غرامية مع أحد مستشاريه فأعدمها في شباط ١٥٤٢ ، وكان زواج الملك الأخير من الأرملة الثرية كاثرين بار عام ١٥٤٣ وبقيت زوجة له حتى وفاته .

ادوارد السادس (١٥٤٧-١٥٥٣)

تسلم إدوارد السادس عرش أبيه وعمره عشر سنوات ، فأصبح خاله ادوارد سيمور وصياً عليه بالاضافة الى مجلس وصاية من البروتستانت ، تقدمت حركة الاصلاح الديني في عهد ادوارد السادس خطوات كبيرة بتأثير من خاله ومجلس الوصاية المكون من البروتستانت ، فتمت مصادرة مابقي من املاك الكنيسة الكاثوليكية ، وادخل المذهب البروتستانتي الى البلاد ، كما تغيرت طقوس العقيدة الكاثوليكية بإلغاء طقوسها وتحطيم الصور والتماثيل الدينية وإباحة زواج القساوسة وإلغاء كل القوانين التي ادت الى اضطهاد البروتستانت ، وصدر كتاب الصلوات باللغة الانكليزية ، ونتيجة لهذه التغييرات قامت اضطرابات عنيفة داخل انكلترا بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية ، كما قامت ثورات أخرى بسبب البطالة والتذمر من ارتفاع الأسعار ، ويعود ذلك الى قيام أصحاب الحقول بتسييجها ، وتحويلها الى مراعي للأغنام للإستفادة من صوفها بدلاً من زراعة الأرض ، وبذلك تحولت مساحات كبيرة من الأراضي الى حقول مسورة لتربية الأغنام ، مما تسبب بانتشار البطالة بين الفلاحين ، ونتيجة لكل تلك الأسباب غضب الرأي العام على الملك ادوارد وإتهموه بجمع ثروة طائلة من اموال الكنيسة ، حاول الوصي تخفيف العبيء على الفلاحين مما أدى الى أن يتهمه كبار الملاكين بالمسؤولية عن الاضطراب الاقتصادي في البلاد وبالتالي صدر حكم الإعدام بحقه ونفذ عام ١٥٥٢ ، وعينوا وصي غيره يلائم

مصالحهم ، وأخمدت انتفاضات الفلاحين بقسوة ، ولم يمض على إعدام الوصي سنة واحدة حتى ألم بالملك مرض لم يشف منه فتوفي عام ١٥٥٣ وله من العمر ١٦ عاماً وهو لايزال تحت الوصاية .

ماري تيودور (١٥٥٣-١٥٥٨)

ورثت ماري أخيها ادوارد في العرش الانكليزي لأن أخيها لم يتزوج أصلاً لصغر سنه ، وكانت ماري كاثوليكية متدينة لكونها نشات في ظل والدتها كاترين آراغون الإسبانية الأصل ، وقد دفع تعصب ماري للكاثوليكية الى محاولة إعادتها الى انكلترا ، مما قلب الاوضاع رأساً على عقب ، وساعدها على ذلك الكاردنال بول الذي أرسله البابا الى انكلترا ، وكان اول قراراتها إستبدال الأساقفة البروتستانت بكاثوليك وإعادة العلاقات مع روما ، والى جانب ذلك قامت بإضطهاد المخالفين للكاثوليكية ، فأحرقت أكثر من مئة من الأساقفة البروتستانت أحياء ومنهم توماس كرانمر الذي بارك زواج والدها من آن بولين ، وأمرت ماري بإالغاء كتاب الصلوات المعمول به ، كما تزوجت من فيليب الثاني ملك اسبانيا الكاثوليكي ، وألغت القوانين المعادية للبابوية منذ عهد والدها هنري الثامن ، مما زاد في غضب الشعب الانكليزي عليها خصوصاً وإنه كان يرغب باستقلال بلاده عن كل من اسبانيا والبابوية ، وخشي الانكليز من تحويل بلادهم الى تابع لاسبانيا ، وبالتالي التورط في حروب مع فرنسا لاناقة لهم فيها ولا جمل ، ونتيجة لذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج ضدها ، ولكنها قاومت معارضيها بشدة لم يسبق لها مثيل من التنكيل والارهاب لدرجة أن أطلق عليها البعض اسم ماري الدموية ، كما اعتبر البعض الآخر عهدها بمثابة ردة في الامور الدينية . ومن حسن حظ الانكليز ان ماري كانت عاقراً ولم تنجب من زوجها ملك اسبانيا ، وباتالي سيؤول العرش من بعدها الى اختها اليزابيث .

اليزابيث الاولى (١٥٥٨-١٦٠٣)

اليزابيث هي ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين ، تولت العرش بعد وفاة أختها ماري التي لم تنجب وريثاً لعرشها ، ويعد عصر اليزابيث من أزهى العصور في تاريخ انكلترا الحديث ، حيث استطاعت بذكائها ودهائها إعادة روح الإنسجام بين الشعب الانكليزي ، الذي طحنته الإضطرابات الدينية خصوصاً بين الكاثوليك والبروتستانت ، إذ إنها لم تكن

متعصبة لأي طرف من الاطراف . نشرت اليزابيث طبعة منقحة لكتاب الصلوات الذي كان قد أعد منذ أيام ادوارد السادس ، فإعتنق عدد كبير من الانكليز البروتستانتية وتضائل عدد الكاثوليك ، وسن البرلمان قانوناً فصل بموجبه الكنيسة الانكليزية عن كنيسة روما مرة أخرى ، ومع ذلك حاولت اليزابيث اتباع سياسة وسط غايتها تدعيم الكنيسة الانكليزية ، فأصبحت صاحبة السلطة العليا الدينية والدنيوية وقد ألزم هذا الإجراء رجال الدين أداء قسم الولاء للعرش وعدم الخضوع لأية سلطة اجنبية ، وبذلك ضعفت صلاحيات الكاثوليك الي تمتعوا بها أيام ماري .

أصدرت اليزابيث قانون المذهب الموحد الذي أقر تعديلات دينية ترضي البروتستانت والكاثوليك المعتدلين مما جعل نظام الكنيسة الانكليزية (الإنجليكانية) كاثوليكي المظهر بروتستانتي العقيدة لحل المشكلة الطائفية بشكل جذري ، وعاقبت اليزابيث معارضي قانون المذهب الموحد سواءً كانوا كاثوليك او بروتستانت ، وحين تآمر الكاثوليك مع ملك اسبانيا فيليب الثاني والبابا على حياة الملكة اليزابيث توجهت الاخيرة الى البروتستانت وبدات بإسنادهم في أوربا ، فدعمتهم اليزابيث في الأراضي المنخفضة ضد اسبانيا وفرنسا ، في حين حاول فيليب الثاني إثارة ايرلندا على انكلترا ، ومن الجدير بالذكر أن فيليب حاول التقرب من اليزابيث والزواج منها لكنها رفضت ذلك ، وتوترت العلاقات بينهما عندما ساعدت الثوار البروتستانت في الأراضي المنخفضة ضد اسبانيا وشجعت القرصنة في البحار ومهاجمة السفن التجارية الإسبانية بينما أخذ فيليب الثاني يضع الخطط لخلعها وقتلها ، ووجد فيليب بماري ستيوارت الكاثوليكية ملكة اسكتلندا أداة مناسبة لتنفيذ مآربه لكونها أيضاً من آل تيودور .

كانت ماري ستيوارت مرشحاً للعرش الانكليزي بعد وفاة اليزابيث التي لم تتزوج ، وحاول هنري الثامن ضمان زواج إبنه ادوارد من ماري ستيوارت لكي يتم توحيد الجزيرة البريطانية ، لكن توتر العلاقات بين الطرفين ووفاة هنري الثامن ومن بعده ادوارد حال دون ذلك . كان آل غيز في فرنسا أخوال ماري ستيوارت ، ولذلك دعموا مطاليبها في العرش الانكليزي فضلاً عن تأييد فيليب الثاني ملك اسبانيا لإدعاءات ماري ، وفي تلك الأثناء تزوجت ماري ستيوارت من فرانسوا الثاني ملك فرنسا الذي سيطر عليه مستشاروه من آل

غيز وعملوا من أجل تنصيب ماري ملكة على انكلترا ، ونتيجة لذلك تعرضت انكلترا لغزو فرنسي-اسكتلندي ، لكن نشوب ثورة بروتستانتية في اسكتلندة ١٥٥٩ افشل مخطط الفرنسيين ، وطلب الثوار المساعدة من اليزابيث ملكة انكلترا ، فأرسلت الأخيرة جيشاً انكليزياً عام ١٥٦٠ انتصر على الجيش الفرنسي ، وفي معاهدة أدنبرة تم الإتفاق على انسحاب القوات الفرنسية من اسكتلندة مقابل رجوع الانكليز الى بلادهم ، وعنئذ ألغى البرلمان الاسكتلندي الكاثوليكية وأصبحت البروتستانتية الكنيسة الرسمية .

عادت ماري الى اسكتلنده عام ١٥٦١ بعد وفاة زوجها ملك فرنسا فرانسوا الثاني ، ووجدت ماري ان الشعب الاسكتلندي بروتستانتي وميال الى انكلترا ، فعملت من جديد بالتعاون مع فرنسا واسبانيا من اجل إعادة الكاثوليكية الى اسكتلندة ثم الوصول الى العرش الانكليزي ، وتزوجت من احد النبلاء الانكليز الكاثوليك الذي كان من أقارب أسرة تيودور لكي تدعم مطالبتها بالعرش الانكليزي ، ومرة أخرى ساعد الحظ الملكة اليزابيث فقد حدثت ثورة في الأراضي المنخفضة في ذلك الوقت ، وأضطر فيليب الثاني الى ارسال قوة كبيرة الى هناك لإخماد الثورة التي كانت تدعمها الملكة اليزابيث ، وأنشغل فيليب بذلك لمدة طويلة ، كما ان الحرب الطائفية بدأت في فرنسا واستمرت حتى عام ١٥٨٩ حيث انتهت بوصول هنري بوربون الى الحكم ، اما في اسكتلندة فقد إندلعت ثورة بروتستانتية ضد ماري ستيوارت وألقى الثوار القبض عليها فتنازلت عن حكم اسكتلندة الى ابنها جيمس ، وإستطاعت ماري بعد مدة الهروب الى انكلترا عام ١٥٦٨ ، ولم ترغب اليزابيث تسليم ماري الى أعدائها البروتستانتيين ولا أن تساعدها ضد أعدائها ، بل وضعتها في قلعة كانت سجناً لها لبقية حياتها .

إستمرت اسبانيا بإثارة المؤامرات ضد الملكة اليزابيث ، فكشف احد وزراء الملكة اليزابيث مؤامرة لقتل الملكة فتم القبض على المتآمرين وأعدامهم ، حينها قرر البرلمان الانكليزي إعدام ماري ستيوارت ، ووافقت الملكة اليزابيث على ذلك وتم إعدامها عام ١٥٨٧ ، وكانت تلك المؤامرة الأخيرة آخر سلاح بيد فيليب الثاني لإخضاع انكلترا ، فلما فشل في ذلك أعلن الحرب عليها .

حرب الأرمادا ١٥٨٨

كانت السفن الانكليزية تعترض السفن الاسبانية القادمة من امريكا والمحملة بالذهب والفضة ، وذلك في محاولة من الانكليز للقضاء على احتكار الاسبان والبرتغاليين للتجارة والمستعمرات ، وكان إسم الأسطول الاسباني الأرمادا ومعناها بالاسبانية الأسطول الذي لايقهر ومن أسم الأسطول تمت تسمية المعركة البحرية الشهيرة بين الأسطولين الانكليزي والاسباني . قرر فيليب الثاني إخضاع انكلترا عن طريق غزو الجزر البريطانية وأعد إسطولاً ضخماً لم يشهد العالم المسيحي مثله سابقاً لكي ينتقم من الانكليز ، فكان الأسطول الاسباني مؤلفاً من ١٣٠ سفينة ضخمة و ٨٠٠٠ بحار و١٩٠٠٠ جندي ، وأعتقد فيليب أن الأنكليز انقسموا على أنفسهم بين كاثوليك وبروتستانت ، لكنه أخطأ فقد تغلب عليهم العامل القومي واتحدوا لمواجهة الاسبان ، وبالرغم من قلة عدد سفن الاسطول الانكليزي وصغر حجمها فقد كانت سهلة الانقياد سريعة الحركة مما أربك الاسطول الاسباني وسفنه الضخمة ، كما ان الانكليز تفوقوا على الاسبان في الملاحة ، فقد تمرنوا على كيفية الانقضاض على السفن الاسبانية ، وتفوقوا على الاسبان في هذا المجال ، وانتهت المعركة بإندحار الاسطول الاسباني وتحطم معظم سفنه ، وبتدمير الأنكليز للارمادا زال احتكار الاسبان للتجارة والمستعمرات ، وكان أول خطوة لسيادة انكلترا على البحار .

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد شارل الخامس (١٥١٩-١٥٥٨)

توفي الامبراطور مكسمليان الأول عام ١٥١٩ ، وحاول كل من ملك فرنسا فرانسوا الأول (١٥١٥-١٥٤٧) وملك انكلترا هنري الثامن ترشيح نفسهما لعرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لكن الأمراء الألمان إنتخبوا أخيراً شارل الأول ملك اسبانيا إمبراطوراً عام ١٥١٩ والذي حمل اسم شارل الخامس بعد جلوسه على عرش الامبراطورية . ورث شارل الخامس امبراطورية واسعة وممتلكات كثيرة في أوربا وأفريقيا وامريكا ، ولم تكن لدى شارل وسيلة تجعل هذه الامبراطورية وحدة متماسكة ، فكانت الوحدة الألمانية ضرب من المستحيل في وجه استقلال الأمراء ومحاولتهم التحرر من قيود الامبراطور ، كما أن الثورة اللوثرية والحروب الدموية التي نجمت عنها ، وانتشار الفوضى والبربرية عقدت الأمور أكثر بكثير ، ونتيجة لذلك تأخرت الوحدة الالمانية الى القرن التاسع عشر ، ولم يكن

للامبراطور حكومة مركزية كفوءة قادرة على ادارة الامبراطورية الواسعة ، كما لم يكن لديه جيش دائمي أو خزينة خاصة ، فكان شارل دائم الانتقال بين عواصم ممتلكاته .

كان شارل فارساً شجاعاً لكنه في بداية عهده إفتقر الى الخبرة والكفاية اللازمة لإدارة إمبراطوريته ، ومع ذلك فإن سنوات الحكم الطويلة المليئة بالمشاكل دربته وتكاملت خبراته وتجاربه فأصبح ادارياً حازماً واثقاً من نفسه . كان شارل متديناً مخلصاً للكنيسة الكاثوليكية ، ووجد أن من واجبه الدفاع عن الكثلكة ضد الهرطقة المتمثلة بالبروتستانتية ، وكان عليه أيضاً محاربة فرانسوا الأول ملك فرنسا ، وصد الاتراك العثمانيين في زحفهم غرباً ، وأراد تأسيس سلطة مركزية قوية لكن المشاكل الكثيرة التي أشغلته كل حياته حالت دون تحقيق أي هدف .

مشاكل شارل الخامس وحروبه الداخلية والخارجية

إهتم شارل الخامس بامبراطوريته التي تمثل عائلته من آل هبسبرغ وممتلكاته الوراثية فيها أكثر من اهتمامه بالمانيا التي اعتبرها جزءاً من امبراطوريته الواسعة ، وكانت هذه الامبراطورية الواسعة المؤلفة من اسبانيا ومستعمراتها عبر البحار ، والأراضي المنخفضة وايطاليا والمانيا بما فيها النمسا ، ارتبطت ببعضها البعض عن طريق الزواج والمصاهرة ، وأصبحت ملكاً لعائلة واحدة هي عائلة هبسبرك النمساوية ، فهذه العائلة كانت الرابطة الوحيدة التي تربط أجزاء الامبراطورية بعضها ببعض وبشخص الامبراطور رئيس هذه العائلة الذي ورث امبراطوريته عن طريق آباءه وأجداده . ولم تكن لهذه الامبراطورية حكومة مركزية تفرض سلطانها على جميع أجزاء الامبراطورية ولا ادارة عامة موحدة تشرف عليها وتدير جميع اجزائها ، فكان لكل بلد أو قطر عاداته وقوانينه ومؤسساته ونظام حكمه دون أن يكون أي شبه بين بلد وآخر .

أما الألمان فقد كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة تشملهم جميعاً بالإضافة الى الجيك في بوهيميا ، وكان الألمان يتطلعون الى قيام وحدتهم القومية أسوة بفرنسا وانكلترا ، نظراً لشعورهم بأنهم من عنصر واحد ، ويتكلمون لغة مشتركة ولهم عادات وتقاليد مشتركة ، ولو ان شارل الخامس وجّه جهوده للامبراطورية الالمانية لاستطاع أن يوحد المانيا مضافاً اليها هولندا والنمسا ، فكانت الامبراطورية ستصبح عندئذ أقوى دولة في القارة

الأوربية ، لكن شارل لم يكن مستعداً للتضحية بممتلكاته في اسبانيا وأمريكا والتخلي عن كل هذه الثروات المتدفقة منها الى خزينته لأجل وحدة المانيا التي موردها كان أقل من الاراضي المنخفضة ، أحد ممتلكاته المتواضعة ، مضافاً اليها الأتعاب والجهود والنفقات الكثيرة التي تكلفها هذه الوحدة . وقد وضع الامراء الالمان اللوم على الامبراطور واتهموه بقلة وطنيته واهماله شؤون المانيا ، والواقع أن الامبراطور نفسه كان يتكلم اللغة الفرنسية بدلاً من الالمانية ، ولم يكن أحد مستشاريه الرئيسيين الماني المولد ، كما أنه لم يسعى الى تقييد سلطات الامراء الالمان واستمروا يتمتعون بالاستقلال الذاتي في ولاياتهم الأمر الذي انعكس سلباً على قيام الوحدة الالمانية .

ثورة الفرسان ١٥٢٢

كان نظام الفروسية في العصور الوسطى مرتبطاً بالاقطاع ، وكان الفرسان في المانيا من بقايا نظام الفروسية المرتبط بالامبراطور مباشرة ، وقد قلّ موردهم بسبب ارتفاع الاسعار ، وقيّدت حرياتهم بسبب ازدياد سلطات الامراء ، وتطبيق القانون الروماني بدلا من القواعد الاقطاعية ، وبحلول القرن السادس عشر أصبح الفرسان وطنيين قوميين يكرهون الامراء أصحاب القلاع الذين لاعمل لهم سوى الحروب ونشر الفوضى ، وكذلك يحتقرون التجار في المدن ، وقد تثقف قسم منهم ثقافة عالية ، وكانوا يفتخرون بقوميتهم الالمانية ، ووقف الفرسان الى جانب إنتخاب شارل الخامس إمبراطوراً ، وكانوا يتوقعون منه أن يوحد المانيا وان يعتمد عليهم في خلافاته مع الامراء وأغنياء المدن ، تمهيداً لتوحيد المانيا على ايديهم .

وبعد إندلاع ثورة مارتن لوثر وظهور البروتستانتية في المانيا إعتنق الفرسان اللوثرية بدافع قومي أملاً بان إنفصال لوثر عن البابوية سيؤدي حتماً الى إنفصال المانيا عن ايطاليا وتأسيس كنيسة المانية خاصة بها مما يؤدي الى وحدة المانيا ، ولما صدر قرار الحرمان بحق مارتن لوثر من مجلس وورمز عام ١٥٢١ بتأثير من الامبراطور ، وقف الفرسان الى جانب مارتن لوثر ، فثاروا سنة ١٥٢٢ ورفضوا سلطة المحكمة العليا التي أسسها مجلس وورمز ، وهاجم الفرسان اسقفية ترير الكاثوليكية وأملاك الكنيسة ، غير ان الامراء الالمان وقفوا الى جانب الامبراطور والكنيسة في روما وقمعوا ثورة الفرسان عام

١٥٢٣ ، وبذلك انتهت ثورة الفرسان وانهارت معها آمالهم في توحيد المانيا وتكوين حكومة مركزية فيها .

ثورة الفلاحين ١٥٢٤

كان مصير ثورة الفلاحين في المانيا شبيهاً بمصير ثورة الفرسان التي سبقتها ، والتي قمعها الامراء الالمان ايضاً ، كانت اوضاع الفلاحين قد تحسنت في القرن الخامس عشر بسبب النقص السكاني وقلة الايدي العاملة ، فنالوا بعض الحريات وازداد وعيهم وانتقدوا النظام الاقطاعي ، وخلال مطلع القرن السادس عشر مرت اوربا والمانيا خصوصا بازمة اقتصادية وتصاعدت الاسعار ، فأراد الامراء اعادة الرسوم الاقطاعية على الفلاحين ، غير أن الفلاحين أرادوا الحصول على حريات أكثر ، وكانت مطاليبهم معتدلة إذ اشتكوا من مصادرة غاباتهم ، وإجبارهم على القيام بخدمات للنبلاء ، وكانت تعاليم مارتن لوثر تشجعهم على القيام بالثورة ، بتأكيده على الأخوة بين البشر وتشجيعه على مصادرة املاك الكنيسة الكاثوليكية .

بدأت الثورة عام ١٥٢٤ في غابة السوداء وانتشرت في جنوبي غربي المانيا باتجاه النمسا وسكسونيا ، ورحب بها مارتن لوثر أول الامر لأنها كانت ضد الكنيسة ورجال الدين الكاثوليك ، وما ان انتشرت الثورة ضد النبلاء في وسط وجنوبي المانيا وجد لوثر أن الخطر يهدد اللوثرية ، وأعلن أنه لايؤيد استخدام العنف كوسيلة لتحقيق غايات معينة ، فوقف ضد الثورة وحرّض الامراء الالمان على اخمادها ، وتمكن أمير سكسونيا وهس من التغلب على الفلاحين والقضاء على ثورتهم بطريقة قاسية في مايس ١٥٢٥ فأخمدت بعد ذلك الثورة بسرعة ، وترتب على ذلك أن إزدادت سلطة الامراء على حساب الامبراطور ، وساءت حالة الفلاحين أكثر من السابق .

حروب شارل الخامس الخارجية

أصبحت مشاكل شارل الخامس معقدة اكثر بسبب حروبه الخارجية ، فقد ورث شارل من أسلافه نزاعاً مستمراً مع ملوك فرنسا ، يضاف اليه طموح فرانسوا الاول ملك فرنسا بالحصول على تاج الامبراطورية الأمر الذي أجبر شارل ان يحاربه طوال حياته .

الحرب مع ملك فرنسا فرانسوا الاول

كان فرانسوا الأول رجلاً مغروراً وعديم المسؤولية ، معجباً بنفسه وبمقدرته العسكرية ، وقد إعتلى العرش عام ١٥١٥ ووجد بلاده محاطه بأملاك آل هبسبرك ، فحاول أن يتخلص من التطويق بتأليب الدول الصغرى على الامبراطورية ، وقد فشل في الحصول على تاج الامبراطورية كما اسلفنا ، فأخذ يبحث عن الوسائل التي يتمكن بواسطتها تبرير موقفه في اعلان الحرب على شارل ، أما الاسباب التي تذرع بها فهي النزاع على دوقية ميلانو وعرش نابولي في ايطاليا التي تبادل الطرفين السيطرة عليهما خلال الحروب الايطالية (١٤٩٤-١٥٥٩) ، كما ادعى فرانسوا ان مملكة نافار مقاطعة فرنسية أخذ فردناند وايزابيلا القسم الأكبر منها بالقوة ولذلك يجب إعادتها الى فرنسا ، وأراد فرانسوا ايضاً السيطرة على الاراضي المنخفضة التابعة لآل هبسبرك وكان شارل الخامس عقبة في طريقه .

بدأت العمليات الحربية عام ١٥٢١ بمناوشات بين القوات الفرنسية والقوات الامبراطورية المرابطة على الحدود بين المانيا وفرنسا ، وقد إمتدت المناوشات الى شمال ايطاليا ، واستطاع الجيش الامبراطوري استعادة دوقية ميلان وطرد الفرنسيين منها ، وحصل البابا على بارما مقابل مساعدته للامبراطور ، عندئذ عبر الجيش الامبراطوري جبال الألب في اوائل عام ١٥٢٤ ، وحاصر فرانسوا الأول في مرسيليا في صيف تلك السنة ، لكن فرانسوا الاول انتصر عليهم وألحق بهم هزيمة منكرة دون ان يواصل سيره ورائهم ، فبعث بقسم من جيشه الى نابولي وسار هو على رأس الباقي الى سهل بافيا بالقرب من ميلان لمحاصرة الجيش الامبراطوري .

استطاع الجيش الامبراطوري المتقهقر الى ميلان أن يعيد تنظيم صفوفه وأعاد الكرة على فرانسوا ، وتم دحر الجيش الفرنسي في شباط ١٥٢٥ ولحقت به خسائر فادحة ، ووقع فرانسوا أسيراً وأقتيد الى مدريد حيث كان شارل ينتظره ، وبقي فرانسوا في الأسر قرابة سنة . لقد حطم شارل بإنتصاره التوازن الدولي في اوربا ، وبعد مفاوضات أُبرمت معاهدة مدريد بين الطرفين في كانون الثاني ١٥٢٦ ، تنازل فيها فرانسوا عن الأراضي المنخفضة وايطاليا وبرغنديا وحلف بالكتاب المقدس عدة مرات أن يبر بوعده ويتزوج الينورا الأخت

الأكبر للإمبراطور ، وكانت زوجة فرانسوا قد توفيت عام ١٥٢٤ ، وبعد عودة فرانسوا الى بلاده نقض العهد مباشرة ، مدعياً ان القسم كان تحت الضغط ، وألغى المعاهدة وبدأ يحرض الامارات الايطالية ضد شارل ولاسيما فلورنسا وفينيسيا والبابا كلمنت السابع فضلاً عن هنري الثامن ملك انكلترا ، وشكل فرانسوا عصبة كونياك في ٢٣ ايار ١٥٢٦ ، وقد إتضح ان الحرب بين فرانسوا والامبراطور ستتجدد .

ونتيجة لذلك عبر الجيش الامبراطوري متوجهاً الى ايطاليا ، وكانت رواتب الجنود قد تأخرت والمؤن التي كانت معهم لم تكفهم ، فتوجه الجيش نحو روما ماراً بفلورنسا معتقداً أن في روما ثروة العالم كله ، فهاجموا المدينة في مايس ١٥٢٧ ، وبدأ السلب والنهب ، وأختفى البابا كلمنت في قلعة انجيلو ، وأضطر أن يعقد الصلح مع شارل ، بموجبه إسترجع البابا بعض أراضيه . لقد أثار نهب روما سخط العالم الكاثوليكي ، ورغم ذلك السخط ضد شارل الخامس إلا أن فرانسوا الأول لم يستطع تثبيت أقدامه في ايطاليا ، فعقد صلح كمبري مع شارل عام ١٥٢٩ ، وبموجبه تجددت بنود معاهدة مدريد بتنازل فرانسوا عن الاراضي المنخفضة وايطاليا .

تجددت الحرب بين شارل وفرانسوا بين الاعوام ١٥٣٦-١٥٣٨ بتحالف فرنسا مع امراء البروتستانت في المانيا واسكتلندا والسويد والدانمارك والدولة العثمانية ، كما تجددت الحرب بين الاعوام ١٥٤٢-١٥٤٤ واستمرت بعد موت فرانسوا عام ١٥٤٧ ، وانتهت في صلح كاتو كامبريس عام ١٥٥٩ ، بين هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٧-١٥٥٩) وفيليب الثاني ملك اسبانيا (١٥٥٦-١٥٩٨) ابن شارل الخامس ، وبموجب هذه المعاهدة أصبحت ايطاليا تحت سيطرة أسرة الهبسبرك في اسبانيا ، بينما حصلت فرنسا على ثلاث مدن حصينة من مدن الامبراطورية الرومانية المقدسة وهي متز وتول وفيردون ، وبذلك توسعت اراضي فرنسا على حساب المانيا ، كما أدى النزاع بين عائلة هبسبرك وفرنسا الى فسح المجال للدولة العثمانية بالتوغل في شرق أوربا خلال التحالف العثماني-الفرنسي ، وحصلت فرنسا من خلال هذا التحالف على امتيازات واسعة في الدولة العثمانية .

الحرب بين شارل الخامس والدولة العثمانية

إعتلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) ، أو سليمان العظيم كما يسميه الغرب ، عرش الدولة العثمانية في نفس العام الذي توج فيه شارل الخامس ، وكان هذا السلطان من أهم سلاطين آل عثمان قاطبةً ، فقد وسّع رقعة دولته بإستيلاءه على بلاد القفقاس وجنوب روسيا ، فأصبحت منطقة البحر الأسود بحيرة عثمانية ، كما انه استولى على بلاد وادي الرافدين ووصل الى الخليج العربي ، وان أميراله البحري خير الدين باربروسا استطاع أن يسيطر على البحر الأبيض المتوسط ، ويطارد البندقيين والجنويين في كل مكان ، وهكذا صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة عثمانية تقريباً .

توجه السلطان غرباً وأعلن الحرب على المجر بدعوى أن ملكها لم يهنئه عند تبوئه العرش العثماني ، وإنتصر على الجيش المجري في معركة موهاكس الحاسمة عام ١٥٢٦ ، وإستولى على عاصمتها بودابست كما تقدم نحو النمسا وحاصر فينا عام ١٥٢٩ ، فرجع الامبراطور شارل الخامس ليدافع عن عاصمة ملكه ، ولم يدم الحصار أكثر من ثلاثة أسابيع لكن السلطان استولى على ثلثي أراضي المجر ، وبعد نزاع طويل بين سليمان وشارل عقد الصلح بينهما عام ١٥٤٧ ، بموجبه أخذ السلطان معظم أراضي المجر بما فيها العاصمة بودابست ، ووافق ملك المجر أن يدفع غرامة سنوية قدرها ٣٠,٠٠٠ ليرة الى السلطان سليمان . وهكذا ظل شارل مهدداً من قبل الدولة العثمانية طوال حياته ، وقد تجددت الحرب بينهما عام ١٥٥١ ، وإستمرت بعد وفاة شارل .

تنازل شارل الخامس عن العرش عام ١٥٥٦ بعد أن أنهكته الحروب والنزاعات ، وقسّم أملاكه بين إبنه فيليب وأخيه فردناند ، وكانت اسبانيا والاراضي المنخفضة وأمريكا وايطاليا من نصيب فيليب ، بينما ورث فردناند ممتلكاته الوراثية في المانيا ، وقد قضى شارل الخامس السنتين الأخيرتين من حياته في أحد الاديرة في اسبانيا .

اسبانيا في عهد فيليب الثاني (١٥٥٦-١٥٩٨) وثورة الأراضي المنخفضة

ولد فيليب الثاني ابن شارل الخامس عام ١٥٢٧ في مدينة بلد الوليد الاسبانية ، لكنه لم يرث جميع أملاك أبيه ، لأن عمه فردناند انتخب امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وورث ممتلكات آل هبسبرك النمساوية . أحب الاسبان فيليب الثاني لأنه ولد بينهم

وتكلم بلغتهم ودافع عن الكثلكة ، فكانت اسبانيا في عصرها الذهبي خلال حكمه ، لكن التدهور في سياسته بدأ في اواخر حكمه بسبب سياسته التعسفية . تزوج فيليب زواجه الأول من ماريا البرتغالية عام ١٥٤٣ ، التي ماتت أثناء ولادتها ابنهما دون كارل ، وفي عام ١٥٥٤ تزوج مرة أخرى من ماري تيودور ملكة انكلترا التي لم تنجب منه ، وبعد وفاتها تزوج عام ١٥٥٩ من زوجته الثالثة اليزابيث فالوا ابنة ملك فرنسا هنري الثاني ، وكانت اليزابيث الزوجة المثالية بالنسبة اليه وحزن كثيراً لموتها عام ١٥٦٨ ، وانجبت اليزابيث له أربعة بنات ، أما زوجته الرابعة فكانت آن النمساوية ابنة الامبراطور مكسمليان الثاني (١٥٦٤-١٥٧٦) والتي تزوجها عام ١٥٧٠ وأنجبت له اربعة أولاد وبنت .

كان فيليب الثاني رجلاً مستبداً في الحكم ، مجداً في عمله ويشرف على جميع قضايا الدولة بنفسه ، وكان كاثوليكياً مخلصاً لعقيدته ، وقد بلغ به اخلاصه درجة التعصب فأسس محاكم التفتيش لمحاكمة خصومه من البروتستانت والمسلمين ، وواجه فيليب تحديات كبيرة خلال مدة حكمه منها هو كيفية إدارة امبراطورية تجارية واستعمارية واسعة مثل اسبانيا ، كما كان عليه أن يقضي على الثورات والاضطرابات التي اندلعت في الاراضي المنخفضة ، ويقف في وجه البروتستانتية في انكلترا والمانيا وفرنسا فضلاً عن مواجهة العثمانيين الذين سيطروا على البحر المتوسط . أما داخلياً فقد سعى فيليب الى تقوية الملكية المطلقة وتدخل في إدارة شؤون الدولة بنفسه ، ولم يعارض وجود الكورتيز (البرلمان) الذي كان يجتمع بين الحين والآخر ، وقد إعتمد فيليب على الطبقة الوسطى وعينهم في الوظائف بدلاً من النبلاء في الوقت الذي قرّب النبلاء اليه دون أن يكلفهم بإموراً هامة .

ومن الناحية الدينية كان فيليب يرى ان اختلاف المذاهب والمعتقدات في دولة ما يؤدي حتماً الى التفرقة والهدم ، ولما كان فيليب يرغب في وحدة الصف وجمع الكلمة لتوحيد اسبانيا فأكد على الكنيسة الكاثوليكية كعقيدة رسمية للدولة لأسباب سياسية ودينية ، وشجع فيليب البابا على الاستمرار في اصلاح الكنيسة الكاثوليكية ولاسيما خلال اجتماع مجمع ترنت في ايطاليا ، وفي الوقت نفسه حاول القضاء على البروتستانت في فرنسا وارجاع انكلترا الى حضيرة الكنيسة الكاثوليكية عندما كان متزوجاً من الملكة ماري . كما سعى الى تنفيذ سياسته الرامية الى توحيد شبه جزيرة ايبيريا ، فطالب فيليب الثاني عام

١٥٨٠ بعرش البرتغال بإعتبار أن والدته كانت ابنة ملك البرتغال ، وبعد وفاة ملك البرتغال من أسرة أفيز سيباستيان الاول (١٥٥٧-١٥٦٨) دبت الفوضى في البلاد نتيجة لصراع الاسر الاقطاعية من أجل الاستيلاء على العرش البرتغالي ، واستغل فيليب الفرصة فاكتسح الجيش الاسباني البرتغال التي انضمت الى اسبانيا عام ١٥٨٠ ، لكن هذه الوحدة لم تنل رضا الشعب البرتغالي الذي ظل تحت سيطرة اسبانيا مدة ٦٠ عاماً ، وفي عام ١٦٤٠ انفصلت البرتغال مرة أخرى وأصبحت مستقلة تحت حكم الملك جوا الرابع (١٦٤٠-١٦٥٦) .

ثورة الأراضي المنخفضة

وقعت الاراضي المنخفضة تحت سيطرة امراء برغنديا في القرن الخامس عشر ، وبمقتل أميرها شارل الجسور عام ١٤٧٧ انتقلت ملكيتها الى ابنته ماري التي تزوجت من الامبراطور مكسمليان الأول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولما توفيت ماري عام ١٤٨١ ورثها ابنها فيليب هابسبرغ ابن مكسمليان الذي كان متزوجاً من جوانا ابنة فردناند وايزابيلا ملوك اسبانيا ، ولما توفي فيليب عام ١٥٠٦ أصبح ابنه شارل أميراً على الاراضي المنخفضة ، ثم توج شارل ايضا ملكاً على اسبانيا عام ١٥١٦ بعد وفاة ملك اسبانيا فردناند جده من أمه ، وامبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥١٩ بإسم شارل الخامس بعد وفاة جده من أبيه مكسمليان .

حاول شارل الخامس أن يوحد مقاطعات الاراضي المنخفضة في ظل حكومة مركزية ، لكنه واجه معارضة شديدة لأن سكان هذه المقاطعات تعودوا على الاستقلال الذاتي ولم يكن من السهل أن يرضخوا لإدارة مركزية ، وتذمر سكان المدن والنبلاء في الاراضي المنخفضة نتيجة لفرض شارل الخامس عليهم ضرائب فادحة لتغطية نفقات حروبه المستمرة ضد فرنسا والامراء الألمان ، بينما كانوا يريدون السلم والاستقرار لممارسة تجارتهم إذ عرقلت الحروب مصالحهم الاقتصادية ، ومع أن بوادر الثورة أخذت تتبلور في أواخر حياة شارل الخامس لكنه استطاع أن يحتفظ بولاء سكان الاراضي المنخفضة بسبب الادارة الحكيمة لتلك المقاطعات خلال مدة حكمه .

انتشرت البروتستانتية في الاراضي المنخفضة في الوقت الذي كان فيه شارل الخامس يسعى لتوطيد الكاثوليكية في المانيا وشكل محاكم التفتيش لهذا الغرض ، وحاول شارل مكافحة البروتستانتية في الاراضي المنخفضة فكان ذلك شديداً بالنسبة لشعب تعود على الحرية والاستقلال السياسي والاقتصادي ، وقام شارل بإجراءات تعسفية أخرى ضد البروتستانت أدت الى تصاعد الاستياء في أواخر عهده ، ولما جاء ابنه فيليب الثاني الى الحكم أراد أن يتشدد في سياسة والده فأثار بذلك معارضة عامة من جميع الطبقات . وكان النبلاء أول من عبروا عن استياءهم عندما وجدوا أن فيليب يريد تنحيتهم من المناصب الحكومية ، وسلبهم حقوقهم في المجالس المحلية .

كان يحكم الاراضي المنخفضة نيابة عن فيليب الثاني اخته الأميرة مارغريت دوقة بارما ، ولذلك لم يكن فيليب يعلم بكل مايجري هناك من مشاكل ، فهو لم يرى الاراضي المنخفضة إلا مرة واحدة عام ١٥٥٩ ، والقضايا البسيطة التي يمكن معالجتها لو كان فيليب في مركز الأحداث ، تطورت الى مشاكل معقدة أدت الى ثورة قومية واسعة ، وبدأت الثورة عندما قدم النبلاء في الاراضي المنخفضة عام ١٥٦٦ عريضة الى مارغريت بينوا فيها ولائهم ولكن حذروها من ثورة الشعب إن لم تلغ محاكم التفتيش ولم يقم الملك برفع المظالم بحقهم ، ولما لم يجدوا إستجابة حقيقية من الاميرة أرسل النبلاء وفداً آخر الى مدريد لعرض شكاويهم على الملك فيليب الثاني ، فوعد الملك في باديء الأمر بتنفيذ مطاليبهم وإلغاء محاكم التفتيش ، لكن سرعان ماتراجع عن وعده ، وقرر تنفيذ سياسته الدينية ، عندئذ هجمت الجماهير الغاضبة من البروتستانت المتطرفين في الاراضي المنخفضة على الكنائس الكاثوليكية وهدموها ودمروا التماثيل والصور ودنسوا الأديرة ودمروا كاتدرائية انتويرب في صيف عام ١٥٦٦ .

ردّ فيليب الثاني على ذلك بأن أرسل جيشاً جراراً لإخضاع الأراضي المنخفضة بقيادة أشهر قواده دوق ألفا ، ووصل ألفا الى هناك في آب ١٥٦٧ وبدأ بتنفيذ أوامر الملك بنشاط وكفاءة ، فقد أسس مجلس الثورة للنظر في القضايا الخاصة بالخيانة ، لكن المجلس تحول الى محكمة عرفية نعتها الناس بإسم محكمة الدماء ، بقي ألفا في الاراضي المنخفضة حاكماً عاماً لمدة ست سنوات أعدم فيها ثمانية آلاف شخص ، ومن بنيهم عدد من النبلاء

الكبار ، وجرد ثلاثين ألف شخص من ممتلكاتهم ومالايقل عن مئة ألف شخص تركوا البلاد ، وفرض ألفا ضرائب كبيرة على من تبقى من السكان ، ونتيجة لفقدان الأمن والنظام وفرض الضرائب تدهورت إقتصاديات البلاد وإتحد سكان الشمال والجنوب من البروتستانت والكاثوليك وأعلنوا الثورة ضد اسبانيا .

إختار النبلاء في الأراضي المنخفضة الأمير وليم أورانج أمير هولندا قائداً لثورتهم ، وإستطاع وليم أن يؤسس قوة بحرية من المتطوعين والقرصان عام ١٥٦٩ ، سميت بمتسولي البحار لمهاجمة السفن الاسبانية ، وأصبحت تلك القوة البحرية نواة البحرية الهولندية وكابوساً يقلق مضاجع ألفا والحكومة الإسبانية ، كم أسس وليم جيشاً قوياً لمواجهة جيش ألفا ، ولما فشل الأخير في إعادة الأمور الى نصابها إستبدله فيليب بدبلوماسي أقل كفاءة اسمه ريكويزنز عام ١٥٧٣ الذي توفي بمرض التيفوئيد ، وعين فيليب أخاه دون جوان حاكماً على الأراضي المنخفضة ، وقد وجد دون جوان أن التفاهم مع البروتستانت قد فات أوانه ومات سنة ١٥٧٨ قبل أن يجد حلاً للمسألة .

وأخيراً عين فيليب اسكندر فورنيزا أمير بارما حاكما على الاراضي المنخفضة ، وإستطاع فورنيزا أن يحكم الأراضي المنخفضة مدة ١٤ عاماً (١٥٧٨-١٥٩٢) ، وطبّق هذا السياسة الميكافيلية ، فبذر بذور الشقاق بين المقاطعات الشمالية التي سكانها يتكلمون الألمانية وأغلبهم تجار وبروتستانت ، والمقاطعات الجنوبية التي سكانها يتكلمون الفرنسية وهم صنّاع كاثوليك . فقال فورنيزا للسكان الجنوبيين ، أن ليس هناك مايكدر العلاقات بينهم وبين اسبانيا لقرابة الدين واللغة ، وحذرهم من البروتستانت في الشمال ، وإستطع إقناع ممثلي العشر مقاطعات الجنوبية (بلجيكا) بإبرام إتفاقية مصالحة مع فيليب الثاني عام ١٥٧٩ ، وفي نفس السنة إجتمع ممثلو المقاطعات الشمالية وعقدوا اتفاقية اوتراخت على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم دفاعاً عن حريتهم المسلوبة وحقوقهم المغتصبة ، ونتيجة لذلك إنقسمت الاراضي المنخفضة الى قسمين متخاصمين ، وقد ظل القسم الجنوبي تحت حكم آل هبسبرك الاسبان ، ثم آل هبسبرك النمساويين بعد معاهدة اوتراخت ١٧١٣ ، بينما إستقل القسم الشمالي وأصبح حراً وعرف بإسم بهولندا ، وكانت هولندا أكثر ثروة ورخاء من

بلجيكا لمدة طويلة ، وذلك لأن الحروب والنزاعات دمرت بلجيكا فإنتقلت المراكز التجارية والصناعية الى مدينة امستردام في هولندا .

جمع وليم أورانج عام ١٥٨١ ممثلي المقاطعات الشمالية في لاهاي ، وهناك قرروا إنفصالهم عن التاج الاسباني وأعلنوا أن ليس للملك أية سلطة عليهم ، وتعتبر وثيقة لاهاي بمثابة إعلان إستقلال هولندا ، ومع ان وليم اورانج اغتيل من قبل عميل اسباني عام ١٥٨٤ ، فإن الهولنديين إستمروا في كفاحهم بقيادة موريس ابن وليم اورانج ضد فيليب الثاني الذي رفض أن يمنحهم الاستقلال ، حينئذ ساعدت انكلترا الهولنديين في حربهم ضد الاسبان وتوترت العلاقات الانكليزية-الاسبانية بسبب ذلك ، واستمرت الحرب بصورة متقطعة الى عام ١٦٠٩ ، عندما اضطر فيليب الثالث (١٥٩٨-١٦٢١) أن يعقد هدنة مع الهولنديين لمدة ١٢ عام ، لكن الاعتراف بهولندا كدولة مستقلة تأجل الى عام ١٦٤٨ .

فرنسا .. الصراعات الدينية ووصول آل بوربون الى الحكم (١٥٦٢-١٥٩٣)

انتشرت البروتستانتية في فرنسا بفضل جون كالفن الفرنسي ورسالته المشهورة الى الملك فرانسوا الاول ، وأنضم الى البروتسانتية عدد من الأشراف ومن الطبقة المتوسطة أيضا ، وأخذ عدد الكنائس الكالفنية البروتستانتية واتباعها يتضاعف وأدى ذلك الى خشية ملوك فرنسا الكاثوليك من عواقب الإنقسام الديني في فرنسا ، خاصة بعد الصراعات التي خلفتها اللوثرية في المانيا . بدأت منذ عام ١٥٣٥ عملية بطش وتنكيل بالبروتستانت الفرنسيين (الهيجونوت) أجبرت كالفن نفسه على الفرار من فرنسا الى بازل في سويسرا ، وعندما خلف هنري الثاني (١٥٤٧-١٥٥٩) والده فرانسوا الاول في حكم فرنسا تابع عملية الإضطهاد ولم يتردد في قتل المفكرين البروتستانت وإحراقهم . توفي هنري الثاني فجأة فولدت وفاته فراغاً خطيراً في العرش لانه لم يترك سوى أربعة أولاد لم يتجاوز أكبرهم الخامسة عشر من العمر ، وقد تولى ثلاثة منهم الحكم بالتتابع وهم فرانسوا الثاني (١٥٥٩-١٥٦٠) وشارل التاسع (١٥٦٠-١٥٧٤) ثم جاء بعده هنري الثالث (١٥٧٣-١٥٨٩) .

إتجه الصراع الديني في فرنسا الى صراع بين الأسر الكبيرة على السلطة فقد تزعمت أسرة غيز مساندة الكاثوليك بينما كان الهيجونوت يلقون التأييد من بعض أفراد أسرة آل بوربون ، ويبدوا أن ضعف السلطة الملكية في فرنسا دفع هذه الأسر الكبيرة الى استغلال

ظروف الحرب الطائفية للإستيلاء على السلطة في البلاد . وكانت السلطة الحقيقة في فرنسا بيد الملكة الأم كاترين دي مديتشي الإيطالية الأصل التي كانت الوصية على اولادها ، وحاولت الملكة الموازنة بين أسرة غيز وأسرة البوربون لتستأثر هي بالسلطة ولتبعد العرش عن تلك الصراعات ، وبالرغم من محاولات كاترين السيطرة على الاضطرابات الطائفية في فرنسا لكن ذلك لم يمنع أو يوقف المذابح ضد البروتستانت ، فقد قاد فرانسوا دي غيز زعيم اقوى عائلة كاثوليكية في فرنسا حملة لإحراق الكثير من البروتستانت وطرد بعض نبلائهم من الوظائف والقاء الآلاف منهم في السجون ، خشيت كاترين من إزدياد نفوذ اسرة دي غيز الكاثوليكية على حساب التاج في فرنسا ، فأعادت قسم كبير من البروتستانت الى وظائفهم واخرجت الكثير من قادتهم من المعتقلات ، وبالرغم من أن كاترين كانت كاثوليكية إلا إن الإنقسام الطائفي الرهيب جعلها تتبع سياسة التوازن بين الطائفتين ، فأصدرت عام ١٥٦٢ مرسوم التسامح وبموجبه يحق للبروتستانت في فرنسا في ممارسة شعائرهم الدينية خارج أسوار المدن الكبيرة وفي قصور نبلائهم في الأرياف ، وقد تمادى البروتستانت في الاستفادة من تسامح الملكة تجاههم فبدأوا يمارسون طقوسهم الدينية داخل أسوار المدن مما أدى الى حدوث مذبحة فاسي عندما شاهدهم دي غيز يصلون داخل اسوار مدينة فاسي فهاجمهم وذبح منهم الكثير بحجة مخالفتهم مرسوم التسامح ، وادت مذبحة فاسي الى تجدد الحرب الطائفية فإندفع البروتستانت يهاجمون كنائس الكاثوليك ويقتلون رجالها ويحطمون محتوياتها من صور وتماثيل وتحف واستولوا على مدن فرنسية مهمة .

استمر الصراع بين الطرفين وبدا كل منهما يتطلع الى المساعدة بالأموال والرجال والسلاح من خارج فرنسا ، فحصل البروتستانت على الدعم والمساعدة من ملكة انكلترا اليزابيث الاولى ، أما الكاثوليك فقد وقف الى جانبهم فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وهكذا فقدت كاترين واولادها السيطرة على البلاد وسط أجواء الحرب الطائفية ، استمرت الحروب بين الطرفين وتميزت بانتصار الكاثوليك على البروتستانت فأصدر الملكة مرسوم أمبواز عام ١٥٦٣ أعطت فيه الملكة للبروتستانت حقوقاً جديدة تمثلت في حرية العبادة في بلدة واحدة من كل اقليم ، ومع استمرار تفوق أسرة غيز في الحرب الطائفية أصدرت الملكة من جديد مرسوماً آخر هو مرسوم سانت جيرمان منحت فيه البروتستانت تسامحاً أكثر مما حصلوا

عليه سابقاً . تصاعد نفوذ البروتستانت في البلاط الملكي الفرنسي ومال إليهم الملك الشاب شارل التاسع واصبح للبروتستانت سلطة ونفوذ واسعين في فرنسا مما اثار قلق الملكة الام كاترين دي مديتشي ، وسعت للحفاظ على توازن القوى من جديد بين الطائفتين في البلاد ، لذلك قررت توجيه ضربة قوية للبروتستانت واستغلت فرصة زواج ابنتها مارغريت من زعيم البروتستانت هنري بوربون عندما تجمع البروتستانت في باريس للإحتفال بالمناسبة ، أقنعت كاترين دي مديتشي ابنها شارل بان البروتستانت يدبرون مؤامرة للاستيلاء على الحكم وافتعلت حادثة اغتيال تؤيد ذلك ، وفي فجر يوم ٢٤ آب ١٥٧٢ المصادف عيد القديس بارثلميو أعطت الملكة إشارتها ببدء المذبحة الكبرى التي ذهب ضحيتها الآلاف من البروتستانت وزعماؤهم وسميت بمذبحة القديس بارثلميو ، وبعد سنتين توفي شارل التاسع وخلفه اخوه الضعيف هنري الثالث ، وبعد المذبحة اعتصم زعماء البروتستانت في قلعة لاروشيل مما أضطر الملكة الأم لمصالحتهم وإعادة ما اخذ منهم من املاك وامتيازات ، وفي هذا الوقت ظهرت إتجاهات من داخل صفوف الكاثوليك تدعوا الى إنهاء الحروب الطائفية والعيش بسلام ووضع مصلحة البلاد فوق كل اعتبار ، وفي أب ١٥٨٩ أغتيل الملك هنري الثالث على يد كاثوليكي متعصب ، فانتقل العرش الفرنسي الى هنري بوربون زوج أخته الذي أعلن اعتناقه للكاثوليكية فهدأت المقاومة من آل غيز وتوج ملكاً على فرنسا عام ١٥٩٤ بأسم هنري الرابع ، وانتهت بذلك الحروب الطائفية الفرنسية وأصدر الملك الجديد مرسوم ترنت سويت بموجبه الخلافات الطائفية في البلاد ، ومن الجدير بالذكر أن البروتستانت الفرنسيين بسبب عمليات الإضطهاد المستمرة اضطروا الى الهجرة الى أمريكا الشمالية بعد اكتشافها اواخر القرن الخامس عشر .

حروب الثلاثين عاما (١٦١٨-١٦٤٨)

شهدت الإمبراطورية الرومانية المقدسة(ألمانيا والنمسا) آخر الحروب الطائفية في أوربا وهي حروب الثلاثين عام نتيجة الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الصراع الذي يأتي على خلفية حركة الإصلاح الديني حيث أعقبتها حروب طائفية بين أتباع المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي ، وشاركت في هذه الحروب أكثر من دولة أوربية وقد تميزت هذه الحروب بالانتصارات التي حققها الكاثوليك على البروتستانت باسم حركة الإصلاح

الكاثوليكي ، كما اختلطت فيها العوامل السياسية التي دفعت في بعض الأحيان بعض الكاثوليك في دول أخرى إلى التحالف مع ملوك البروتستانت ، وتقوم وراء هذه الحروب أسباب عديدة يمكن تلخيصها بما يأتي :

١- أن صلح اغسبورغ الذي عقد عام ١٥٥٥ بين الكاثوليك والبروتستانت لم يضع مبادئ وأسس السلام الدائم بين أغلبية سكان جنوب ألمانيا الكاثوليك وأكثرية سكانها البروتستانت في الشمال .

٢- تصرف البروتستانت والكاثوليك بعد صلح اغسبورغ وكأنه كان هدنه وليس صلحا دائما فعمل كل طرف على نشر مذهبه في أراضي جديدة مما أدى الى تأجيج نزاع مسلح جديد .

٣- قيام الأمراء الألمان البروتستانت بإنشاء الاتحاد البروتستانتي عام ١٦٠٨ بزعامة فردريك ناخب ولاية البلاتينات على الراين ، مما أدى الى ولادة العصبة الكاثوليكية عام ١٦٠٩ بقيادة مكسمليان أمير بافاريا .

لقد هيأت هذه الأجواء الى قيام الحرب الطائفية في المانيا والتي ابتدأت في بوهيميا البروتستانتية عام ١٦١٨ ومرت بأربعة أدوار رئيسية كما يلي :

١- **الدور البوهيمي (١٦١٨-١٦٢٣) :** تعد ثورة بوهيميا (الجيك) بداية الحرب الأهلية في أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والسبب الرئيسي لتلك الثورة هو أن الإمبراطور ماثيو هابسبرغ (١٦١٢-١٦١٩) لم يكن له وريث للعرش سوى ابن عمه فردناند ، وهذا الأخير كان متعصباً للكاثوليكية فقد تربى على يد جمعية اليسوعيين في اسبانيا ، لذلك كثر المعارضين لإنتخابه امبراطوراً من قبل البروتستانت ولاسيما الكالفنيين في بوهيميا ، فقد خشي أمراء بوهيميا الكالفنيين من أن يمنعهم فردناند من ممارسة شعائرهم الدينية ويلغي امتيازاتهم ويصادر أملاكهم ، وبدأت الثورة عندما قامت جماعة من البروتستانت في ٢٣ آيار ١٦١٨ بإلقاء الموظفين التابعين للإمبراطور من شباك إحدى البنايات الحكومية ، ولحسن حظ الموظفين انهم سقطوا على كومة من القش فلم يموتوا وهربوا الى فينا لإبلاغ الإمبراطور ، في تلك الأثناء خلع الثوار الإمبراطور وإختاروا فردريك الكالفني ناخب البلاتينات وزعيم الإتحاد البروتستانتي ملكاً على بوهيميا ، قبل فردريك العرش وبدأ يستعد للدفاع عن لقبه الجديد .

أثار انتخاب فردريك ملكاً على بوهيميا قلق كل الامراء الالمان ، ولاسيما الأمراء الناخبون السبعة ، إذ كاان لفردريك من قبل صوتاً واحداً في اختيار الامبراطور ، فأصبح بعد توليه عرش بوهيميا يمتلك صوتان ، ولما كان من أتباع كالفن ، فإن هذا التزايد في السلطة أثار اللوثريين ، ولذلك أعلنوا حيادهم في الحرب المقبلة بين فردريك والامبراطور ، أما الأمراء الالمان من الكاثوليك فثارت مخاوفهم بدرجة أقوى ، إذ لم يعد لهم سوى ثلاثة أصوات ضد أربع أصوات لانصار المذاهب البروتستانتية ، الامر الذي كان يهدد انتقال التاج الإمبراطوري الى البروتستانت في الإنتخابات التالية . وفي تلك الأثناء توفي الامبراطور ماثيو وانتخب فردناند امبراطوراً بإسم فردناند الثاني (١٦١٩-١٦٣٧) .

أتخذ الإمبراطور الجديد قراراً بسحق الثورة البوهيمية ، واتفق مع فيليب الثالث ملك اسبانيا أن يرسل جيشاً الى البلاتينات بينما يتوجه الجيش النمساوي مع جيوش العصبة الكاثوليكية بقيادة تيلي الى بوهيميا ، وكان فردريك يتوقع المساعدة من والد زوجته جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥) ملك انكلترا كما توقع العون من الامراء اللوثريين في شمال ألمانيا ، لكن خاب ظنه في كلتا الحالتين ، انتصر الامبراطور على القوات البروتستانتية في معركة التل الأبيض عام ١٦٢٠ ، وهرب فردريك فيما أعيدت بوهيميا الى حظيرة الإمبراطورية ، وأعقب هذا الانتصار الكاثوليكي حملة بطش وتنكيل بنبلاء البروتستانت الذين خسروا حياتهم واراضيهم ، كما منع فردناند ممارسة الشعائر البروتستانتية في بوهيميا ، وترتب على ذلك هجرة آلاف الأسر البوهيمية وتدفق الكاثوليك الى بوهيميا ، كما إستولى الجيش الإسباني على ولاية البلاتينات والحقت بولاية بافاريا التي أصبح ناخبها مكسمليان ، زعيم العصبة الكاثوليكية ، ناخباً للإمبراطور بدلاً من فردريك مكافأة لخدماته وخسر فردريك كل املاكه هناك ، كما أجبر سكان البلاتينات على اعتناق الكاثوليكية .

٢- الدور الدنماركي (١٦٢٥-١٦٢٩) : أثارت هزيمة بوهيميا قلق أمراء البروتستانت في شمال ألمانيا ، وبينما كانوا في حيرة من أمرهم بين الخضوع للإمبراطور فردناند أو الإستمرار بالثورة ، قرر ملك الدنمارك كرستيان الرابع (١٥٨٨-١٦٤٨) التدخل في حرب الثلاثين عام ليبدأ الدور الدنماركي ، وكان ملك الدنمارك لوثرياً ورغب في أن يسترجع اللوثريون مافقدوه من املاكهم ، كما أراد مد نفوذه للسيطرة على سواحل بحر البلطيق شمال

ألمانيا ، ولكونه دوقاً لمقاطعة هولشتاين الألمانية كان كرستيان عضواً في ديت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لكنه كان ضد آل هبسبرك ، فقرر التدخل في ألمانيا بعد أن شجعته انكلترا وهولندا وأمدوه بالمال والسلاح ، ليبدأ الدور الثاني في حرب الثلاثين عاما ، فقرر فردناند تشكيل جيش قوي الى جانب جيوش العصبة الكاثوليكية للوقوف بوجه ملك الدنمارك الذي تدخل عام ١٦٢٥ في شمال ألمانيا البروتستانتي ، واستعان فردناند بأحد المغامرين وأسمه والشتاين الذي جمع ثروة كبيرة بعد مصادرة أملاك البروتستانت في بوهيميا ، وسمح له الإمبراطور بشكيل جيش قوي تعداده ٥٠ ألف جندي من المرتزقة إنضم الى جيوش العصبة الكاثوليكية ، وفي المعركة التي دارت في لوتر في شمال ألمانيا عام ١٦٢٦ اندحر الجيش الدانماركي أمام القوات المشتركة بقيادة القائدين تيلي ووالشتاين ، واصبحت الولايات الالمانية البروتستانتية تحت رحمة العصبة الكاثوليكية ، وانهزم ملك الدنمارك واحتلت الجيوش الكاثوليكية الولايات الألمانية الشمالية ، وعقد صلح لوبك عام ١٦٢٦ بين الإمبراطور وملك الدنمارك احتفظ بموجبه كرستيان الرابع بمقاطعة شلزفيك وهولشتاين وجتلند ، وتعهد بعدم التدخل في شؤون ألمانيا مستقبلا .

٣- **الدور السويدي (١٦٣٠-١٦٣٥)** : كانت السويد مهددة بشكل مباشر من قبل الامبراطور فردناند الثاني بعد الإنتصارات التي حققتها جيوشه في شمال ألمانيا ، وخاصة إن هذا الإمبراطور كان يأمل بتكوين قوة بحرية واستولى على دوقيتين تطلان على بحر البلطيق لتحقيق هذه الغاية ، وفي تلك الأثناء التجأ البروتستانت الى أقوى دولة بروتستانتية في شمال أوربا وهي السويد طلباً للمساعدة ، في الوقت الذي لم يكن فيه الامبراطور فردناند مستعداً لمواجهة غزو أجنبي جديد للأراضي الألمانية ، لأن جيشه ضعف بعد أن عزل والنشتاين عام ١٦٣٠ ، بناءً على طلب العصبة الكاثوليكية التي تذمرت من اعمال جنوده التخريبية . قرر ملك السويد الشاب غوستاف أدولف (١٦١١-١٦٣٢) التدخل ليبدأ الدور الثالث من حرب الثلاثين عام ، ولم يكن الدافع الطائفي وحده هو السبب بل كانت هناك عوامل سياسية مهمة أيضا أولها الخطر الذي يشكله احتلال الكاثوليك لشمال ألمانيا مما يجعل إمبراطورية الهابسبرك منافساً قوياً للسويد في بحر البلطيق يهدد مصالحها التجارية والعسكرية .

ومن جانب آخر كان السويديون لا يستبعدون هجوما لقوات فردناند عليهم لفرض الكاثوليكية بعد انتصاره في شمال ألمانيا ، كذلك فان تواجد قوات النمسا شمال المانيا يهدد السويد مباشرة ويتعارض مع أحلام ملك السويد في الاستيلاء على شريط من الأرض على الساحل الشمالي لالمانيا ليصبح بحر البلطيق بحيرة سويدية لاسيما بعد أن استولى غوستاف في وقت سابق على فنلندة واستونيا وانتزع أنكريا من روسيا عام ١٦١٧ كما اصطدم مع بولندا (١٦٢١-١٦٢٩) وأجبرها على التنازل على ليفونيا ومصب نهر الفستولا محكماً سيطرته على السواحل الشمالية لبحر البلطيق ، لذلك تحولت انظاره الى سواحل المانيا الشمالية في الوقت الذي أصدر فيه الإمبراطور مرسوم الإسترجاع لمصادرة أملاك الكنائس البروتستانتية في المانيا ، كما خشيت فرنسا من إزدياد نفوذ الهبسبرك شمال المانيا بعد هزيمة الدنمارك ، لذلك دعم ريشيليو الوزير الاول للملك الفرنسي لويس الثالث عشر استمرار حرب الثلاثين عام لكي تضعف عائلة الهابسبرك النمساوية وتقوى عائلة البوربون الفرنسية ، وللحصول على بعض المنافع في المانيا ، ولذلك عقد ريشيليو تحالف مع السويد بموجبه تقدم فرنسا المال والسلاح شريطة منح الحرية الدينية للكاثوليك في المناطق التي يحتلها .

نزل غوستاف أدولف بقواته في منطقة بوميرانيا شمال ألمانيا في حزيران ١٦٣٠ ، وبدأ يتحالف مع الامراء البروتستانت لمواجهة جيوش العصبة الكاثوليكية ، وتمكن مع حلفاءه أن يحقق انتصاراً ساحقاً على جيوش الإمبراطورية بقيادة تيلي قرب مدينة لايبزك في أيلول ١٦٣١ ، والذي يعد أول انتصار للبروتستانت في حرب الثلاثين عاماً ، فتوغل ملك السويد داخل الأراضي الألمانية وتمكن ان يحقق انتصار على جيش تيلي مرة أخرى في معركة ليك في نيسان ١٦٣٢ ، وقتل تيلي في هذه المعركة ، ثم توجه ملك السويد نحو فينا عاصمة الهابسبرك ، عندئذ استدعى الامبراطور قائده المعزول والنشتاين لمواجهة غوستاف ادولف وأبرم اتفاقية مع فيليب الرابع (١٦٢١-١٦٦٥) ملك اسبانيا للوقوف الى جانبه ، وفي خريف ١٦٣٢ التقى الجيش السويدي بجيش والنشتاين وفي المعركة الحاسمة التي دارت في لوتزن انهزم جيش والنشتاين لكن غوستاف ادولف قتل في المعركة ، وخلفته الطفلة كريستينا على عرش السويد لتصبح السلطة بيد وصي عليها ، وقد تلقى الامبراطور خبراً مفاده ان

والنشتاين يحاول عقد صلح مع البروتستانت فإغتاله أحد اتباع الإمبراطور في معسكره عام ١٦٣٤ ، وظلت السويد تحارب في ألمانيا الى أن هزمت في معركة نورد لينجن في أيلول ١٦٣٤ فأسرع الأمراء البروتستانت بعقد الصلح مع الإمبراطور ، ووجد الجانبان أن لافائدة من استمرارها بعد أن أنهكت البروتستانت والكاثوليك وقضت على إقتصاد الإمبراطورية ، ورغبةً من الطرفين في إخراج الاجانب من ألمانيا عقدوا صلح براغ عام ١٦٣٥ بين الإمبراطور والامراء الالمان الراغبين في التوقف عن القتال ونصت على :

١- إلقاء جميع الأمراء الالمان السلاح باستثناء الناخب جون جورج أمير سكسونيا البروتستانتي ، وتصبح جميع القوات العسكرية في الإمبراطورية تحت سيطرة الإمبراطور.

٢- إلغاء جميع التكتلات الطائفية الكاثوليكية والبروتستانتية التي تربط بين الأمراء داخل الإمبراطورية .

٣- أما بخصوص الأراضي التابعة للكنيسة فقد تقرر أن تبقى هذا الأراضي بيد أصحابها كما كانت في سنة ١٦٢٧ ولمدة ٤٠ عام سواء أخذت قبل أو بعد صلح اغسبورغ الى أن يتم التوصل الى صلح نهائي ، وظهر إمبراطور الهبسبرك مرة أخرى على انه سيد ألمانيا .

وهكذا إنتهى الدور السويدي في حرب الثلاثين عام ليبدأ الدور الفرنسي .

٤- **الدور الفرنسي (١٦٣٥-١٦٤٨)** : إقتنع الوزير الفرنسي ريشيليو بأن التدخل الفرنسي في حرب الثلاثين عام صار ضرورياً لإضعاف الهبسبرك في المانيا ، فعقد تحالفاً مع السويد وهولندا للقتال ضد جيوش النمسا وحليفتها إسبانيا وهكذا تحولت حرب الثلاثين عاما من حرب طائفية الى حرب مصالح دولية ، اتحد فيها الكاثوليك والبروتستانت بقيادة ال بوربون الفرنسيين ضد الكاثوليك من آل هبسبرك النمساويين ، وكان دافع فرنسا لهذا التحالف خوفاً من استغلال النمسا لانتصاراتها في التوسع بأوربا ، كما أرادت فرنسا إضعاف سيطرة اسبانيا على الأراضي المنخفضة .

أعلن ريشيليو الحرب على الامبراطورية وحلفاؤها في المانيا واسبانيا ، وإعتمد على السويديين وحلفاؤهم من البروتستانت الألمان لإشغال آل هبسبرك النمساويين ، كما كان يعتمد على الهولنديين لإضعاف الإسبان ، حيث أن اسبانيا لم تعترف حتى ذلك الوقت باستقلال هولندا ، وكان هناك ميدانان للحرب أحدهما من جانب فرنسا التي واجهت أسبانيا

في الاراضي المنخفضة وفي جنوب فرنسا، والآخر تشغله السويد التي تقدمت من الشمال الى قلب المانيا ، وكان غرض ريشيليو إضعاف دول العصبة الكاثوليكية وهزيمتها لكي يصبح التفوق في أوربا لفرنسا وحدها ، وكان فيليب الرابع (١٦٢١-١٦٦٠) ملك اسبانيا يساعد اقاربه من الهابسبرك في النمسا في حرب الثلاثين عام حتى عام ١٦٣٥ وواصل حروبه الهجومية في هولندا والمانيا ، لكن بعد هذا التاريخ واجه فيليب هجوماً فرنسياً عنيفاً على محاور عده في هولندا وبلجيكا وجنوب فرنسا وشمال ايطاليا وفي اسبانيا نفسها ، فأضطر فيليب الى ترك الهجوم والدفاع عن أراضيه الإسبانية ، وبالرغم من ان الكفة مالت في بداية الحرب لصالح الإسبان الذين توغلوا داخل فرنسا ، غير أن الجيش الإسباني بدأ يتقهقر تدريجياً بفضل صمود الفرنسيين وحكمه ريشيليو، واستطاع الاخير أن يحرض البرتغاليين على الثورة عام ١٦٤٠ ، فأنفصلت البرتغال عن اسبانيا وتم خلع فيليب الرابع من عرش البرتغال ، وفي معركة روكروي ١٦٤٣ انتصر الفرنسيون انتصاراً ساحقاً على جيش فيليب وبدأ تدهور اسبانيا وإفلاسها ، أما في المانيا استطاع الفرنسيون إرسال جيوشهم لمساعدة البروتستانت بعد اندحار اسبانيا ، وقد حاول فردناند الثالث (١٦٣٧-١٦٥٧) الذي أصبح امبراطوراً بعد وفاة والده أن يعقد صلحاً مع فرنسا لكن المحاولات فشلت ، وبالرغم من وفاة لويس الثالث عشر وريشيليو عام ١٦٤٣ إلا أن خليفته الكاردنال مازران واصل الحرب معتمداً على قادة عسكريين كفوئين مثل كونديه وتورين ساهموا في بدء عصر التفوق الفرنسي في أوربا لزهاء قرن من الزمن ، تمكنت القوات السويدية الفرنسية المشتركة من غزو بافاريا وحصار ميونخ ، واحتل الفرنسيون الألزاس ، كما قام جيش سويدي آخر بالاستيلاء على براغ فأضطر الامبراطور الذي أصبح مهدداً في عاصمته الى الموافقة على عقد الصلح .

معاهدة وستفاليا وصلح البرانس

انتهت المفاوضات بعقد صلح وستفاليا في ٢٤ تشرين الأول عام ١٦٤٨ تقرر فيها :

١- يحق لكل إمارة أو ولاية ألمانية عقد صلح أو الإشتراك بحرب دون إستشارة الإمبراطور ، كما مُنح كل أمير سيادة كاملة في منطقته .

٢- تمتع أتباع لوثروكافن على السواء بالحرية الدينية في كافة أنحاء الإمبراطورية ، وتبقى أملاك الكنيسة بحوزة من استولى عليها قبل عام ١٦٢٤ مع الاحترام الكامل لشروط صلح اغسبورغ ، وفيما يخص القضاء يجلس عدد متساو من القضاة الكاثوليك والبروتستانت في محاكم الإمبراطور .

٣- حصل الفرنسيون على مقاطعة الالزاس باستثناء مدينة ستراسبورغ ، وحصل السويديون على قسماً من مقاطعة بوميرانيا والمنطقة المحيطة بمدينة بريمن وتلك الإمتيازات أضعفت من قوة النمسا في ألمانيا ، وأصبح لكل من فرنسا والسويد صوت في (الديت الالماني) ، كما أصبح من حق هذه الدول الإشراف على الشؤون الالمانية .

٤- حصلت براندمبرغ التي صارت تعرف بـ بروسيا فيما بعد على القسم الشرقي من بوميرانيا ، كما حصلت على عدد من المدن الأسقفية من ضمنها مكدبرغ ، وبذلك تشكلت نواة الدولة البروسية .

٥- انقسمت ولاية البلاتينات على الراين بين كل من مكسمليان البافاري زعيم العصبة الكاثوليكية في الحرب ، وابن فردريك أمير البلاتينات وقائد البروتستانت في الدور البوهيمي من حرب الثلاثين عام .

٦- تم الاعتراف رسميا باستقلال هولندا وسويسرا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وبذلك انتهت حرب الثلاثين عاما التي تعتبر آخر حرب أوربية ارتبطت بالصراع الديني وهي أيضا أول حرب ذات طابع دولي في أوربا فجميع الحروب التي سبقتها كانت على نطاق محلي او إقليمي ، وقد أسفرت الحرب عن تقلص نفوذ عائلة الهبسبرك في ألمانيا ، وأقتصرت أملاكهم على النمسا وبوهيميا (الجيك) وهنكاريا (المجر) ، كما تكرست التجزئة السياسية بين المقاطعات الألمانية ولم يبقى من الإمبراطورية الرومانية المقدسة غير شكلها الخارجي .

أما إسبانيا فقد إنسحب ممثلوها من مفاوضات معاهدة وستفاليا بعد ان إعترفت المعاهدة بهولندا دولة مستقلة ، وظلت العلاقات بين فرنسا وإسبانيا بدون تسوية ، في الوقت الذي كانت فيه السلطة الملكية في فرنسا تواجه تمرداً وثورات داخلية من قبل نبلاء باريس ضد الملك الطفل لويس الرابع عشر فيما سمي بثورة الفروند (١٦٤٩-١٦٥٢) ، الأمر الذي

شجع اسبانيا على أن تستمر في الحرب ضدها . وإستمرت الحرب بين فرنسا وإسبانيا لمدة إثني عشر عاماً أخرى وانتصر الفرنسيون على الإسبان في نهايتها ، ووافق فيليب الرابع على الصلح فتم توقيع صلح البرانس بين الجانبين عام ١٦٥٩ ونص على :

١- حصلت فرنسا على ولاية روسيليون جنوب البلاد ، كما حصلت على ولاية آرتو في حدودها الشمالية .

٢- الإعتراف بفرنسا كقوة حامية او منتدبة على دوقية اللورين على الحدود الألمانية .

٣- تقرر ان تتزوج ماريا تريزا إبنة فيليب الرابع من آل هبسبرك من ملك فرنسا لويس الرابع عشر من آل بوربون .

كان صلح البرانس آخر المنجزات المهمة للكاردينال مازران ، وشاهد قبل وفاته عام ١٦٦١ انتصار سياسته التي تبناها عن صديقه ريشيليو ونتج عنها إنشاء أساس قوي للملكية في فرنسا ، كما نتج عنها إندحار وتدني مكانة آل هبسبرك النمساويين والاسبان ، واصبحت فرنسا في سنة ١٦٥٩ القوة المسيطرة في غرب أوربا .

تدهور اسبانيا والبرتغال في القرن السابع عشر

كانت اسبانيا والبرتغال في طليعة الدول الأوربية التي قامت بالكشوفات الجغرافية ونتيجة لتلك الكشوفات فقد كونت هاتان الدولتان إمبراطوريات استعمارية فيما وراء البحار هي الأولى من نوعها ، كانت تلك الإمبراطوريات الاسبانية والبرتغالية قد انشأت بمباركة البابا اسكندر السادس آنذاك ، فاستطاعت البرتغال الوصول الى الهند واحتلال الطريق البحري المؤدي إليها ، وأما اسبانيا فاكتشفت العالم الجديد والذي أطلق عليه فيما بعد أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، واتحدت الدولتان تحت حكم ملك اسبانيا فيليب الثاني عام ١٥٨٠ فانتهى دور البرتغال خلال مرحلة الوحدة وضعف دورها في أوربا وفقدت مستعمراتها تدريجياً ، وتمتعت اسبانيا بالسيادة الاوربية في أوربا حتى منتصف القرن السابع عشر ، ولكن التدهور والإنحلال قد بدأ منذ اواخر حكم فيليب الثاني ، ويمكن اعتبار معركة الإرمادا نقطة تحول في تاريخ اسبانيا إذ استطاعت انكلترا انتزاع السيادة البحرية العالمية منها . ومع ذلك استمرت اسبانيا كدولة قوية وثرية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، وظلت العلاقات قوية بين فرعي عائلة هبسبرك الإسبانية والنمساوية ، وخلف فيليب الثالث أباه

فيليب الثاني ودخل ابنه فيليب الرابع في حرب الثلاثين عام لمساعدة أقاربه النمساويين ، وكان الوضع الدولي عاملا مهماً في احتفاظ اسبانيا بسيادتها ، إذ ان الحروب الطائفية في اواخر القرن السادس عشر دمرت فرنسا ، وكانت ألمانيا قد دمرتها حروب الثلاثين عام في حين انشغلت انكلترا باضطراباتها الداخلية والصراع بين الملك والبرلمان الذي أدى الى الحرب الأهلية ، ولهذه الاسباب عاشت اسبانيا في فترة سلم ورخاء نسبي .

في ذات الوقت تنبهت الدولة الأوربية الأخرى الى الفوائد التي تحصل عليها اسبانيا والبرتغال من مستعمراتها الجديدة ، فبدأت هذه الدول تنافس اسبانيا والبرتغال ، وعلى رأس هذه الدول انكلترا وفرنسا وهولندا ، واستطاعت هذه الدول ان تحرز تقدما كبيرا في حركة الاستكشاف والحصول على المستعمرات ، وبدأت هذه الدول تنافس اسبانيا والبرتغال في هذا الميدان ، فبدأت أولى علامات التدهور في هاتين الإمبراطوريتين الاستعماريتين حتى أصبحت مستعمرات اسبانيا والبرتغال مجالا للتنافس والصراع بين الدول الأوربية الكبرى .

وبحلول القرن السابع عشر فرضت انكلترا وجودها بقوة في مجال الاستعمار فيما تراجعت اسبانيا والبرتغال عن هذا الميدان ، واضطرت اسبانيا خلال الحروب الدينية في الاراضي المنخفضة عام ١٦٠٩ لقبول هدنة على أساس الاعتراف بهولندا دولة مستقلة بعد ان كانت تابعة لاسبانيا ، وأصبح انفصال الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) عن اسبانيا رسميا بموجب صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ الذي أنهى حرب الثلاثين عام في أوربا ، وكان تدخل اسبانيا في هذه الحرب أدى خروجها منها كدولة مغلوبة على امرها وفقدت بعض مستعمراتها وثرواتها .

ومن أسباب تدهور مكانة اسبانيا ونفوذها في اوربا أن الثروة الضخمة التي تدفقت الى اسبانيا من ماوراء البحار لم يستفد منها الشعب الإسباني ، إنما استفاد منها فئة قليلة من أفراد الطبقة الوسطى الذين ربطوا أنفسهم بالمشاريع الإستعمارية والتجارية البعيدة ، وإن غالبية سكان اسبانيا والبرتغال ومن ضمنهم النبلاء والفلاحين استمروا يكرسون أنفسهم للإشتغال بالزراعة التي لم تكن تكفي الحاجة المحلية ، فلم يكن هناك تبادل تجاري نشط مع المستعمرات ولذلك لجأ الملوك والتجار الطموحين في اسبانيا والبرتغال الى الصيارفة الأجانب لتوظيف رؤوس اموالهم ، وأغلب المستفيدين هم الصيارفة والرأسماليين الأجانب

ولاسيما الايطاليين والهولنديين والألمان ، وفي المقابل عانى الشعب الإسباني من ثقل الضرائب الكثيرة المفروضة عليه مما ادى الى اضعاف الاقتصاد الداخلي للبلاد ، فلم تنمو الراسمالية في هاذين البلدين .

استمر التدهور في قوة اسبانيا طيلة القرن السابع عشر ، ومن أهم علامات ذلك التدهور هو حرب الوراثة الاسبانية بعد وفاة ملك اسبانيا شارل الثاني دون وريث ، والتي استمرت من عام ١٧٠١ حتى عام ١٧١٣ ، ادعت فيها كل من فرنسا و انكلترا وبافاريا والنمسا أحقيتها في وراثة عرش اسبانيا ، وأنهكت الحرب جميع الأطراف التي اشتركت فيها وبشكل أساسي إسبانيا . اما البرتغال فتركت التحالف مع فرنسا واسبانيا خلال الحرب وتحولت الى التحالف مع انكلترا فكانت حرب الوراثة الاسبانية قد أنهكت اسبانيا والبرتغال ومعها القوى الأوربية الأخرى .

فرنسا في عصر لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥) عصر التفوق الفرنسي

أدت الحرب الطائفية في فرنسا الى وصول آل بوربون الى الحكم ، فأصبح هنري بوربون ملكاً باسم هنري الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) ، وإعتنق هنري الكاثوليكية لكي يثبت مركزه في العرش الفرنسي ، وفي عام ١٥٩٨ أصدر هنري الرابع مرسوم نانت منح بموجبه الحرية الدينية للبروتستانت ، لكن هذا المرسوم لم يرضي الكاثوليك فأغتيل هنري الرابه على يد كاثوليكي متعصب ، وبعد وفاته أصبح ابنه لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣) ملكاً على فرنسا . كان لويس في التاسعة من عمره فتولت والدته ماري مديتشي الوصاية عليه ، وعندما تسلم العرش إعتمد على وزيره الأول الكاردينال ريشيليو الذي امتاز بالحكمة والدهاء ، وحقق إنجازات مهمة لفرنسا أبرزها إخضاع البروتستانت وتحطيم نفوذ النبلاء بالإضافة الى تقوية الحكم المركزي وتأسيس جيش قوي ، وساهمت سياسة ريشيليو في إضعاف قوة آل هبسبرك في أوربا خلال حرب الثلاثين عام . توفي ريشيليو عام ١٦٤٢ وأوصى أن تؤول الوزارة من بعده الى صديقه الكاردينال مازران ، وتوفي بعده لويس الثالث عشر عام ١٦٤٣ ، وترك العرش لإبنه الصغير لويس الرابع عشر الذي كان في الخامسة من عمره .

ثورة الفروند ١٦٤٩-١٦٥٢

سار الكاردينال مازران على نهج سلفه ريشيليو لتحقيق عظمة فرنسا في الخارج وتقوية السلطة الملكية في الداخل . كان مازران ايطالياً من نابولي ، وقام بعدة مهام دبلوماسية للبابا كان آخرها في باريس ، وتقرب هناك من ريشيليو فأصبح مواطناً فرنسياً عام ١٦٣٩ ، وقد ترقى في المناصب الحكومية فأصبح كاردينالاً وخلف ريشيليو في عمله بعد وفاة الأخير ، وحاول النبلاء الفرنسيين إستغلال وفاة ريشيليو لإسترجاع نفوذهم وإمتيازاتهم التي سلبها منهم ، وازدادت نقمة النبلاء الفرنسيون لرؤيتهم شؤون فرنسا تؤول الى امرأة ووزير ايطالي يريد ان يجردهم من نفوذهم ، فإتهمو مازران بنهب الخزينة والتدخل في شؤون البرلمانات في فرنسا ، والتي كانت عبارة عن هيئات قضائية عددها ١٣ في فرنسا ، تتولى الحكم والبت في القضايا المهمة للدولة وأبرزها هو برلمان باريس ، ومن بين وظائف برلمان باريس تسجيل المراسيم والقوانين والاوامر الملكية ومنذ عهد ريشيليو خضع برلمان باريس لإرادة الملك .

ومن العوامل الأخرى التي كانت وراء قيام ثورة الفروند هو تأثر برلمان باريس بالثورة الإنكليزية ، فأعلن حصانته عن بطش الملك ، ثم تحدى الملك ومازران بإعلانه عدم جواز فرض الضرائب أو جمعها مالم يقرها ممثلوا الشعب في البرلمان ، والغى برلمان باريس بعض الدوائر الحكومية واحتج ضد التوقيف والسجن دون تبرير ، وقد ساندت جماهير باريس النبلاء في مطاليبهم ، ولما كان مازران لايزال مشغولاً بحرب الثلاثين عام أذعن لمطاليب النبلاء في برلمان باريس ، وما أن إنتهت الحروب ورجعت الجيوش الفرنسية عام ١٦٤٨ ، حتى ألغى مازران سلطة البرلمان ، لكن الجماهير استمرت في ثورتها وأضطر مارزان والملك الصغير والملكة الأم الى مغادرة باريس والهروب من بطش الثوار ، لكن مازران في النهاية استطاع القضاء على الثورة نهائياً عام ١٦٥٢ . وكانت نتيجة ثورة الفروند إنتهاء نفوذ النبلاء نهائياً في البلاد ومنعهم من التدخل في الشؤون السياسية والمالية للبلاد ، كما أصبح نفوذ الملك اكبر مما كان عليه أيام الكاردينال ريشيليو ،

وهكذا إغتنم مازران كل فرصة لتقوية السلطة الملكية ، فلما توفي عام ١٦٦١ ، كان لويس الرابع عشر قد بلغ سن الرشد وكان طريق الحكم المطلق ممهداً أمامه .

لويس الرابع عشر ونظرية الحق الإلهي للملوك

أعلن لويس الرابع عشر بعد وفاة مازران أنه سيحكم البلاد ويدير السياسة الداخلية والخارجية بمفرده ، وكان لويس رجلاً أنيقاً ومهاباً ، وإتخذ صورة الشمس شعاراً له ولذلك كان كان يلقب بالملك الشمس ، وتفوق لويس الرابع عشر في تمسكه بنظرية الحق الالهي للملوك كلاً من جيمس الأول (١٦٠٣-١٦) ملك انكلترا ، وفيليب الثاني ملك اسبانيا ، وكان كثيراً مايردد عبارته الشهيرة " الدولة أنا " ، ومن جهة أخرى تركت ثورة الفروند تأثيراً كبيراً على لويس الرابع عشر جراء الاهانات التي لحقت به وبأمه أثناء فرارهم من باريس ، كما انه لم يستطع ان ينسى ان النبلاء تمردوا عليه ، فتكونت في ذهنه فكرة الحكم المطلق المركزي ، وقد ساعده في ذلك تطلع الفرنسيين إليه كحاكم مطلق لأنقاذ البلاد من الثورات والفوضى مما دعم أركان الملكية في فرنسا بدرجة كبيرة ، وهكذا سار لويس الرابع عشر في طريق الحكم الملكي المطلق الذي كان انسجاما مع الخط الذي سارت علية ملكية آل بوربون في فرنسا منذ هنري الرابع . الى جانب هذه المرتكزات فقد وجدت الملكية المطلقة في فرنسا إسنادا عقائديا وفكريا من خلال النزعة التي سادت في أوربا في القرن السابع عشر بتركيز السلطة في يد واحدة تعلو فوق الجميع وتستمد سلطانها من الله فقط دون تأييد او مراقبة من البشر .

سياسته الداخلية

جعل لويس الرابع عشر إدارة مملكته مركزية وأنشأ عدداً من الوزارات كالمالية والجيش والبحرية والأشغال العامة التي كانت في السابق تحت سلطة وزير واحد ، وأصبح هؤلاء الوزراء تحت حكمه وينفذون اوامره والسياسة التي يقررها ، ومن اجل إضعاف النبلاء أعطاهم الوظائف في العاصمة دون أن يكون لديهم نفوذ ، وقد إبتنى لنفسه قصراً فسيحاً في فرساي على بعد ١٢ ميل من باريس لايضاهيه قصر آخر في الروعة والجمال ، وكان قصره يتسع بالاضافة الى الملك وأهله مئات النبلاء وعدد كبير من الخدم والجنود ، وأُحيط القصر بحدائق واسعة والبرك الإصطناعية وانواع التماثيل ، كما كانت تحيط به

الغابات يصطاد فيها الملك إذا ما أراد ، وانجذب إليه النبلاء من جميع انحاء فرنسا وكانوا يعيشون فيه عيشة بذخ وترف دون ان يقوموا بعمل مهم ، وأصبح النبلاء الإقطاعيين في القصر بمثابة أدوات الزينة وإنما أدوات زينة تكلف نفقات باهضة .

إعتمد لويس الرابع عشر في تنفيذ سياسته الدخلية على وزيره الشهير جان باتست كولبير ، الذي كان إبناً لتاجر عينه مازران في الحكومة وأخذ يترقى من منصب لآخر فأصبح بعد موت مازران الوزير الرئيسي للويس الرابع عشر ، أصلح كولبير مالية الدولة ، وفرض ضرائب غير مباشرة بشكل يضمن توزيعها على جميع طبقات الشعب ، وخفف من الضرائب المباشرة على الأرض ليخفف العبىء المالي على الفلاحين ، وشجع كولبير تربية الحيوانات الداجنة وأصلح الطرق ووسائل المواصلات المختلفة ، وأشار كولبير على الملك بضرورة تنمية موارد فرنسا الإقتصادية لأن القوة البحرية تعتمد على ذلك وإن الشعب الفقير لايستطيع ان يقدم الى الحكومة الأموال اللازمة عن طريق الضرائب وعليه فإن من واجب الحكومة إنعاش الحركة الإقتصادية في البلاد وبكل الوسائل الممكنة وقد وافق الملك على ذلك .

ومن محاور سياسة لويس الرابع عشر الداخلية هو الإضطهاد الديني الذي قام به ضد الهيجونوت وكان من جملة مساوىء حكمه المستبد ، فكان الهيجونوت أقلية لكنها أقلية ذو نفوذ كبير ، واصبحت هذه الأقلية تتمتع بالحرية الدينية وبعض الإمتيازات الاخرى منذ زمن أول ملوك البوربون ، وذلك بموجب مرسوم نانت الذي منحهم إياه هنري الرابع . وبعد سنتين من وفاة كولبير طلب لويس الرابع عشر منهم ان يتحولوا الى كاثوليك ولما رفضوا ذلك ألغى مرسوم نانت عام ١٦٨٥ ، ومارس الاضطهاد الديني بحقهم فهاجر مالايقل عن ٣٠٠ ألف شخص منهم الى امريكا الشمالية وانكلترا وهولندا وألمانيا وإنضم عدد كبير منهم الى جيوش أعداء لويس الرابع عشر خلال الحروب التي خاضها ، واضطرب الإقتصاد الفرنسي بعد ذلك لأنهم كانوا طبقة منتجة معظم أفرادها الحرفيين وأصحاب المهن الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، ولم تكن علاقة لويس مع البابا أفضل من علاقته مع الهيجونوت ، ونشب نزاع شديد بين الطرفين حول حق لويس في جمع الضرائب من رجال الدين عند تعيين أي موظف ديني في منصبه الكنسي ، وادعى البابا أن ذلك من حقه وليس

من حق الملك ، واعتبر لويس هذا الأمر تدخلا من البابا في شؤون الدولة الفرنسية وكنيستها وتجدد النزاع بين الكنيسة الكاثوليكية وملك فرنسا ، وأراد لويس تأسيس كنيسة فرنسية على غرار الكنيسة الإنكليزية ، وإستمر النزاع الشديد بين البابا ولويس عشرة سنوات ، لكن الحروب الكثيرة التي إنغمس فيها لويس الرابع عشر إضطرته أن يتصالح مع البابا ، وحصل على موافقة البابا في ممارسة حق الملك بجمع الضرائب المفروضة على رجال الدين عند تعيينهم .

وفي المجال العسكري إعتمد لويس بقيادة جيشه على مجموعة من القادة الكفوئين أبرزهم لفوا الذي كانت له قدرة عسكرية فائقة ، توازي مقدرة كولبير في الأمور المالية ، وقد استطاع لفوا تطوير الجيش الفرنسي من حيث التدريب والتجهيز بجيث أصبح الجيش في عهد لويس الرابع عشر أقوى جيوش القارة الأوربية ، كما إعتمد لويس على عدد كبير من القادة والمهندسين وأبرزهم كونديه وتورين ، اللذان إشتهرا في حرب الثلاثين عام ، والمهندس فوبان الذي برز في شؤون الحرب الدفاعية وبناء التحصينات العسكرية . وبلغ تعداد الجيش الفرنسي الدائم بين ٤٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وكان في وقته أكبر جيش دائمي . إلا أن سياسة التوسع الخارجي والحروب المتواصلة التي خاضها لويس ادت الى استنزاف جميع ما إدخره كولبير للدولة من اموال .

سياسته الخارجية

إستخدم لويس الرابع عشر الاموال والجيوش في سبيل تنفيذ سياسته الخارجية التي تتضمن ثلاثة محاور :

١- الوصول الى الحدود الطبيعية : أراد لويس أن يوسع رقعة فرنسا حتى تصل الى الحدود الطبيعية في جميع أطرافها ، فكانت تمتد مابين جبال الألب والبرانس ومابين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ونهر الراين ، وأراد لويس توسيع رقعة أراضي فرنسا الى ضفاف نهر الراين ، وهذا يعني ضم جزء كبير من الأراضي الألمانية والهولندية التي يخترقها ذلك النهر .

٢- تقوية سمعة ونفوذ آل بوربون : كان لويس بإعتباره رئيساً لعائلة بوربون يسعى على الدوام في توسيع نفوذ أفراد تلك العائلة وزيادة ثرواتهم والحصول على عروش أجنبية لبعض من اولاده واحفاده .

٣- إضعاف سمعة ونفوذ آل هبسبرك : أصبحت سياسة فرنسا الخارجية التقليدية منذ زمن فرنسوا الاول تستهدف إضعاف أسرة آل هبسبرك الأقوياء سواء في اسبانيا وفي النمسا . ولأجل تنفيذ هذه السياسة شن لويس الرابع عشر سلسلة حروب في أوربا مابين ١٦٦٧-١٧١٣ .

حروب لويس الرابع عشر

أولاً : حرب الإنتقال أو حرب الوراثة في الأراضي المنخفضة ١٦٦٧-١٦٦٨

عندما توفي فيليب الرابع (١٦٢١-١٦٦٥) ملك اسبانيا من آل هبسبرك وتولي ابنه شارل الثاني (١٦٦٥-١٧٠٠) العرش ، إدعى لويس بأن زوجته ماريا تريزا إبنة فيليب الرابع يجب أن ترث الأراضي المنخفضة الإسبانية (بلجيكا) ، وكان يريد بذلك ضم هذه المنطقة الى فرنسا ، فلما رفضت اسبانيا ذلك نشبت الحرب بين الطرفين وانتصر فيها الجيش الفرنسي على الاسبان ، وسميت بحرب الإنتقال لأن لويس أراد نقل ممتلكات آل هبسبرك في بلجيكا الى فرنسا ، وقد استطاع لويس أن يضمن حياد السويد وهولندا والأراضي الألمانية البروتستانتية ، وهدد الامبراطور النمساوي بالحرب الأهلية إذا تدخل للدفاع عن اسبانيا ، وكانت انكلترا في حرب تجارية مع هولندا في هذه الفترة ١٦٦٥-١٦٦٧ في أمريكا وفي مناطق أخرى . لكن الدول الأوربية خشيت من التوسع الفرنسي وأخذت هولندا تسوي خلافاتها مع أنكلترا وتكون حلفاً ثلاثياً من أنكلترا وهولندا والسويد للوقوف بوجه لويس الرابع عشر واسترجاع التوازن الدولي ، فأضطر لويس أن يطلب الصلح ، فإجتمعت الدول وعقدت معاهدة اكس لاشابل عام ١٦٦٨ التي بموجبها حصلت فرنسا على القسم الجنوبي من بلجيكا ومجموعة من المدن الحصينة التي هي ليل ، وتورنيه وشالروا ، اما الجزء الأكبر من بلجيكا فبقيت تحت سيطرة اسبانيا .

ثانياً : الحرب ضد هولندا ١٦٧٢-١٦٧٨

أمر لويس جيشه بالهجوم على هولندا لأنها وقفت ضده في حربه مع اسبانيا وألبت الدول الأوربية عليه ، كما انه كان يريد الحصول على بعض الأراضي الهولندية كي تصل فرنسا الى نهر الراين ، واعتقد لويس ووزيره كولبير أن الطبقة التجارية الفرنسية ستستفيد كثيراً بالقضاء على الإحتكار التجاري الهولندي ، ولم تكن هولندا من جهتها ترغب في وجود دولة فرنسية قوية جدا بجوارها خاصة بعد ظهور منافسة تجارية عنيفة بين الطرفين في الوقت الذي كان كولبير يقوم بمشاريعه العظيمة في فرنسا ويريد القضاء على الاحتكار الهولندي التجاري . حاول لويس الرابع عشر عزل هولندا عن طريق القضاء على التحالف الثلاثي فدبر معاهدة دوفر السرية مع انكلترا سنة ١٦٧٠ التي بموجبها يدفع لويس الرابع عشر الى ملك انكلترا شارل الثاني (١٦٦٠-١٦٨٥) منحاً مالية سنوية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ باون استرليني كي لايعتمد شارل على البرلمان في الحصول على المال ، وتعهد شارل بإعتناقه الكاثوليكية وفرضها على الشعب الانكليزي وإنسحابه من التحالف الثلاثي ووقوفه على الحياد ، كما إستطاع لويس أن يحصل على حياد السويد بتقديمه منحاً سخية لملكها ، وبقيت هولندا لوحدها تواجه فرنسا .

في هذا الوقت بالذات أعلن لويس الحرب على هولندا عام ١٦٧٢ ، واستولى جيشه على مقاطعة اللورين بحجة أن أميرها يساعد الهولنديين وتوجه نحو أمستردام ، فقام الهولنديون بفتح السدود وإغراق الأراضي وعرقلت الفيضانات تقدم الفرنسيين ، وتوجه الهولنديون الى إمبراطور النمسا لطلب المساعدة فشكلوا حلفاً جديداً من هولندا والنمسا وإمارة براندمبرغ (بروسيا) وإنضمت اسبانيا والامارت الالمانية فيما بعد ، وفي تلك الأثناء ضغط البرلمان الإنكليزي على شارل الثاني واجبره النبلاء الانكليز على نقض تحالفه مع لويس ودخول الحرب الى جانب هولندا لأنها أقل خطراً عليهم من فرنسا حسب اعتقادهم . فأضطر لويس ان ينهي الحرب بعقد صلح نيمويكن عام ١٦٧٨ ، إعترف بموجبه بإستقلال هولندا لكنه حصل على مقاطعة برغندي من اسبانيا وبعض الحصون من بلجيكا ، وفي نفس الوقت أجبر أمير براندمبرغ (بروسيا) أن يتنازل عن جميع ما استولى عليه في بوميرانيا الى السويد . كلفت الحرب اموالاً كبيرة وبدأت الأزمة الأقتصادية في فرنسا تلوح في الأفق

نتيجة الحروب المتكررة ، كما خسرت فرنسا أشهر قادتها العسكريين إذ قتل تورين في نهاية الحرب وتقاعد كونديه بسبب اعتلال صحته .

ثالثاً : حرب عصبة اوغسبرغ ١٦٨٩-١٦٩٧ أو حرب الملك وليم

تشكل مجمع الإسترجاع بأمر من لويس الرابع عشر حينما امر أتباعه بالبحث في السجلات اللإقطاعية عن إثباتات لما يمكن أن يكون تابعاً إقطاعياً لملك فرنسا في أراضي الدول المجاورة لرد أملاك فرنسا إليها ، وقد تألف المجمع من القضاة الموالين للملك ، وبناءً على نتائج بحوث هذا المجمع إدعى لويس الرابع عشر أن مدينة ستراسبورغ الحرة في مقاطعة الألزاس في الإمبراطورية الرومانية المقدسة هي مدينة فرنسية فاحتلها القوات الفرنسية عام ١٦٨١ ، كما احتل لوكسمبرغ وعدداً من المدن الألمانية الأخرى منتهزاً فرصة هجوم العثمانيين على النمسا وحصارهم لفينا الذي فكه الجيش البولندي عام ١٦٨٣ ، وشكل الإمبراطور النمساوي ليوبولد الأول (١٦٥٨-١٧٠٥) حلفاً ضد فرنسا مكون من اسبانيا والسويد وبعض الامارت الالمانية مثل سكسونيا وبافاريا والبلاتينات على الراين وسافوي في شمال ايطاليا عام ١٦٨٨ عرف بحلف عصبة أوغسبورغ .

احتل لويس مقاطعة البلاتينات مدعياً احقيته بها في الوقت الذي إندلعت فيه الثورة الجليلة في انكلترا عام ١٦٨٨ ، وخلع البرلمان الانكليزي الملك جيمس الثاني فلجأ الأخير الى فرنسا ، وأستدعى البرلمان الانكليزي وليم اورانج حاكم هولندا ليكون ملكاً على انكلترا بإسم وليم الثالث لكونه زوجاً لإبنة جيمس الثاني ، وكان ملك انكلترا الجديد من ألد أعداء لويس الرابع عشر ، فدخلت هولندا وانكلترا معاً تحت حكم وليم في الحرب لموازنة قوى فرنسا ، واطلق على هذه الحرب اسم حرب الملك وليم ، دخل لويس الحرب ضد أعداءه دون حليف ، واستمرت الحرب ثمان سنوات وأصبحت ذات صفة عالمية لإشتباك قوات هذه الدول في البحار وفي أمريكا بالإضافة الى أوربا ، وكان لويس قد وعد جيمس الثاني بمساعدته لإستعادة عرشه في انكلترا ، فنزل جيمس الثاني على رأس قوات في ايرلندا وبدعم من القوات الفرنسية عام ١٦٩٠ ، لكنه تعرض لهزيمة على يد قوات وليم الثالث في معركة بوين هرب على أثرها جيمس الثاني مرة أخرى الى فرنسا .

وشهد عام ١٦٩٢ معركة بحرية بين الإسطولين الفرنسي من جهة والانكليزي والهولندي من جهة اخرى ، وانتصر الاسطول الفرنسي في اليوم الأول انتصاراً رائعاً ، كما سجلت القوات الفرنسية انتصارات في عامي ١٦٩٢ و ١٦٩٣ على الهولنديين ، إلا أن أعداء لويس استمروا بقتاله دون توقف فأصاب الجميع الملل وعم الخراب في كل مكان ، وتدهورت التجارة بسبب عمليات القرصنة من كل الأطراف ، وانتهت الحرب بعقد صلح ريزويك عام ١٦٩٧ وأظهر لويس اعتدالا مع خصومه ، فقد تنازل عند إدعاءه بمقاطعة البلاتينات على الراين ، وأعاد مقاطعة اللورين الى أميرها ، وسمح للهولنديين ببناء قلاع حصينة على حدودهم مع فرنسا وعقد معها معاهدة تجارية ، وأعترف بوليم الثالث ملكاً على انكلترا لكنه احتفظ بمدينة ستراسبورغ في مقاطعة الألزاس . وهكذا توسعت فرنسا قليلا نحو الراين لكنها لم تصل الى ضفافه على الرغم من حصولها على الألزاس وبرغنديا ، لكن الخزينة الفرنسية أصبحت خاوية . وأستمر صلح ريزويك قائماً لعدة سنوات ، وحتى ثارت مسألة الوراثة الإسبانية بعد وفاة شارل الثاني عام ١٧٠٠ .

رابعاً : حرب الوراثة الإسبانية ١٧٠١-١٧١٣

كان السبب الأساسي في إعتدال موقف لويس في معاهدة ريزويك هو إنه كان بحاجة الى السلم ، من اجل إعادة بناء قواته المسلحة وتنظيم ماليته ، وكان يرغب كذلك في تفكيك عصبة اوغسبورغ ، وإبعاد انكلترا وهولندا عنها ، ولم تكد تمضي مدة قليلة على معاهدة ريزويك حتى وجد لويس الفرصة السانحة لإضعاف آل هبسبرك وجعل نهر الراين حدوداً لفرنسا ، وكان شارل الثاني ملك اسبانيا رجلاً مريضاً ولم يرزق بوريث للعرش من بعده ، وتنافس على وراثته كل من لويس الرابع عشر والامبراطور النمساوي ليوبولد ، اما لويس فلأن زوجته ماريا تريزا أخت شارل الثاني ، في حين طالب ليوبولد بالعرش الاسباني لأن ملك اسبانيا هو إبن إبنته وإنه أحق بعرشه بإعتبار العائلة المالكة الإسبانية هي أحد فروع آل هبسبرك . ولم تكن الدول الأوربية وعلى رأسها انكلترا لتوافق على انتقال العرش الاسباني ومستعمرات اسبانيا الى الإمبراطورية النمساوية ، ولا إتحاد العرش الإسباني مع العرش الفرنسي بل أرادت المحافظة على التوازن الدولي ، لذلك وافقت الدول الأوربية في معاهدة

لاهاي عام ١٦٩٨ على أن يتولى أمير بافاريا العرش الإسباني ، لكن وفاة أمير بافاريا قبل شارل الثاني عقد الموقف .

توفي شارل الثاني دون أن تصل القوى الاوربية المؤثرة آنذاك الى أي اتفاق ، وأوصى بأنتقال عرشه الى فيليب حفيد لويس الرابع عشر والذي أطلق على نفسه اسم فيليب الخامس ، معتقداً أن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع المحافظة على الإمبراطورية الاسبانية ، لكنه اشترط أن لايتحد التاج الفرنسي مع التاج الإسباني ، وبعد تردد وافق لويس على تنفيذ الوصية واستعد للحرب ضد خصومه ، وفي الوقت نفسه كون وليم الثالث ملك انكلترا وامبراطور النمسا ليوبولد حلفاً لمنع تنفيذ هذه الوصية ، وإنضمت الى الحلف كل من هولندا واميرا براندمبرغ (بروسيا) وهانوفر والبلاتينات ، كما نجحت انكلترا بإقناع البرتغال للإنضمام الى الحلف ، وإنضم أمير سافوي أيضاً الى الحلف على أن يعترف بدوقيته كمملكة بعد الحرب . إستمرت حرب الوراثة الاسبانية من ١٧٠٢ الى ١٧١٣ ، وكانت أطول وأفضع الحروب التي نشبت في عهد لويس الرابع عشر وأصعبها ، إذ كان على فرنسا أن تدافع فيها على حدودها ، وكذلك على الإمبراطورية الإسبانية الواسعة ، وكانت ميادينها في اسبانيا وايطاليا والمانيا والاراضي المنخفضة وفي شرق فرنسا وشمالها في نفس الوقت .

كان النصر في بداية الحرب حليف الفرنسيين ، لكن سرعان ما حقق الحلفاء إنتصارات فائقة ، وتراجعت القوات الفرنسية على مختلف الجبهات فضغط الأنكليز والهولنديين من الشمال ، وأخرجت القوات النمساوية الفرنسيين من ايطاليا ، وفي عام ١٧٠٤ احتلت القوات الانكليزية مضيق جبل طارق ، وتوالت الإندحارات على الجيش الفرنسي وكاد الحلفاء المتقدمين في الأراضي الفرنسية يدخلون باريس لولا حدوث إنشقاق في صفوف الحلفاء ، وتزايدت في الوقت نفسه معاناة الفرنسيين على مختلف الجبهات ، فأتفق الجميع على الصلح ونتيجة لذلك وقعت معاهدة اتراخت عام ١٧١٣ ونصت على :

١- الاعتراف بفيليب الخامس (١٧٠٠-١٧٤٦) حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا ومستعمراتها على أن يتنازل عن حقوقه في العرش الفرنسي .

٢- حصل آل هبسبرك النمساويين على نابولي وميلانو وبلجيكا التي اصبحت تسمى بالأراضي المنخفضة النمساوية واستمرت هذه التسمية حتى عام ١٧٩٧ .

٣- تنازلت فرنسا لانكلترا خليج هدسن المؤدي الى المستعمرات الفرنسية في كندا ، كما حصلت انكلترا على جبل طارق وجزيرة مينورقه من اسبانيا ، ووعدت فرنسا بأن لاتساعد آل ستيوارت لإستعادة العرش الإنكليزي .

٤- إستعاد الهولنديون سيطرتهم على الحصون الواقعة على الحدود الفرنسية – البلجيكية ، ووعدت النمسا بتقديم المساعدات المالية إليها لحراستها .

٥- أصبح ناخب براندمبرغ من آل هوهنزلرن ملكاً على مملكة بروسيا وعاصمتها برلين ، وأصبحت من القوى الكبرى في أوربا التي سيقدر لها في القرن التاسع عشر توحيد ألمانيا .

٦- أصبحت دوقية سافوي مملكة وحصلت على جزيرة صقلية ، وأستبدلت صقلية بسردينيا فيما بعد فاصبحت تسمى مملكة سردينيا-بيدمونت ، والتي كانت نواة للوحدة الايطالية في القرن التاسع عشر ايضاً .

توفي لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ بعد ان حكم ٧٢ عاماً ، اطول مدة حكم في التاريخ ، عانى فيها الشعب الفرنسي من ويلات الحروب ، وترك دولة قوية من بعدة لكنها كانت مثقلة بالأزمات الإقتصادية التي لم يستطع خلفاؤه إيجاد الحلول لها فادى ذلك الى اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

انكلترا في عهد آل ستيوارت ١٦٠٣-١٧١٤ الثورة الجليلة ١٦٨٨

كانت انكلترا في عهد آل تيودور (١٤٨٥-١٦٠٣) تحكم بصورة مطلقة عملياً رغم أنها كانت من الناحية النظرية مقيدة ببرلمان ودستور غير مكتوب ، وقد سيطر ملوك آل تيودور على البرلمان وكانت لهم سلطة في النواحي السياسية والدينية والأقتصادية ولم تظهر مقاومة خطرة لحكمهم المطلق ، غير أن الفترة التي شهدت وفاة اليزابيث آخر ملوك آل تيودور ومجيء قريبها ملك اسكتلندة كأول ملوك من آل ستيوارت الى العرش بأسم جيمس الاول عام ١٦٠٣ يمثل البداية الحقيقية للصراع بين النزعة المطلقة والإتجاه البرلماني ، وكان الشعب الانكليزي مدركاً أن الحاجة لحكم مركزي شبيه بحكم آل تيودور قد إنتهت لاسيما وان الملكة اليزابيث قد قضت وأسلافها من قبلها على نفوذ وسطوة النبلاء الانكليز ، فلايوجد خصوم ينافسون الملك على عرشه ، وأصبحت البروتستانتية الانكليزية الكنيسة

المقبولة لدى الشعب الأنكليزي ، واستقرت القضايا الدينية ، كما أن حرب الارمادا وانتصار الانكليز على اسبانيا ، أقوى دولة أوربية في ذلك الوقت ، أنهى المخاوف من غزو أجنبي .

تركت اليزابيث انكلترا آمنة ومزدهره ومرفهه ، ومنذ أواخر عهدها بدأ البرلمان بالتحرك نحو ضبط الملكية وتقييدها ، لكن خدمات الملكة اليزابيث لانكلترا ، والمرونة السياسية التي طبقتها مع البرلمان ورجال السياسة والشعب الانكليزي جعلتها تعيش في قلوب الناس ، ولم يكن البرلمان يريد أن يضايقها في أواخر حياتها بدافع الوفاء والإخلاص ، فلما توفيت الملكة تحرر البرلمان من رابطة الولاء لإرادة الملك ، وبدأ الصراع المحتدم بين ملوك ال ستيوارت والبرلمان الانكليزي وتدهورت العلاقة بينهما الى الدرجة التي حل فيها شارل الأول البرلمان لمدة احد عشر سنة ، وهكذا تميز القرن السابع عشر بظهور ملامح الحكم المطلق في انكلترا .

جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥)

تولى العرش الانكليزي بعد وفاة الملكة اليزابيث آخر ملوك آل تيودور والتي لم يكن لها وريث من أسرتها ، فأوصت بإنتقال العرش الى جيمس السادس ملك اسكتلندة وإبن قريبتها ماري ستيوارت ، وبعد تسلمه العرش الانكليزي اطلق على نفسه اسم جيمس الأول ، وأصبح تاج مملكتي انكلترا واسكتلندة على رأس ملك واحد وإن كانت كل دولة منهما قد إحتفظت بكيانها وشخصيتها ، كان عمر جيمس الأول ٣٦ عاماً حين تسلم الحكم في انكلترا ولم يكن يعرف شيئاً عنها وعن طبيعة الشعب الانكليزي وتقاليده البرلمانية في الحد من سلطة الملوك ، أبقى جيمس على بعض مستشاري الملكة اليزابيث ليساعدوه في الحكم وأبرزهم مستشاره الرئيسي روبرت سيسل ، وأصبح فرنسيس بيكن مستشاره الثاني ، وظل معظم رجالات عهد اليزابيث في وظائفهم باستثناء بعض العسكريين ، لكن بعد وفاة سيسل لم يكن هناك من يستطيع أن يدبر الامور لجيمس ويحل له مشاكله .

أدى ظهور طائفة المتطهرين (البيورتان) في انكلترا في اواخر عهد الملكة اليزابيث الى تفاقم المشاكل الداخلية أمام جيمس الأول ، وكان الاخير رغم إصول عائلته الكاثوليكية متعصباً للكنيسة الانجليكانية الانكليزية المعتدلة ، وتعد طائفة البيورتان من الطوائف البروتستانتية المتشددة ، ومعظمهم من المثقفين وأصحاب المال من اهل المدن وكلهم من

الطبقة الوسطى ، ونادى البيورتان بترك كل ماله علاقة بالكاثوليكية والبابوية والتأكيد على الأنجيل والتمسك بروحيته وترك الملاهي والرقص والترفيه ، تذمر البيورتان من تسامح الملك مع الكاثوليك وتشدده معهم ، بالرغم من إنه اضطهد كلا الطائفتين ، فتآمروا جميعاً عليه عدة مرات كان آخرها مؤامرة البارود عام ١٦٠٥ ، عندما أرادوا تفجير القاعة التي كان يجتمع فيها مع البرلمان ، فعوقب المتآمرون بعد إكتشاف مؤامرتهم ، واضطهد جيمس الاول بعد ذلك البيورتان وهددهم بطردهم من انكلترا ، وهاجر الكثير منهم في عهده الى أمريكا الشمالية ليستقروا في مستعمرات انكلترا هناك .

آمن جيمس الأول بنظرية الحق الإلهي في الحكم والتي كانت تنسجم مع روح العصر في اوربا ، فقد طبقتها فرنسا واسبانيا والنمسا ، وجعل ملك انكلترا نفسه مسؤولاً أمام الله فقط ، وليس أمام البرلمان والشعب ، وإن البرلمان والأجهزة الحكومية الأخرى ينبغي أن تستمد سلطتها من الملك وما على الرعية إلا الطاعة ، أما التمرد عليه فإنه كفر صريح ، لأنه كان يرى نفسه فوق القانون والأمة والبرلمان ، ونشر كتاباً ضمن فيه أفكاره في الحكم الملكي المطلق الصلاحيات . تحمل البرلمان في أول الأمر الملك جيمس الاول ، لكن تمسكه بإراءه أدى الى سخط البرلمان عليه ، ومن الامور التي زادت سخط البرلمان على الملك تدخله في الانتخابات البرلمانية ومحاولته مساعدة المقربين منه للجلوس في البرلمان ، وشكل هيئة عليا عام ١٦٠٤ لتصفية غير المرغوب فيهم من الفائزين بالانتخابات ، وقرر الملك أن نتائج الانتخابات يجب أن تعرض على تلك الهيئة ، وإزداد قلق البرلمان الانكليزي واعلن أن الملك يريد أن يقضي على حرية الانتخابات ، ودافع البرلمان عن حقوقه وصلاحياته ، وعنئذ إعتذر جيمس الاول وأعترف بحقوق وصلاحيات البرلمان ، وهكذا نجد ان الملك أثار القضايا الدستورية التي أعتاد عليها الشعب الأنكليزي منذ أمد بعيد ووافق عليها الملوك السابقين ، وهذا يؤكد ماذكرناه سابقاً حول جهله بالتقاليد البرلمانية الانكليزية وطبيعة الشعب الانكليزي .

إنعقدت خمس جلسات للبرلمان الانكليزي خلال المدة (١٦٠٤-١٦١١) نوقشت فيها قضايا صلاحيات الملك وحقوق وامتيازات البرلمان بالاضافة الى القضايا المالية ، وأكد البرلمانيون الانكليز خلال الجلسات أن الملك مثله مثل أي مواطن آخر يسري عليه القانون

وليس له أن يفرض الضرائب من دون موافقة البرلمان ، ورد جيمس الأول على البرلمان الانكليزي بقوله : **" إنه ليس من شأنكم التحدث في المسائل السياسية التي هي مهنة الملوك وليست مهنتكم ، وفوق قابلياتكم "** ، وبعد مجادلات طويلة قرر الملك حل البرلمان عام ١٦١١ ، لأن الموارد المالية أقل مما يحتاجه جيمس الأول ، ولم يستطع أن يعيش ضمن ما حدده له البرلمان من أموال ، كما أنه لم يستطع أن يقتصد في النفقات ، فأضطر أن يدعوا البرلمان من جديد الى الأجتماع عام ١٦١٤ ، فلما إجتمع المجلس كانت المناقشات عنيفة جداً مما يدل على أن الأعضاء قرروا مقاومة الملك ، فرفض البرلمان مرة أخرى منحه المال اللازم مما أغضب الملك فأمر بحل البرلمان في حزيران عام ١٦١٤ وسجن عدداً من النواب الذين عارضوه في برج لندن ، وبقي يحكم البلاد حتى عام ١٦٢١ بدون دعوة البرلمان للإنعقاد ، ولجأ الملك المسرف الى فرض الضرائب ومنح الإحتكارات وبيع المناصب والوظائف الكبيرة مما أثار البرلمان وقرر أن يضع حد لصلاحيات ملوك آل ستيوارت .

السياسة الخارجية للملك جيمس الاول

إبتدأ جيمس الاول عهده بعقد صلح مع اسبانيا عام ١٦٠٤ منهياً العداء بين الدولتين ، وقيد الصلح مع اسبانيا التجار الانكليز الذين كانوا يتاجرون بحرية اكثر مع المستعمرات الاسبانية خلال فترة الحرب بين الطرفين ، مما أدى الى استياءً عاماً لدى الانكليز الذين كانوا يعدون اسبانيا العدو الأول لبلادهم ، ومن سلبيات سياسة جيمس الأول الخارجية الاخرى أنه لم يقدم الدعم اللازم لزوج إبنته الأمير فردريك أمير البلاتينات الذي كان قائداً للبروتستانت خلال الدور البوهيمي في حرب الثلاثين عام (١٦١٨-١٦٢٠) ، وتصاعد الغضب الشعبي لدى الانكليز عندما أُشيع عن رغبة جيمس الاول تزويج إبنه وولي عهده شارل من إبنة فيليب الثالث ملك اسبانيا .

طالب البرلمان الانكليزي الملك جيمس الثاني بإعلان الحرب على اسبانيا التي دخلت حرب الثلاثين عام واحتلت البلاتينات وطردت فردريك من إمارته ، فدعا جيمس البرلمان للإنعقاد عام ١٦٢١ ، لكي يوافق على الدخول في الحرب لمساعدة البروتستانت وتزويد الملك بالمال اللازم لهذه الغاية ، وخضع البرلمان لاوامر الملك وتناسى سخطه تجاه اعمال

الملك السابقة عندما حل البرلمان وحكم بشكل غير دستوري في المدة (١٦١١-١٦٢١) ، على أمل أن يدخل الملك في الحرب لمساعدة البروتستانت ، وكانت الفرصة سانحة امام الملك ليسوي خلافاته مع البرلمان ، إلا ان الملك استمر بسياسته الغامضة ، وطلب المال من البرلمان دون أن يبين السبب ، فمنحه البرلمان مبلغاً جزئياً عسى ان يتشجع الملك ويعلن الحرب على جيوش العصبة الكاثوليكية ، لكن جيمس الاول تريث في اتخاذ قرار نهائي في هذا الموضوع معتقداً أن ذلك من صلاحياته وليس من صلاحيات البرلمان . إستاء البرلمان الانكليزي من تصرفات جيمس الاول ، وقام البرلمان بطرد مستشار الملك فرنسيس بيكن الذي كان يؤيد الملك في كل أعماله ، وطرد البرلمان أشخاص آخرين إتهمهم بإبتزاز الاموال من الشعب ، وكان ذلك إنذاراً لكل من ينصح الملك ضد البرلمان ، تراجع جيمس الاول عن موقفه من البرلمان قليلاً وألغى بنفسه ثمانية من الاحتكارات التي منحها لمقربين منه .

نجح السفير الإسباني في لندن كوندمار في خداع جيمس الثاني ، فبين له أن اسبانيا سوف تنسحب من البلاتينات وبذلك أجّل إرسال حملة انكليزية ضد اسبانيا ، كما تزامن ذلك مع محاولة زواج شارل الفاشلة من ابنة ملك اسبانيا عام ١٦٢٣ ، ولم يكتب لذلك الزواج النجاح لأن ملك اسبانيا اشترط أن يعتنق شارل الكاثوليكية قبل إتمام الزواج ، فحرض شارل أبوه جيمس الاول على دعوة البرلمان وإعلان الحرب على اسبانيا ، فإجتمع البرلمان عام ١٦٢٤ ، وكان ملك انكلترا يريد حرباً محدودة ضد اسبانيا في البلاتينات بينما كان البرلمان يريد حرباً برية وبحرية شاملة على غرار معركة الإرمادا لإذلال اسبانيا ، وحاول سفير اسبانيا جهد الإمكان منع الحرب ضد بلاده ، ففكر جيمس بالتحالف مع فرنسا كي ترسل جيشاً الى البلاتينات ضد اسبانيا ، وأن يتزوج شارل من الأميرة هنريتا ماريا أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ، ولم تعط فرنسا وعداً قاطعاً بارسال جيشاً الى البلاتينات ضد اسبانيا ، وأقنع الفرنسيون جيمس بأنهم سيدخلون الحرب إذا ما عاملت انكلترا الكاثوليك معاملة حسنة ، وأنجز جيمس ماوعد به واطلق سراح الكاثوليك من السجون الفرنسية لكن فرنسا لم تعلن الحرب على اسبانيا ، وبهذه السياسة إختتم جيمس الاول عهده إذ توفي عام ١٦٢٥ .

شارل الاول (١٦٢٥-١٦٤٩)

كان شارل عكس أبيه وسيماً عليه سيماء الملك والرجولة ، محبوباً لدى الشعب الانكليزي ، لكنه عاش في خلاف دائم مع البرلمان الأنكليزي بسبب آراءه في الحكم المطلق وتمسكه بنظرية الحق الإلهي في الحكم ، تولى شارل الأول الحكم وله من العمر ٢٥ عاماً ، وتزوج من هنريتا ماريا إبنة هنري الرابع واخت ملك فرنسا لويس الثالث عشر ، وهو الزواج الذي لم يحظ بالشعبية لأن هنريتا كاثوليكية ، إضطر شارل الأول أن يدعوا البرلمان للإنعقاد عام ١٦٢٥ لحاجته الى المال بسبب إرسال الجيش الانكليزي الى البلاتينات ، وخلال الجلسة بين أعضاء البرلمان الانكليزي أن سبب دخول انكلترا الحرب هو فشل زواج الملك من إبنة ملك اسبانيا لاغير ، كما تطرق البرلمان الانكليزي الى زوجة الملك الكاثوليكية والاتفاق السري بين جيمس الاول وبين فرنسا حينها بشان سياسة التسامح مع الكاثوليك ، في حين كان البرلمان يؤيد سياسة القضاء على الكثلكة ، وحاول وزير الملك الاول دوق بكينكهام ان يدافع عن سياسة الملك والمطالبة بأموال إضافية لتغطية نفقات الحرب ، لكن البرلمان الذي طالب بشن حرب بحرية على الاسطول الاسباني شبيهه بالارمادا يكون فيها النصر سريعاً ومضموناً وأقل كلفة ، إتهم دوق بكينكهام بأنه وراء إرسال الجيش الانكليزي الى البلاتينات لخوض حرب مكلفة وخاسرة ، واضطر شارل الأول الى حل البرلمان لكي لايطيح بوزيره .

اكتشف البرلمان الانكليزي ان من ضمن بنود الإتفاق السري بين انكلترا وبين فرنسا أثناء زواج شارل الأول إرسال ثمان سفن حربية الى فرنسا لغرض شن الحرب ضد اسبانيا ، وتبين فيما بعد أن ريشيليو استخدم تلك السفن لحصار البروتستانت في لاروشيل ، مما ولد إستياءً كبيرا في انكلترا ، وحاول دوق بكينكهام القيام بحملة بحرية للهجوم على ميناء قادس الاسباني والاستيلاء على بعض السفن لكن حملته بائت بالفشل فعاد الى انكلترا وأضطر بكينكهام بسبب قلة الأموال الى إجبار المواطنين على إيواء الجنود والبحارة في بيوتهم لتأمين أكلهم ونومهم ، كما تعرض الجيش الانكليزي في ألمانيا الى هزائم متكررة بسبب نقص التجهيز والتمويل ، فأضطر شارل الى استدعاء البرلمان للإنعقاد عام ١٦٢٦ ، ولم يوافق البرلمان على منح الملك المال الكافي لإكمال متطلبات الحرب بل إزدادت العلاقات

توتراً بين الطرفين . أضطر شارل الاول الى جمع المال من الشعب الانكليزي دون الرجوع الى النواب ، ففرض قروضاً إجبارية على الصناع والتجار وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى ، وهدد كل من يمتنع عن ذلك بالسجن ، مما أثار الشعب الانكليزي ضد الملك .

إجتمع أعضاء البرلمان الانكليزي عام ١٦٢٨ وأعدوا وثيقة أطلقوا عليها إسم **ملتمس الحقوق** تضمنت مايلي :

١- أن لا تجبى القروض والضرائب والهبات والمنح دون موافقة البرلمان الانكليزي .

٢- أن لا يسجن أي مواطن إلا وفقا لقوانين البلاد .

٣- أن لا يجبر أبناء الشعب على إيواء الجنود والبحارة في منازلهم مهما كانت الأحوال .

رفض شارل الأول هذه الوثيقة في البداية لإنه إعتبرها تقييداً لسلطاته ، لكنه عاد فوافق عليها بسبب حاجته الماسة الى موافقة البرلمان على صرف الأموال ، لكن البرلمان طالب الملك بعزل دوق بيكنكهام الذي كان موضع سخط الشعب ، وسبب هزائم انكلترا في حروبها ضد اسبانيا فقام الملك بحل البرلمان وحكم انكلترا بدون برلمان في المدة (١٦٢٩-١٦٤٠) ، كما أمر بفرض الضرائب بكافة الوسائل ، ومن أشهر الضرائب التي فرضها الملك شارل الأول ضريبة السفن ، وحاول عن طريقها جمع المال اللازم من الشعب لتقوية الإسطول الانكليزي ، وإنشأ محاكم إستثنائية لمحاكمة كل من يخالف سياسته ، كما عين شارل الأول الأسقف لود رئيساً لأساقفة كانتربري وهو أرفع منصب ديني في انكلترا ، وكان لود أحد أنصار كنيسة روما ، وقد خفف لود القوانين الصارمة بحق الكاثوليك وشدد على البيورتان ، فهجر عدد كبير منهم الى المستعمرات الانكليزية في أمريكا الشمالية .

حاول شارل الأول تغيير تعاليم الكنيسة الاسكتلندية الكالفنية وتنظيمها بحسب تعاليم الكنيسة الانكليزية التي فيها بقايا من المذهب الكاثوليكي ، ونتيجة لذلك قامت ثورة في اسكتلندة ضد الملك ومستشاره الديني الأسقف لود ، ورفضوا قبول هذا التغيير ووضعوا ميثاقاً أسموه التحالف القومي ، وتعهدوا بالوقوف ضد أي محاولة لفرض أي مذهب ديني يخالف عقيدتهم ، أرسل الملك شارل الأول قواته لمحاربتهم عام ١٦٣٩ إلا أن تلك القوات فشلت في تحقيق أي إنتصار ، دعا الملك البرلمان الانكليزي للإنعقاد عام ١٦٤٠ لكي يحصل على مايلزم من أموال لقمع الثورة الاسكتلندية ، وقد وجد أعضاء البرلمان في ذلك

فرصة لمطالبة الملك برفع المظالم عن الشعب مما أغضب الملك وجعله يأمر بحل البرلمان مرة أخرى بعد مدة قصيرة من دعوته له لم تزد عن ثلاثة أسابيع ولذلك سمي بالبرلمان القصير .

البرلمان الطويل

حاول الملك شارل الاول مواجهة الاسكتلنديين الذين إحتلوا شمال انكلترا ، فأرسل إليهم حملته الثانية التي لم تكن بأحسن حالاً من الاولى ، فقد لاقت الهزائم حتى واجهت انكلترا خطر الغزو الاسكتلندي ـ مما جعل الملك يعترف بهزيمته ، ويسرع بإستدعاء البرلمان للإنعقاد للنظر في شكاوي الشعب ، وقد قدر لهذا البرلمان أن يعيش مدة طويلة بلغت قرابة ٢١ عاماً (١٦٤٠-١٦٦٠) حتى عرف في التاريخ بإسم البرلمان الطويل ، وقد نجح هذا البرلمان في أن يثبت قدرته على استقلال إرادته عن الملك ، مما كان له أكبر الأثر فيما طرأ على انكلترا من تحول سياسي ، وكان من أهم أعمال هذا البرلمان التصويت على توجيه تهمة الخيانة العظمى الى أكبر مستشاري الملك توماس وينتورث والمعروف بـ أيرل ستراتفورد حاكم ايرلندا التي أخضعها بالقوة للعرش الانكليزي ، وإجبار الملك على التوقيع على إعدامه ، كما ألقي القبض على الأسقف لود وأودع في السجن وبقى حتى أعدم عام ١٦٤٥ ، ومن أبزر إصلاحات البرلمان الطويل :

١- إلغاء جميع المحاكم الخاصة ولاسيما محكمة قاعة النجوم التي أسسها آل تيودور، وتقرر عدم تأسيس مايشبه هذه المحاكم في المستقبل .

٢- لايجوز حل البرلمان دون موافقة أعضاءه ، وتقرر أن يجتمع البرلمان في مدة لاتتجاوز ثلاث سنوات بعد حله .

٣- تم إلغاء ضريبة السفن ، ولايجوز فرض ضرائب وجمعها إلا بموافقة البرلمان .

٤- يعين القضاة على أساس حسن سمعتهم وتصرفهم لابحسب رغبات الملك .

٥- تأكيد البرلمان على البروتستانتية والمحافظة عليها مع إبعاد رجال الدين عن التدخل في الشؤون السياسية ومنعهم من عضوية مجلس اللوردات .

أضطر الملك للرضوخ حتى تحين له الفرصة المناسبة للتخلص من البرلمان ، وقد جاءته الفرصة لما إشتد الإختلاف في البرلمان الإنكليزي حول بعض القضايا الدينية ، إذ

كانت بعض الاصلاحات الدينية تميل الى البيورتان ، لأن أغلبية أعضاء البرلمان كانوا منهم ، الأمر الذي أثار أعضاء مجلس اللوردات (يتكون البرلمان الانكليزي من المجلس الاعلى أو مجلس اللوردات الموالين للملك ، والمجلس الأدنى أو مجلس العموم كممثلين عن عموم الشعب) وبين أعضاء مجلس اللوردات بأن مايقوم به مجلس العموم ليس إصلاحاً بل ثورة في جميع نواحي الحياة في البلاد ، كما شعر كثير من الناس أن البرلمان سلب حقوق الملك أكثر مما يجب في وقت لم يرغب مجلس اللوردات بترك مجلس العموم يتمتع بصلاحيات أكثر من الملك بل كان يريد المساواة بينهما .

الإحتجاج العظيم

شعرت الأغلبية في البرلمان ان الملك يدبر المؤامرات ضدهم فحرروا احتجاجا أطلقوا علية اسم الاحتجاج العظيم ١٦٤١ فضموا فيه مساوئ الملك شارل التي أفقدت الثقة بالملك وطالبوا الوزراء بتلقي الأوامر من البرلمان ممثل الشعب وكان تقديم هذه الوثيقة كمحاولة من البرلمان لكسب تأييد الرأي العام ضد الملك ، تضمنت ٢٠٠ مادة وبينت في المواد ١١٩ الأولى مساوىء الادارة وتفسخ الجهاز الحكومي والأجحاف بحق الشعب في العهد الملكي الجائر ، وتضمنت المواد الأخرى الإصلاحات التي قام بها البرلمان خلال هذه المدة ، وكان الغرض الأساسي من الإحتجاج العظيم إستمالة الشعب والرد على مزاعم الذين مالوا الى جانب الملك ، وأشاعوا بأن البرلمان أخذ يعتدي على حقوق الملك الاساسية ، على الرغم من أن الأخير وافق على كل الإصلاحات السابقة التي قام بها البرلمان لأنه وجد فيها فائدة للشعب ، ويعد الإحتجاج الأعظم من أهم الوثائق في تاريخ الدستور الانكليزي ، في حين وصف أنصار الملك في البرلمان الإحتجاج العظيم بأنه وثيقة يراد بها إتهام الملك بما لم يرتكبه .

صوت البرلمان الانكليزي بأغلبية ضئيلة على الوثيقة وقدمت الى الملك للمصادقة عليها لكن الملك رفض التصديق عليها ، وفي تلك الأثناء إندلعت ثورة في ايرلندا بعد إعدام ستراتفورد ، الذي أخضعها بيد من حديد ، وحقق الثوار انتصارات وقتلوا كثيرا من البروتستانت البيورتان ، فقرر البرلمان إرسال جيشاً لإخماد الثورة مع ترك أمر تعيين ضباط الجيش وقادته الى البرلمان وليس الملك ، خشية أن يستخدم الاخير الجيش لإخضاع

البرلمان ، وكان قد أشيع كذباً بأن الايرلنديين يثورون بإسم الملك ونالت الإشاعة رواجاً في انكلترا ، كما قام البرلمان بطرد ١٢ أسقفاً من مجلس اللوردات ، واخيراً نفذ صبر الملك من تجاوزات البرلمان على صلاحياته ، وقرر القبض على قادة المعارضة في البرلمان وذهب على رأس ثلة من جنوده فهرب النواب عندما علموا بنوايا الملك ، وأصبحت الحرب الأهلية لامفر منها .

الحرب الأهلية

سار كل شيء صوب الحرب الأهلية ، وأعتمد الملك على الكاثوليك والانجليكان الموالين له وبعض النبلاء ، وإستند الى المناطق الشمالية والغربية وأُطلق على أتباعه اسم الفرسان ، ووقف الكثير من أصحاب الأراضي والنبلاء الى جانب الملك في الحرب لأنهم وجدوا أن مصالحهم مهددة إذا سقطت الملكية ، أما البرلمان فقد إعتمد على شرق انكلترا وجنوبها ، وكان يحظى بتأييد البرجوازيين ورجال الصناعة والتجار وأصحاب السفن والبيورتان والمستقلين ، ثم إنضم إليهم الاسكتلنديين فيما بعد بموجب ميثاق نص على تأسيس كنيسة اسكتلندية برسبيتارية أو مشيخية في انكلترا ، وهي من مجموعة الكنائس التي أسسها جون كالفن ، وأطلق على أنصار البرلمان إسم ذوي الرؤوس المستديرة لأنهم حلقوا شعرهم لكي يتميزوا عن أنصار الملك من النبلاء الذين كانوا يتميزون بطول شعرهم ، ومن الملاحظ أن أغلب الذين إنحازوا الى البرلمان من الطبقة الوسطى والتجار وأصحاب الحوانيت الذين تضرروا كثيراً من إجراءات شارل التعسفية وجباة الضرائب منهم قسراً ، وكان هؤلاء أغليهم بيورتان وممثليهم في البرلمان شكلوا الأكثرية .

ترك شارل الأول لندن أوائل ١٦٤٢ بعد أن أرسل زوجته الفرنسية وأطفاله الى فرنسا ، وأخذ يعد العدة لمواجهة جيش البرلمان ، وقبل نهاية أيلول ١٦٤٢ جمع الملك الفي فارس وستة آلاف من المشاة ، لكنهم واجهوا مشكلة السلاح ، ولم تستطع الملكة هنريتا ماريا أن تزود زوجها بالسلاح لأن البحرية الملكية الانكليزية وقفت الى جانب البرلمان ، أما البرلمان وإن كان وضعه من ناحية المال والسلاح أفضل بكثير ، لكن جنوده لم يمارسوا الحرب وتنقصهم الخبرة والشجاعة ، وكان عددهم ٥ آلاف فارس و ٢٥ الف من المشاة ، ومع ذلك تمكنت قوات الملك من إحراز إنتصارات أولى ، خاصة وإن جيش البرلمان كان

غير منظم ، ولكن قائد القوات البرلمان أوليفر كروموبل عمل على تغيير هذه الظروف ، وإبتداءً من عام ١٦٤٤ بإنشائه جيشاً جديداً ، وكان كروموبل عضواً في مجلس العموم ، فبدأ بجمع فرقة من الرجال الأتقياء من مذهب المستقلين ، وكانت الحرب بالنسبة إليهم حرباً مقدسة ، فكانت هذه الفرقة نواة لجيش البرلمان ، وتمكن كروموبل من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الملك شارل الأول في معركة نيسبي في حزيران ١٦٤٥ ، وقد حاول الملك لمدة عام وبلاجدوى تكوين جيش جديد ، ثم ذهب الى معسكر الاسكتلنديين معتقداً انهم سيقفون الى جانبه بصفقته ملكهم ، لكنهم سلموه للانكليز فأنتهت بذلك الحرب الأهلية .

ظل الملك في السجن ، ونشب خلاف بين البرلمان والجيش ، وكانت غالبية أعضاء البرلمان من البيورتان بينما كان الجيش من البيورتان الذين يريدون كنائس حرة مستقلة وسموا أنفسهم بالمستقلين ، وكان البرلمان يريد تطبيق الميثاق مع الاسكتلنديين الذين ساعدوهم في الانتصار على الملك ، كما رغب البرلمان بإدخال الجيش الى المذهب البرسبيتاري ، بينما كان المستقلون بالجيش يفضلون سياسة التسامح حتى مع الكاثوليك ، ورأى أعضاء البرلمان أن من مصلحتهم حل الجيش والقضاء على سلطته الجديدة ، واستفاد الملك من هذا الخلاف ، وتمت المفاوضات بين البرلمان والملك على أساس إعتناقه المذهب البيورتاني ، وإعادته للسلطة ، وتمت المفاوضات من جانت آخر بين الملك والجيش على أساس ضمان التسامح ، وحاول الملك من جانبه أن يضرب البرلمان بالجيش ، محاولاً إعادة إشعال الحرب الأهلية ، وعندما تبين للاسكتلنديين أن البرلمان لم يطبق الميثاق المبرم بينهما إتفقوا مع شارل الاول لإعادته الى الحكم بشرط تأسيس كنائس اسكتلندية بريسبيتارية في انكلترا ، وأغار الجيش الاسكتلندي على انكلترا لإعادة شارل الاول ، فإتحد جيش البرلمان الانكليزي وترك خلافاته جانباً ، وواجه الجيش الاسكتلندي عام ١٦٤٨ وانتصر عليه ، ولما عاد الجيش منتصراً قرر أن ينهي أمر الملك والبرلمان . ووقف العقيد برايد على رأس كتيبة بباب البرلمان ومنع النواب المؤيدين للكنيسة الاسكتلندية من الدخول وطهر البرلمان من كل النواب الذين لايؤيدون الجيش والمستقلين ، فبقي حوالي ٦٠ نائباً فقط ، وأصبحت انكلترا بعد ذلك التاريخ تحت حكم الجيش ، وإضطر الباقون وهم أقلية الى الموافقة على

محاكمة الملك ، وإستمرت المحاكمة ٩ أيام وأدين الملك وأعدم يوم ٩ شباط ١٦٤٩ في ساحة الوايت هول وسط لندن .

الجمهورية

أعلن البرلمان ذو العدد البسيط من الأعضاء ، بعد إعدام الملك ، ان الأمة هي صاحبة السيادة وألغى النظام الملكي وأعلن الجمهورية ، وأصبح اوليفر كروميل رئيساً للجمهورية ، وألغى البرلمان كذلك مجلس اللوردات ، وأصبحت الحكومة تتكون من مجلس العموم ومجلس الدولة الذي يشتمل على أربعين عضواً ينتخبهم مجلس العموم ولهم السلطة التنفيذية ، وظل هذا النظام لمدة أربع سنوات ، وفي عهد كروميل أرسل حملة الى ايرلندا قادها بنفسه نتيجة إندلاع ثورة هناك ، واستخدم القسوة في معاملة الكاثوليك الايرلنديين بشكل لم يعرف له مثيل ، فإرتكب المذابح بحقهم وأسر النساء بالمئات وباعوهن كرقيق الى أمريكا ، ونزعت ملكية الأراضي من الايرلنديين لمصلحة الانكليز الذين جاؤا لإحتلالها ، ودفعوا بالكاثوليك الى مستنقعات الغرب ، وتحول الكثير منهم الى عمال زراعيين للسادة الانكليز وعلى أرضهم نفسها .

وأما الاسكتلنديون فقد احتجوا على إعدام الملك شال الأول لاعتقادهم انه عمل غير إنساني خصوصا وانه من أسرة ال ستيوارت الاسكتلندية فأعلنوا ابنه شال الثاني ملكا عليهم ، وبدأ كروميل الحرب في اسكتلندة لطرد شارل الثاني إبن شارل الأول من هناك ، وإجبار الاسكتلنديين على إنشاء جمهورية تتحد مع جمهورية انكلترا ، وتمكنت قوات كروميل من احتلال ادنبرة وأضطر الاسكتلنديين الى قبول الاتحاد مع انكلترا عام ١٦٥١ ، وبعد هذه الانتصارات أصدر كروميل قانون الملاحة ونص على أنه لايمكن للسفن الأوربية التي تأتي الى انكلترا أن تحمل إلا منتجات بلادها ، أما سلع آسيا وأفريقيا وأمريكا فلاتصل إلا على سفن انكليزية ، وترتب على هذا القانون ، الذي ظل معمولاً به حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أن اضطر الانكليز الى أن يذهبوا بأنفسهم لإحظار المنتجات اللازمة لهم ، الأمر الذي أدى الى إنشاء الاسطول واستمرار نموه ، فإزدادت قوة البحرية الانكليزية . ومع الوقت نشب خلاف جديد بين مجلس العموم وبين الجيش ، وحاول المجلس حل الجيش لكن كروميل قرر حل البرلمان .

أصبح كروموبل يحكم انكلترا حكماً كطلقاً بدون برلمان ، ولقب نفسه بلقب حامي الجمهورية ، ومارس في الخمس سنوات الأخيرة من حكمه (١٦٥٣-١٦٥٨) دكتاتورية فعلية بإستناده على الجيش وأصبح حاكماً مطلقاً أكثر مما كان عليه شارل الأول ، واصبحت انكلترا خاضعة لحكومته العسكرية ، وفي عام ١٦٥٧ عرض عليه البرلمان لقب ملك ولكنه رفضه ، ثم عاد وإختار إبنه خليفة له من بعده ، فأصبح ملكاً وراثياً بالفعل . إتبع كروموبل سياسة خارجية نشطة أرضت الانكليز ، وجعلتهم يتحملون نظامه الدكتاتوري ، وكان أهم جزء فيها هو تحالفه مع فرنسا ضد اسبانيا ، وهو التحالف الذي سمح لفرنسا بالإنتصار على الاسبان ، كما حصلت انكلترا على مكتسبات كبيرة بعد إنتهاء حرب الثلاثين عام ، وكان كروموبل يرغب في أن تصبح انكلترا من جديد ، كما كانت في عهد اليزابيث ، حامية المذهب البروتستانتي ، وحين توفي كروموبل أصبح إبنه ريتشارد كروموبل حاميا للجمهورية من بعده ، ولم يستطع ريتشارد السيطرة على النزعات المختلفة التي انتشرت في البلاد ، فحدثت انقسامات بين من يريد إعادة الملكية مستغلا السلبيات التي برزت في عهد الجمهورية وبين قادة الجيش الذين يريدون تحقيق أمجاد شخصية إضافة إلى الجمهوريين الذين سلكوا كل طريق للبقاء في الحكم وعندما شعر ريتشارد بعجزه في مواجهة هذا الوضع الخطير تنازل بعد ستة أشهر من توليه الحكم في ايار ١٦٥٩ ، مما ادى الى عودة حكم أسرة ستيوارت .

عودة الملكية وتولي شارل الثاني (١٦٦٠-١٦٨٥)

إجتمع قادة الجيش وبدأوا المفاوضات مع اسرة ستيوارت للرجوع الى حكم انكلترا ، وإتفقوا مع شارل الثاني في بريدا بهولندا في نيسان ١٦٦٠ على عودته الى حكم انكلترا بشرط أن يراعي وثيقة العهد الاعظم ، وملتمس الحقوق الذي وافق عليه والده عام ١٦٢٨ ، وأن يترك الشؤون الدينية والمالية الى البرلمان ووافق الملك على جميع القوانين التي وقعها أبوه حتى عام ١٦٤٢ ، وألغى جميع القوانين التي سنت بعد ذلك . وافق البرلمان الانكليزي على أن يمنح الملك ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لكي يواجه بها نفقاته ، دون أن يستدعي البرلمان لمواجهة أزمته المالية ، وبدا أن انكلترا أصبحت ملكية دستورية برلمانية ، وعلى الرغم من تمسك شارل الثاني بالحكم المطلق ، فإنه كان يعلم الى أي حد يستمر في ذلك دون

أن يصطدم بالبرلمان لكن شارل الثاني وأخوه جيمس كانا متأثرين بالكاثوليكية والحكم المطلق أيضاً ، فقد كانت أمهما هنريتا ماريا إبنة هنري الرابع كاثوليكية ، وتربى الإثنان منذ الصغر في بلاط لويس الرابع عشر فتأثرا بالحكم الفرنسي ، فلما رجع شارل الثاني الى انكلترا لم يكن يستطع أن يستمر طويلاً في الحكم البرلماني والتمسك بالكنيسة الانكليزية بالرغم من أنه لم يصرح علناً بميوله للكاثوليكية أو إيمانه بالحكم المطلق ، وهذا سر بقاءه في الحكم ، لكنه دخل في نزاع مع البرلمان طيلة حكمه .

أما بخصوص سياسته الدينية فقد تمكن من أن يجبر البيورتان من تكييف أنفسهم مع الكنيسة الانكليزية بموجب قانون الانسجام الذي سنه البرلمان عام ١٦٦٢ ، أما المنشقين من رجال الدين فجردوا من وظائفهم ، وأجبر موظفي الدولة على القسم بالإخلاص للكنيسة الانجليكانية والملك ، ولما وجد البرلمان أن عداء شارل الثاني للبيورتان لم يكن بدافع الحب للكنيسة الانكليزية بقدر ما هو عطف على الكاثوليك ، اتفق الانجليكان مع البيورتان ضد سياسة الملك ، وفي عام ١٦٧٢ أعلن أخو الملك كاثوليكيته بصراحة بالغة ، عندئذ أصدر شارل بيان التسامح وإيقاف الإجراءات بحق الكاثوليك والمنشقين لكن البرلمان أجبره على إلغاءه ، ورغم ذلك فإن شارل الثاني ظل يحابي الكاثوليك ، وظل في حاجة الى المال ، وباع ميناء دانكرك لملك فرنسا لويس الرابع عشر عام ١٦٦٢ بمبلغ ٣٧٥ ألف جنيه استرليني ، وذلك بعد ان حصل عليها كرومويل .

أعلن شارل الحرب على الهولنديين عام ١٦٦٤ نتيجة لإستمرار حاجته الى المال ، ووافق بعد ثلاث سنوات أن يخفف من صرامة قانون الملاحة تجاههم ، مقابل تنازلهم عن مستعمرة نيو أمستردام والتي أطلق عليها الانكليز بعد أن استولوا عليها اسم نيويورك تيمنا بجيمس دوق يورك وأخو الملك ، كما دفعته الحاجة الى المال أيضا الى التوقيع على تحالف مع لويس الرابع عشر ضد الهولنديين في دوفر عام ١٦٧٠ ، التي تعهد فيها شارل الثاني بمساعدة لويس الرابع عشر في حربه ضد هولندا واسبانيا وينضم الى الكنيسة الكاثوليكية مقابل أن يدفع له لويس سنوياً مبلغ ١٦٠ ألف جنيه استرليني ، مع أن شارل ساعد لويس في الحرب لكنه لم ينضم الى الكنيسة الكاثوليكية ، الأمر الذي أثار إستياءً لدى الرأي العام الانكليزي .

وفي سنة ١٦٧٩ قدم البرلمان الى الملك طلباً لتنحية أخوه وولي عهده جيمس عن العرش الانكليزي ، وقد إنقسم الارستقراطيون في البرلمان حول موضوع تنحية جيمس الذي صار كاثوليكياً ، فأيد قسم التنحية يدعمهم في ذلك البيورتان والمنشقين والبروتستانت بصورة عامة فسموا هؤلاء بـ الأحرار أو الويك Whigs (أي ثائر ، لأن البروتستانت قاموا بالثورة) ، والقسم الآخر كان أكثر إعتدالاً تجاه جيمس ، وأرادوا المحافضة على الوضع الراهن في الكنيسة والدولة لمنع تكرار الحرب الأهلية ، ويعتقدون أن الخضوع لملك كاثوليكي أفضل من أن تتعرض البلاد لخطر حرب أهلية أخرى ، وقد فاز هؤلاء عندما رفض مجلس اللوردات التنحية عام ١٦٨٠ ، وسمي هؤلاء الذين أيدوا جيمس الكاثوليكي بـ المحافظين أو التوري Tory (وهي كلمة كانت تطلق على الايرلنديين الكاثوليك العصاة) ، وظل شارل الثاني يحكم أنكلترا حكماً مطلقاً حتى وفاته عام ١٦٨٥ .

جيمس الثاني (١٦٨٥-١٦٨٨)

تولى جيمس الثاني الحكم بعد أخوه شارل ، وكان كاثوليكياً وحاول أن يعيد انكلترا الى المذهب الكاثوليكي ، ولم يكن يخفي مذهبه وشارك علناً في اداء الصلوات ، وحاول جيمس الثاني أن يؤسس جيشاً قوياً ضباطه من الكاثوليك لإرهاب البلاد به ، كما عين الكاثوليك في مناصب رئيسية في الكنيسة الانجليكانية ، وسمح لليسوعيين بالدخول الى انكلترا ، وأقام علاقات ودية مع البابوية أظهرت خضوعه للبابا ، كما أصدر جيمس الثاني قانون التسامح الديني والذي بمقتضاه تم إلغاء القوانين المناهضة للكاثوليك ، ومن اهمها حقهم في تولي المناصب القيادية في الجيش والحكومة ، وقد وقف الاحرار ضد سياسة جيمس الثاني ، وإستنكروا إنحيازه للكاثوليك وتقريبهم وإهمال التشريعات البرلمانية ، ولم يكن كل المحافظين راضين عنه أيضاً بسبب هجماته على الكنيسة الانكليزية ومحاولته تأسيس جيشه ، ولذلك لم يكن هناك مفر سوى ان يعلن البرلمان خلعه ، ودعوة إبنته البروتستانتية لتولي العرش .

صبر الانكليز على ملكهم على أساس ان كلا من إبنتيه تزوجت من أمير بروتستانتي ، الكبرى ماري متزوجة من وليام أورانج الهولندي ، والثانية آن متزوجة من جورج أخو ملك الدنمارك ، ولكن جيمس الثاني تزوج من جديد عام ١٦٨٨ من اميرة إيطالية كاثوليكية

ووضعت له إبناً ، الامر الذي جعل الوراثة تسير صوب هذا الأمير الكاثوليكي قبل أختيه ، ولذلك إتفق أتباع الكنيسة الانكليزية من الويك والتوري مع المنشقين من البروتستانت فدعوا ماري وزوجها حاكم هولندا ليتسلم العرش الانكليزي باسم وليم الثالث (١٦٨٨-١٧٠٢) وحملت زوجته اسم الملكة ماري الثانية .

الثورة الجليلة ١٦٨٨

وصل وليم أورانج الى انكلترا يوم ٥ تشرين الثاني ١٦٨٨ على رأس جيش تعداده ١٤ ألف رجل حملتهم ستمائة سفينة ، وكانت البلاد كلها في ثورة ، وكان جيمس الثاني قد فقد حلفاءه وغادر البلاد الى فرنسا ، فأعلن البرلمان خلع جيمس الثاني عن الحكم لمخالفته الدستور الانكليزي وتركه العرش شاغراً ، وإنه ليس هناك حق لإبنه الصغير في الملك ، وبذلك تمت الثورة التي لم ترق فيها الدماء والتي أطلق عليها بالثورة الجليلة أو المجيدة ، وإنتخب البرلمان وليم وزوجته ملوكاً على انكلترا ، وانهت الثورة الجليلة الحكم المطلق في انكلترا ، وأكدت على سيادة البرلمان الفعلية في شؤون الدولة ، وأصبحت الملكية مقيدة منذ ذلك الوقت . وصمم البرلمان هذه المرة على تجنب عودة الاستبداد الى انكلترا ، فإتخذ إجراءات من أجل تحديد حقوق الشعب الانكليزي والحصول من الملك على تعهد رسمي بإحترامها ، فأصدر البرلمان عام ١٦٨٩ قانوناً أسماه إعلان الحقوق أو قانون الحقوق .

أقر البرلمان الانكليزي لائحة الحقوق التي فيها الضمان القطعي لسلطة البرلمان ، وضرورة إعتناق الملك للمذهب الانجليكاني ، وعدم تمكنه من تعطيل القوانين وجباية الضرائب وإعفاء الناس من العقوبات التي يفرضها القانون ، والإحتفاظ بالجيش دون موافقة البرلمان ، وأكد البرلمان على حصانة أعضاءه وحق الشعب الانكليزي في حمل السلاح وتقديم العرائض وحرية الكلام والتعبير عن الأفكار والآراء دون أي تقييد ، كما أكد على الإنتخابات الحرة وعقد الإجتماعات البرلمانية بصورة مستمرة ، ومحاكمة أبناء الشعب من قبل محاكم عادلة وتطبيق نظام المحلفين وإجتناب العقوبات القاسية وتحديدها . وللبرلمان حق فرض الضرائب وتجهيز الجيش لسنة واحدة فقط بالمال اللازم ، وطالما لم يدع البرلمان في كل سنة للإنعقاد فلايجوز دفع الرواتب للجنود ، ولايعاقب الجنود تحت الأحكام العرفية ،

أما من الناحية الدينية فظلت القيود على الكاثوليك بينما منح البيورتان حرية العبادة بموجب قانون التسامح ، وتقرر أن لايتولى عرش انكلترا من يعتنق الكاثوليكية .

صدرت خلال عهد ملك انكلترا وليام الثالث وزوجته الملكة ماري قوانين أخرى ، فأصدر البرلمان قانون الأجتماع لعام ١٦٩٤ نص على أن لايتجاوز حل البرلمان مدة ثلاث سنوات ، وكذلك لايستمر إجتماع البرلمان أكثر من ثلاث سنوات ، وقانون التولية لعام ١٧٠١ ، والذي نص على أنه في حالة وفاة الملك وليم الثالث ، ولأنه وزوجته ماري لم ينجبا أي وريث ، ينتقل العرش الى الملكة آن إبنة جيمس الثاني ، وعند وفاة آن تقرر إنتقال العرش الانكليزي الى ناخب مقاطعة هانوفر الألمانية لكونه أقارب أسرة ستيوارت .

نتائج الثورة الجليلة :

١- ظهور الأحزاب السياسية في انكلترا ، حيث بدأ ظهور حزبين رئيسيين ومختلفين في التوجهات أواخر عهد شارل الثاني هما حزبي الأحرار والمحافظين ، وبرزت هذه الفكرة عندما إنقسم أعضاء البرلمان بين معارضين للملك ومؤيدين له ، فكان الأحرار من مؤيدي تقوية سلطة البرلمان في حين كان المحافظين من أنصار تقوية السلطة الملكية والسياسة التقليدية . وقد إزدادت أهمية هاذين الحزبين بعد نجاح الثورة الجليلة ، إذ تناوب الحزبان على الحكم في عهد وليم الثالث والملكة آن من بعده .

٢- ظهور الوزارة ، إذ أصبح النظام الوزاري أهم ماتمتاز به الحياة السياسية في انكلترا ، فقد إعتاد ملوك آل ستيوارت أن يختاروا أشخاص من النبلاء ذوي النفوذ السياسي ويستعينوا بهم في إدارة شؤون الدولة المالية والعسكرية ، وبعد الثورة الجليلة بدأ الملوك في إختيار الوزراء من زعماء الحزب الذي يحصل على الأغلبية في مجلس العموم ، ويجتمع بهم في غرفة صغيرة تسمى كابنيت Cabinet ، وفي زمن الملك وليام كان الأحرار دائماً في الحكم لأن أغلبية مجلس العموم منهم ، وكذلك الوضع في عهد الملكة آن ، ومع أن الملوك المذكورين مالوا الى المحافظين أحياناً ، لكنهم وجدوا أن من الأفضل موافقة الأكثرية في البرلمان وعدم مخالفتها لكي يتحقق الاستقرار السياسي في البلاد .

٣- تلاشت فكرة التمثيل الطبقي في الدوائر الانتخابية ، وأصبح عضو البرلمان يمثل جميع سكان دائرته ولايمثل طبقة إجتماعية أو اقتصادية معينة ، فظهرت حقوق الفرد السياسية

ومعارضة الامتيازات الطبقية ، وانتشرت حرية الرأي وفكرة المساواة بين الطبقات ، وظهرت النظريات السياسية التي تؤيد هذه الأفكار خصوصاً بعد أن قام كبار المفكرين ومن أشهرهم جون لوك بتأليف كتاب حول أصول الحكم ، وانتشرت فكرة أن الشعب صاحب الأمر والنهي في تقرير أموره ، وقد إنتشرت هذه الافكار السياسية الجديدة خارج انكلترا ولاسيما في فرنسا وأمريكا .

وهكذا كان للثورة الجليلة أكبر الأثر في إنهاء الشقاقات السياسية وتقليص نفوذ الملوك المستبدين ، وبناء مجموعة من الدساتير كان لها أكبر الأثر في إستقرار النظام البرلماني في انكلترا ، وقد أعقب ذلك ظهور انكلترا كأعظم دول العالم في ميدان التجارة والصناعة على السواء ، الأمر الذي ساعدها كثيراً في إنشاء إمبراطورية استعمارية فيما وراء البحار .

الملكة آن (١٧٠٢-١٧١٤) :

بعد وفاة الملكة ماري عام ١٦٩٤ ووفاة زوجها الملك وليام الثالث عام ١٧٠٢ ، تولت إبنة جيمس الثاني الصغرى آن حكم انكلترا ، ولعل أبرز الاحداث في عهدها هو صدور قانون الوحدة علم ١٧٠٧ إندمجت بموجبه انكلترا مع اسكتلندة وويلز في مملكة موحدة أُطلق عليها إسم بريطانيا العظمى Great Britian ، وعلى الرغم من أن اسكتلندة اتحدت مع انكلترا خلال حكم آل ستيوارت لكن ذلك الإتحاد بقي ضعيفاً بسبب إحتفاظ كل واحدة منهما ببرلمانها ونظامها الحكومي الخاص ، في حين نص قانون الوحدة الجديد على توحيد الحكومة وإنتخاب ٤٥ عضواً اسكتلندياً في مجلس العموم و ١٥ لوراً اسكتلندياً في مجلس اللوردات ، ومن الاحداث المهمة الاخرى في عهد الملكة آن دخول انكلترا في حرب الوراثة الإسبانية ونجاحها في تحقيق مكاسب قارية كبيرة لبريطانيا العظمى في معاهدة أتراخت ١٧١٣ .

وعندما توفيت الملكة آن لم يكن لها من يخلفها من أولادها ، فإنتقل العرش الى أقرب أقربائها من البروتستانت وهو جورج ناخب هانوفر الألمانية وإبن صوفيا حفيدة جيمس الاول التي تزوجت من ناخب هانوفر ، فأصبح ملكاً على بريطانيا بإسم جورج الأول وحاكماً لهانوفر في آن واحد ، ليبدأ عهد أسرة حاكمة في بريطانيا هي أسرة هانوفر (١٧١٤-١٩٠١) .

روسيا في عهد بطرس الكبير (١٦٨٩-١٧٢٥)

بقيت روسيا مدة طويلة خارج حدود المدنية الاوربية الى أن جاء القرن السادس عشر فإلتفتت الى أوربا ، ومرت روسيا في القرون الوسطى بمراحل ثلاث أولها غزو بعض القبائل الجرمانية من شبه جزيرة اسكندنافيا لأراضيها في القرن التاسع الميلادي بقيادة روريك Rurik فأسسوا فيها دولة عاصمتها كييف ، وثانيها في القرن العاشر عندما أوصل خلفاء روريك حدود الدولة التي شيدها الى نهر الدنيبر ، فأقتربت أكثر من حدود الدولة الرومانية البيزنطية ، وإقتبست منها الديانة المسيحية في عهد الأمير فلاديمير الأول (٩٨٠-١٠١٥) فأصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة عام ٩٨٩م ، وأسست كنائسها القومية على المذهب الأرثوذكسي ، تاركة وثنيتها بتأثير المبشرين البيزنطيين ، أما في المرحلة الثالثة من تاريخ روسيا في العصور الوسطى فقد جرفتها موجة الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر ونجح المغول في تأسيس دولة لهم في روسيا سميت بدولة القبيلة الذهبية ، وأصبح الأمراء الروس تابعين لها ، ومع أن المغول أجبروا الروس على دفع الاتاوة فقد تركوا لهم حريتهم في إتباع ديانتهم وقوانينهم ، وبقي المغول يحكمون الاراضي الروسية مدة ٢٠٠ عام .

أخذ نفوذ المغول يتقلص في أواخر القرن الرابع عشر ، إذ تمكن أمراء موسكو من طرد المغول وتوسيع حدود إمارتهم في أواخر القرن الخامس عشر ، ومن أبرز أمراء موسكو خلال تلك المرحلة ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) الذي صار حاكماً لعموم روسيا ، ومن أبرز الاحداث في عهده هو إعلانه عام ١٤٨٠ استقلال إمارته (امارة موسكو) عن التبعية لدولة القبيلة الذهبية ، مما شكل بداية لقيام الدولة المركزية الموحدة في روسيا ، وتزوج ايفان الثالث من الاميرة صوفيا قريبة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨-١٤٥٣) وعدّ ايفان الثالث نفسه خليفة لميراث الامبراطورية الرومانية البيزنطية ، فأصبح يحكم روسيا حكماً مطلقاً .

كما برز خلال تلك المرحلة أيضا ايفان الرابع (١٥٣٣-١٥٨٤) الملقب بـ ايفان الرهيب ، وسمي بهذا الأسم لأنه قضى على كبار ملاكي الأرض ووزع أراضيهم على أتباعه فخلق طبقة نبلاء جديدة تابعين له ، وأجبر الفلاحين الروس على الاستقرار في

الارض والعمل فيها لخدمة طبقة ملاكي الأراضي ، ولقب ايفان الرابع نفسه قيصراً ، وإهتم بالعمارة والبناء ، إذ استخدم المهندسين الألمان والفنانين الإيطاليين لبناء موسكو فبنوا الكرملن وبعض الكنائس والأبنية ، وحاول ايفان الرابع الاتصال بأوربا إلا أن السويد التي تحتل السواحل الجنوبية للبلطيق لم تترك لروسيا منفذاً بحرياً ، اما بولندا الكاثوليكية ، التي تقع غرب روسيا ، فقد أصبحت معادية لروسيا وتطمح للسيطرة على الأراضي الروسية ، لذا أصبح البولنديين حجر عثرة في طريق ايفان الرابع نحو وسط أوربا ، في حين كانت الدولة العثمانية هي العدو التقليدي الذي يكرهه الروس بسبب الخلاف الديني واستيلاء العثمانيين على القسطنطينية مقر الكنيسة الارثوذكسية ، لذلك بقيت روسيا محاصرة بهذه الدول القوية ، إلا أن ذلك لم يكن مانعاً أمام إيفان الذي تمكن من إبرام معاهدة تجارية مع انكلترا عام ١٥٥٨ ، وجاء من بعده قياصرة آخرين أبرزهم ميخائيل رومانوف (١٦١٣-١٦٤٥) ، الذي إستطاع أن يضمن الأمن والسلام في روسيا ويحافظ على حدود بلاده من الإعتداءات الأجنبية ، وبعد وفاته أصبح إبنه الكسيس (١٦٤٥-١٦٧٦) قيصرا ، وفي عهده توسعت روسيا باتجاه سيبيريا ، كما اصطدمت مع بولندا بسبب أوكرانيا وانتهي الأمر بإقتسام أوكرانيا بينهما ، وشهد حكم الكسيس أيضاً اضطرابات سياسية وثورات داخلية .

تولي بطرس الاكبر السلطة :

أصبح فيودور (١٦٧٦-١٦٨٢) ، ابن القيصر الكسيس من زوجته الأولى قيصراً على روسيا بعد وفاة والده ، لكنه توفي بعد ست سنوات دون أن يترك وريثاً ، فخلفه في الحكم أخوه الأصغر ايفان الذي كان مريضاً ولايستطيع أن يحكم ، وفضّل كبار المسؤولين ورؤوساء الكنيسة أخوه الأصغر بطرس من زوجة الكسيس الثانية ، وإجتمعوا في الساحة الحمراء في موسكو ونادوا بـ بطرس قيصراً على روسيا ، ولما كان بطرس في العاشرة من عمره فقد آلت الوصاية على عرشه الى شقيقته صوفيا (إبنة الكسيس من زوجته الأولى) التي أصبحت تدير أمور الحكم والدولة في حين انصرف بطرس يختلط بأبناء الجاليات الأجنبية الغربية في القرية التي كانت تسمى بالحي الألماني في موسكو ، فكان ذلك بداية احتكاكه بالحضارة الأوربية الغربية فأعجب بها ، وقد توطدت علاقته بضابط اسكتلندي وتاجر سويسري كانا له فيما بعد عونا كبيرا . كان بطرس شابا طموحا ذكيا ، وعندما بلغ

السابعة عشر من عمره انتزع الحكم من شقيقته الوصية ونفاها في احد الأديرة في أب ١٦٨٩ ، ولم يكن يرغب من هذا استلام الحكم مباشرة بل بسبب استبداد شقيقته صوفيا بأمور البلاد وسوء إدارتها للسياسة الخارجية الروسية ، ومحاولتها التخلص من بطرس عن طريق قتله لتحكم روسيا بدون منافس ، وكذلك جرها لروسيا إلى هزيمتين عسكريتين في شبه جزيرة القرم عام ١٦٨٧ و ١٦٨٩ .

وبعد خلعها فوض بطرس والدته الوصاية على العرش ، وانصرف متابعا حياته في الحي الألماني إلى أن توفيت والدته عام ١٦٩٤ ، فكان لابد من استلام السلطة مباشرة بعد أن اكتسب الكثير من الخبرة من خلال اطلاعه وتتبعه لكافة الأمور الحضارية والسياسية ، فمارس الحكم بقوة وحزم وجمع بيده السلطات كافة واتبع سياسة ناضجة كان لها الأثر في ظهور دولة روسيا القوية ، وكانت تلك السياسة تقوم على أسس ثلاثة هي :

اولا :- إقامة حكم قيصري مطلق في روسيا .

ثانيا :- الانفتاح على الحضارة الغربية لتدخل روسيا العصور الحديثة .

ثالثا :- الوصول إلى المياه الدافئة في البحر الأسود والبلطيق .

كان الهدف الرئيسي من هذه السياسة إخراج روسيا من عزلتها ولهذا يعتبر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر مرحلة دخول روسيا العصور الحديثة ووصول عصر النهضة إليها ، ولقد لقب الروس بطرس بـ(الأكبر) لخدماته هذه نحو روسيا .

أولا : أقامة الحكم المطلق

اعتبر المؤرخون بطرس الأكبر مؤسس الدولة الروسية القيصرية ليس لأنه كان أول قيصر فيها بل لأنه أقام سلطة قوية مكنت روسيا من الانتقال إلى العصر الحديث ، وكان لابد لبطرس ان يكون مستبدا قويا للوقوف بوجه القوى المحافظة التي كانت ضد مبدأ التطور والتقدم لأنها ترتبط مصيريا بمؤسسات العصور الوسطى ، ومن هذه القوى الحرس الوطني المسمى سترلتسي Streltsi ، الذي استغل فرصة سفر القيصر بطرس الى أوربا للاطلاع بنفسه وبشكل مباشر على مظاهر العصور الحديثة الأوربية الغربية ، فقام بعصيان مسلح بالتعاون مع شقيقة القيصر صوفيا والفئات المحافظة من نبلاء ورجال الدين الناقمين على سياسة الإصلاح والتقرب من بلدان غرب أوربا ، كان دافع الحرس الوطني بالتمرد هو

خوف قادته وضباطه على نفوذه الكبير وسلطتهم الواسعة في روسيا بعد ان بدأ بطرس يكون جيشا حديث التدريب بمساعدة الخبراء الأجانب ، إلا أن التمرد لم ينجح حيث قضى عليه جيش بطرس الحديث قبل عودته إلى البلاد ، وعند عودة القيصر بطرس من الخارج إنتقم من الحرس الوطني إنتقاما رهيبا فاعتقل مؤيديهم من النبلاء ورجال الدين واعدم أكثر من ألف شخص منهم بعد عمليات تعذيب وحشية كان يشارك فيها أحيانا بنفسه ، كما أمر بسجن شقيقته صوفيا في دير صغير مدى الحياة .

لقد كان الحرس الوطني يمثل دعامة الرجعية وسندا للقوى المعادية للتطور والإصلاح ، ولهذا فان تصفيته كانت تعني بالنسبة لبطرس إطلاق يديه في طريق سياسته الإصلاحية وإزالة عقبة رئيسية على طريق الحكم المطلق ، ولم يكن الحكم المطلق بالنسبة لبطرس يعني الحكم الاستبدادي المتخلف لأنه تأثر بما شاهده في أوربا الغربية من نظم الحكم المطلق قائمة على المركزية والإدارة المنظمة التي تهدف الى التقدم نحو الأفضل والتخلص من العصور الوسطى ، ولهذا الغي بطرس مجلس النبلاء والأعيان المكون من كبار الإقطاعيين في روسيا واستبدله بمجلس استشاري يعين هو أعضاءه ، ومؤلف من عشرين عضوا من الوزراء وكبار الموظفين يتولى إدارة شؤون البلاد عند غياب القيصر فقط ، ويرأس هذا المجلس مدع عام مرتبط بالقيصر مباشرة ، وفي سنة ١٧١٢م كلف المجلس المذكور بالإشراف على الإدارة الحكومية التي أعيد تنظيمها على النمط السويدي حيث قسمت البلاد الى ٢١ وحدة إدارية تشرف على إدارتها الإقليمية حكومات محلية ويتولى مفتشون ومندوبون من قبل القيصر التأكد بصورة مستمرة من أنّ الأعمال فيها تجري وفق سياسة الدولة وإرادتها .

أن هذه الإجراءات الإدارية قضت على احتكار النبلاء للوظائف العليا في الدولة وجعلت الكفاءة والعلم طريقاً للوصول إليها ، وبات بإمكان كل مواطن أن يصل إلى أعلى الوظائف ليصبح من النبلاء والوجهاء مهما كان أصله . أما العقبة الأخرى التي كانت تقف بوجه رغبة بطرس الأكبر في دخول روسيا العصور الحديثة فهي الكنيسة الأرثوذكسية ذات النفوذ والثروة الواسعين ، لقد وقفت هذه الكنيسة بوجه سياسة الأخذ بمظاهر العصور الحديثة الغربية ، وكان من الصعب الاصطدام بها بشكل مباشر وعلني ، إلا إن الفرصة

سنحت لبطرس بالحد من سلطة الكنيسة عند وفاة البطريرك سنة ١٧٠٠ ، حيث أبقى بطرس كرسيه شاغرا ثم ألغاه بعد ذلك وأوكل صلاحيات البطريرك لمجمع مقدس يرأسه علماني يعينه القيصر ، وبذلك أصبح القيصر الرئيس الفعلي للكنيسة الأرثوذوكسية ، فصارت مرتبطة بالدولة وملتزمة بسياستها وهكذا أصبحت روسيا تحكم من قبل القيصر بطرس الأكبر دون وجود منافس له .

ثانيا :- السياسة التوسعية والوصول إلى المياه الدافئة

إن الوصول إلى المياه الدافئة هو هدف أساسي من أهداف الروس منذ أن وجدت روسيا كدولة ، وذلك لإيمان الحكام الروس بان مستقبل روسيا السياسي وتطور اقتصادها لا يمكن أن يتكاملا ألا بتحقيق هذا الهدف ، لهذا نجد أن بطرس الأكبر يهاجم ويحتل قلعة ازوف العثمانية الحصينة على البحر الأسود بعد سنة واحدة من استلامه السلطة مسجلا بذلك أول نصر عسكري له . وقد ساعده في تحقيق النصر العسكري إنشغال الدولة العثمانية بحربها مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية) ، لقد كانت الإمبراطورية العثمانية قوية وغنية وكان بطرس يعرف انه ليس من السهولة تحقيق الانتصارات عليها مدركاً صعوبة العمل في البحر الأسود والدفاع عن الوجود الروسي فيه ، فحاول التفتيش عن حليف إلا انه فشل في ذلك لعدم رغبة الدول الأوربية بالتورط في حرب العثمانيين الأقوياء آنذاك ، لهذا وقع بطرس الأكبر صلحا مع الدولة العثمانية عام ١٧٠٠ تركت الدولة العثمانية بموجبه حصن ازوف للروس فأصبح لهم موطئ قدم على البحر الأسود .

كان الهدف الثاني لبطرس الأكبر الوصول إلى بحر البلطيق الذي تسيطر عليه السويد منذ حرب الثلاثين عام مما شكل حاجزا بين روسيا ومياه البلطيق ، استغل بطرس العداء القائم بين بولندا الكاثوليكية والسويد ، فتحالف بطرس مع بولندا عدوة روسيا القديمة والتي أصبحت ضعيفة وتحالف أيضا مع الدنمارك ، لقد قبلت هاتان الدولتان التحالف مع روسيا اثر موت ملك السويد شارل الحادي عشر (١٦٦٠-١٦٩٧) معتقدين إن الارتباك الذي صاحب موته سيمكن تحالفهم الثلاثي من الانتصار على السويد ، ألا أن الملك الشاب الجديد شارل الثاني عشر (١٦٩٧-١٧١٨) اظهر رغم حداثته بالملك براعة فائقة في فنون الحرب ، إذ هاجم الدنماركيين وانتصر عليهم وأجبرهم على توقيع الصلح معه ، ثم اجبر البولنديين

الضعفاء على فك حصارهم لمرفأ ريغا السويدي الهام ، وتوجه بعد ذلك على رأس جيش حسن التدريب يضم ثمانية آلاف جندي لمواجهة جيش بطرس الأكبر المؤلف من ٤٠ألف مقاتل ، والذي كان قد حاصر قلعة نارفا الحصينة على خليج فنلندة ، وفي يوم شديد العواصف والأنواء انزل السويديون هزيمة ساحقة بالروس وفر بطرس ليستعد للدفاع عن عاصمته ، لكن ملك السويد لم يلاحق جيش القيصر المهزوم وإنما اندفع يحارب البولنديين ، فكانت حرباً شاقة مدمرة مما أعطى الفرصة لبطرس لأعاده تنظيم جيشه ، كما سنحت له الفرصة بمهاجمة سواحل البلطيق مجدداً واحتلال قسم منها دون إن يتمكن السويديون من الوقوف بوجهه لانشغالهم بحرب بولندا ، وحاول بطرس التفاهم مع شارل بأن يكتفي ببعض الأراضي وميناء واحد على ساحل بحر البلطيق ، لكن شارل لم يرغب في المصالحة ، وتوجه بجيشه عام ١٧٠٧ نحو موسكو وتوغل في أعماق روسيا ، وقرر مهاجمتهم في عقر دارهم واحتلال عاصمتهم ، فاتبع الروس خطة الانسحاب أمام تقدم جيش السويد الذي أصبحت خطوط إمداداته طويلة وضعيفة ، ومما زاد في ضعف موقفهم إن شتاء روسيا كان على درجة غير عادية من الشدة والقسوة ، إضافة الى الأمراض وجهل السويديين بطبيعة الأرض داخل روسيا وعدم استعدادهم لتقبل البرد الشديد ، مما ادى الى موت نصف جيش شارل الثاني عشر الذي كان يأمل أن تدعمه عناصر القوزاق الثائرة ضد بطرس ، وقد حال بطرس دون وصول تلك الإمدادات.

وعندما جاء صيف ١٧٠٩ دارت بين الجيشين معركة بولتافا التي الحق فيها الروس هزيمة ساحقة بالسويديين ، الذين قتل معظمهم واستسلم في حين فر شارل الثاني عشر الى العثمانيين ملتجأ إليهم ، وتمكن هناك من إقناع السلطان العثماني أحمد الثالث بن مراد الرابع (١٧٠٣-١٧٣٠) بشن الحرب ضد الروس ، فأسترجعت الدولة العثمانية بعض الأراضي التي كان بطرس قد استولى عليها كميناء آزوف وشبه جزيرة القرم . بقي شارل في الدولة العثمانية خمس سنوات يحرض السلطان للحرب ضد الروس ، وقد ملّ السلطان من إلحاحه فترك شارل اسطنبول وعاد الى بلاده ، وبذلك حصلت روسيا على موطيء قدم على بحر البلطيق . أما الجزء الثالث من المياه الدافئة التي أراد بطرس الأكبر السيطرة عليها فهو بحر قزوين في بلاد فارس ، حيث أراد تحويله الى بحيرة روسية مستغلا الغزو الأفغاني لبلاد

فارس ، فهاجم فارس بحجة إنقاذها من حاكم أفغانستان مير محمود إلا أن العثمانيين أعلنوا أن الزحف الروسي على بلاد فارس يعني التمهيد للدخول في حرب ضد الدولة العثمانية مما اجبر بطرس الأكبر على وقف زحفه والتفاوض مع العثمانيين حيث وقعا معاهدة اقتسما بموجبها بلاد فارس بينها عام ١٧٢٤ فحصلت روسيا على سواحل بحر قزوين وبعض الولايات الفارسية الشمالية على نهر اراس ، لكن وفاة بطرس الأكبر سنة ١٧٢٥ وتعرض روسيا لازمات داخلية وظهور حكم فارسي قوي هو نادر شاه دفع روسيا الى إعادة ما استولى عليه بطرس الأكبر الى الدولة الفارسية .

ثالثا : دخول روسيا العصور الحديثة

بعد أن حقق بطرس الأكبر أول انتصار عسكري له باحتلال قلعة ازوف العثمانية على البحر الأسود ، شكل بعثة كبيرة ضمت كبار مساعديه سافر بها الى دول أوربا ، ولم يعلن بطرس عن وجوده في البعثة وإنما سافر متخفيا ليتخلص من القيود الرسمية والبروتوكولات ، وقد استمرت سفرته سنة ونصف تقريبا اطلع خلالها على معالم العصور الحديثة في أوربا الغربية ، فزار المصانع والمعامل وشارك عمال أحواض السفن في هولندا وانكلترا أعمالهم أياما طويلة ، وعند عودته الى روسيا جلب معه آلاف المختصين والفنيين في مختلف فروع المعرفة والتقدم لبناء روسيا العصور الحديثة والتي كانت على درجة كبيرة من التخلف في الزراعة والصناعة والموصلات والإدارة والجيش إضافة الى الفكر الرجعي الذي كان سائدا عند الطبقات المتنفذة ، ولكي يعطي بطرس الأكبر زخماً أقوى لعملية دخول روسيا العصور الحديثة فقد كان يشرف بنفسه على كل التفاصيل الخاصة بتطوير روسيا ، التفت بطرس الى الجيش الروسي وأعاد تنظيمه على أسس حديثة بعد هزيمته الأولى مع السويد ، فالغى التنظيم العسكري القديم الذي يعتمد على الفلاحين وملاك الأراضي كجنود وضباط حيث لايمتلك هؤلاء خبرة في القتال والحروب ، واصدر قانون التجنيد الإلزامي ، ووضع الأسس الحديثة للجيش وقضى على احتكار النبلاء للوظائف العسكرية العليا ، وجعل المساواة بين المواطنين والكفاءة أساسا للوصول الى تلك الوظائف ، واستقدم خبراء ومدربين من الخارج لتطوير الكفاءة العسكرية والقتالية لجيشه ، كما قام ببناء أسطول روسي ضخم .

وفي مجال الإدارة المدنية قضى بطرس على احتكار النبلاء والوجهاء للوظائف العليا في الإدارة وجعل الكفاءة والعلم وحدهما طريقا لها ، ثم بنى عاصمة جديدة له قريبة جغرافيا من بلدان أوربا الغربية واقل ارتباطا بالتقاليد الروسية القديمة وبالقوى المحافظة في موسكو، وقد أطلق على هذه العاصمة اسم بطرسبرغ ، وعمل على تغيير المجتمع الروسي بناءً على ماشاهده في أوربا الغربية ، وأمر بطرس الرجال بتقصير اللحى والشوارب وأمر بترك الألبسة الفضفاضة وإرتداء الملابس الغربية ، وأجبر النبلاء على تعاطي التدخين ، كما منع ماكانت عليه النساء من عزلة فأمر بإقامة الحفلات والولائم تشترك فيها النساء ، كما قضى على نظام الحريم في روسيا فحرر المرأة الروسية من قيود العزلة ودعاها للدخول في ميدان العمل ، كما فرض سنا محددا للزواج ومنع زواج المرأة والرجل بغير رضاهما . أما في مجال الصناعة فقد انشأ المصانع الكثيرة ومنها مصانع الحديد والصلب والنسيج والجلود والأسلحة ، وقام بزيادة الرسوم الكمركية على الواردات لحماية الصناعة المحلية وأعفى أبناء البرجوازية الصناعية من الخدمة العسكرية ولتامين اليد العاملة لقطاع الصناعة بتكاليف زهيدة سمح بطرس بنقل الاقنان الزراعيين بالقوة من المزارع الى المصانع وسمح ببيعهم دون الأرض للصناعيين مما حولهم الى نوع جديد من الرقيق زاد في تعاسة العاملين في الأرض وألقى بعبيء قيام الصناعة الجديدة على أكتافهم .

وفي مجال الزراعة استبدل بطرس الأدوات القديمة بالوسائل الزراعية الجديدة وعمل على بناء الجسور وشق الطرق والقنوات ، وأيقن بطرس أن روسيا تنقصها الطبقة الوسطى الغنية ، وحاول تكوين هذه الطبقة من خلال تشجيع التجارة ، وفيما يتعلق بالتعليم فرض بطرس الأكبر التعليم الإجباري على أبناء النبلاء وشجعهم على الذهاب الى الجامعات أوربا للدراسة ، كما أصلح الأبجدية الروسية وحذف منها ثمانية حروف لافائدة منها وادخل الى روسيا التقويم الغربي الحديث ، لقد أثارت إصلاحات بطرس موجة عنيفة من المعارضة عند المحافظين والنبلاء ورجال الدين المتعلقين بالماضي الذين تضررت مصالحهم وضعف نفوذهم بسبب هذه التغيرات ، إلا إن بطرس لم يتراجع عن أي عمل إصلاحي ولم يسمح للمعارضة ان تتجاوز حدودها ، فقضى على كل الذين تآمروا عليه ووصل به الحد الى إعدام ابنه وولي عهده ألكسي عندما أعلن معارضته لخطط أبيه .

السويد في القرن السابع عشر

تمكن غوستاف أدولف ملك السويد من ان يجعل بحر البلطيق بحيرة سويدية بإشتراكه في حرب الثلاثين عام ، وكانت السويد تحكم فنلندة ومقاطعات كاريليا وأنكريا واستونيا وليفونيا ، وقد حصلت بموجب معاهدة ويستفاليا على مقاطعة بوميرانيا الغربية ومصب نهر الألب ، والأودر والويزر ، ولذلك كانت السويد تتدخل كثيراً بالشؤون الألمانية ، وقد إزدهرت تجارة السويد مع أطراف بحر البلطيق ، وكانت روسيا وبولندا تصدران بضائعهما عن طريق ميناء ريغا السويدي ، والموانيء الأخرى في شمال ألمانيا وتشحن في السفن السويدية . لقد حاولت الدانمارك وبروسيا وبولندا القضاء على احتكار السويد للتجارة في تلك المنطقة دون جدوى ، وكانت السويد منتصرة دائماً بحيث بلغت مساحتها في ذلك الوقت تعادل بلاد اسكندنافيا وألمانيا ، وكانت ستوكهولم عاصمة لإمبراطورية سويدية عظيمة .

كان ملوك السويد محاربين ولم يهتموا بشؤون السويد الداخلية وتقوية مصالحها ، والعمل على توفير الأمن والإستقرار اللذين كان الشعب السويدي بأمس الحاجة إليهما ، مما ساعد على تدهور الإمبراطورية السويدية ، فبالإضافة الى ضحايا الحرب بالآلاف ، كانت المبالغ الجسيمة التي تكلفها النفقات الحربية والضرائب اللازمة لسد تلك النفقات أثقلت كاهل الشعب وأشاعت الفوضى الإدارية . وإنزلقت السلطة تدريجياً من قبضة الملوك ، وإستعاد النبلاء امتيازاتهم السياسية والإقتصادية ، وأدى جشعهم الى تدمير البلاد . وبعد تولي شارل الثاني عشر سدة الحكم في السويد ، كانت الدول المجاورة تتحين الفرص لإسترجاع أراضيها من السويد ، فإتفقت روسيا وبولندا والدانمارك وساكسونيا في إعلان الحرب على السويد ، ولما كانت حرب الوراثة الإسبانية على وشك الإندلاع عام ١٧٠٠ ، لم تكن دول أوربا الغربية تستطيع منع إنهيار الإمبراطورية السويدية ، لكن شارل الثاني عشر إمتاز بعبقرية نادرة في الحرب ، وفاجأ أعداءه من الحلفاء ، وبسرعة فائقة دحر الدانمارك ، وأجبر ملكها على عقد صلح منفرد ، وبعد ذلك هزم الجيش الروسي بقيادة بطرس الكبير في معركة نارفا واباد جيشه ، ثم توجه جنوباً وطرد البولنديين ، والسكسون والروس من ليفونيا وليتوانيا على الساحل الشرقي من بحر البلطيق ، ثم توجه الى بولندا واستولى على

عاصمتها وارشو وكراكاو ، وهناك أجبر البرلمان البولندي على خلع ملكهم أغسطس وإنتخاب ملك جديد عام ١٧٠٤ ، لقد عمل شارل كل هذه الأعمال وحده وهو بين الثامنة عشر والثاني والعشرين من عمره ، وعليه كان من الطبيعي أن يصبح مغروراً ويفتخر بقابلياته وجعلته الحرب قاسياً متصلباً تجاه الشعوب التي حكمها .

توغل شارل في روسيا متعقباً جيش بطرس الكبير الذي إنسحب أمامه ، فتعرض شارل لهزيمة ساحقة في معركة بولتافا عام ١٧٠٩ ، ونتيجة لهذه الهزيمة فرّ شارل الى اسطنبول وبقي هناك خمس سنوات ثم عاد الى بلاده ، وبعد عودته انتهز أعداءه الفرصة فشكلوا تحالفاً جديداً إنضمت إليه بريطانيا العظمى وهانوفر وبروسيا والنرويج بالأضافة الى بولندا وروسيا وساكسونيا ، وقتل شارل خلال تلك الحرب عام ١٧١٨ ، وبعد موته أصبح الصلح ممكناً فتم توقيع معاهدة ستوكهولم عام ١٧١٩ ، تنازلت السويد فيها عن كل أراضيها الألمانية بإستثناء جزء من بوميرانيا الغربية ، وحصلت الدانمارك على هولشتاين ، كما حصلت هانوفر على مصب نهر الألب والويزر ، وحصلت بروسيا على مصب نهر الأورد وبوميرانيا الغربية ومدينة ستاتن ، ورجع أغسطس الثاني الى العرش البولندي .

كما عقدت السويد مع روسيا معاهدة نيستاد عام ١٧٢١ ، حصل بطرس الكبير فيها على كريليا وآنكريا على ساحل بحر البلطيق ، وكذلك ضم أستونيا وليفونيا وجزء ضيق من جنوبي فنلندة بما فيها حصن فايبرك المنيع ، وبذلك تجزأت الإمبراطورية السويدية وانتهت زعامتها في شمال أوربا وتحولت الى دولة صغيرة مقابل بروز روسيا القيصرية كدولة كبرى لها دورها البارز في شؤون القارة الأوربية .

الفصل الثالث

أوربا في القرن الثامن عشر

فرنسا في عصر لويس الخامس عشر(١٧١٥-١٧٧٤)

الوصاية (١٧١٥-١٧٢٣)

توفي لويس الرابع عشر وأصبح حفيده لويس الخامس عشر ملكاً على فرنسا ، ولما كان عمر الملك الجديد خمس سنوات ، أوصى لويس الرابع عشر بتشكيل مجلس وصاية تحت رئاسة ابن أخيه فيليب دوق اورليان ، ولكن فيليب عمل على تغيير الأعضاء وعين غيرهم حتى يمكنه السيطرة عليهم ولقد استعان في ذلك ببرلمان باريس الذي كان تواقا لاستعادة سلطته التي فقدها في عهد لويس الرابع عشر ، كما أهمل فيليب تثقيف الملك الصغير ، وإتبع سياسة خارجية ضعيفة ، ولم ينجح في محاولاته العديدة لإصلاح بعض المساوىء في المؤسسات السياسية والاقتصادية التي خلفها لويس الرابع عشر . وإتسمت هذه المدة في تاريخ فرنسا في الأزمات الاقتصادية والصعوبات المالية التي مرت بها فرنسا ، وكانت هذه الصعوبات ترجع الى عهد الحكم السابق وكثرة الحروب وطول أمدها ، وكان لويس الرابع عشر قد ترك الخزانة خاوية تماماً عند وفاته سنة ١٧١٥ ولا تحتوي إلا على ٨٠٠٠٠٠ جنية ، وكانت ايرادات الدولة تصل الى ٧٥ مليون جنيه سنوياً ، في الوقت الذي كانت فيه مصروفات الدولة تصل الى ١٤٠ مليون جنية سنوياً .

وفي عام ١٧١٧ عرض أحد المغامرين الاسكتلنديين المدعو جون لو على الوصي طريقة يخفف بها من ثقل الديون على كاهل الحكومة ، وذلك بتأسيس شركة تقوم بمهام التجارة في المستعمرات الفرنسية ، وتقوم بجمع الأسهم في طول البلاد وعرضها ، وإستخدام ما ينتج عن ذلك من موارد لتسديد الديون الوطنية ، وكان جون لو قبل ذلك قد أسس مصرفاً فرنسياً ، ودمج المصرف مع الشركات التجارية الأخرى مثل شركة المسيسيبي وشركة الهند الشرقية الفرنسية والشركة الأفريقية ، وأصبحت هذه الشركات وكأنها مؤسسة حكومية واحدة ، فأقبل الناس على شراء أسهمها بشكل كبير .

أصبح جون لو في عام ١٧٢٠ مديراً للمالية الفرنسية ، وهو أكبر منصب مالي في البلاد آنذاك ، ونتيجة لبعض الاخطاء التي حدثت كتقييد استخدام العملة المعدنية ، وخصم

قيمة الأوراق النقدية الى النصف تزعزعت ثقة الناس بمشروع لو وخلال أيام قليلة تدهورت أسعار الأسهم بسرعة فائقة ، وأفلس المشروع وهرب جون لو . ولما أعلنت الحكومة الفرنسية أنها لاتقبل الأوراق النقدية عندئذ نزل سعر الأسهم الى الثلث ، لكن مؤسسة مالية في باريس بإسم دوفرو اخوان جاءت لإنقاذ الوضع وإنتهت المشكلة .

تولي لويس الخامس عشر الحكم (١٧٢٣-١٧٧٤)

كانت فترة حكم لويس الخامس عشر، هي أطول فترة حكم في تاريخ فرنسا ، بعد فترة لويس الرابع عشر ، وامتدت تسع وخمسين سنة من أيلول ١٧١٥ الى ايار ١٧٧٤ ، واشتملت على فترة الوصاية عليه حتى عام ١٧٢٣ ، ثم فترة الحكم الشخصي ، وقد استمر الحكم المطلق الموروث في عهد لويس الخامس عشر فقد فرض الأخير ضريبة العقار وجعلها سنوية ، وكانت هذه الضريبة تذهب مباشرة لخزينة الملك الخاصة وينفقها كيفما يشاء ، وكان الملك يسجن من يريد ولوقت غير محدد ومن دون محاكمة ، وقد سميت هذه الاوامر الملكية القاضية بالسجن بالرسائل المختومة التي كان يصدرها أحياناً المقربين من الملك ضد خصومهم ، ولذلك لم تكن هنالك قوانين موحدة وعادلة في فرنسا ، وإستمر التمييز الطبقي حيث كان المجتمع منقسماً الى ثلاث طبقات النبلاء ورجال الدين والعامة ، ووقع عبيء الضرائب على كاهل الطبقة العامة دون غيرها .

توفي الوصي دوق أروليان عام ١٧٢٣ ، ولما بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد عين معلمه ومستشاره الكاردينال دي فاليري رئيساً للوزارة ، وحاول فاليري أن يضمن لفرنسا سلماً دائمياً وإصلاحات داخلية ولاسيما من الناحية المالية ، فقلل من المصروفات وشجع التجارة والصناعات الفرنسية ، لكن فاليري كان شيخاً مسناً ووجد نفسه في النهاية فاشلا في مهمة الإصلاح وتوطيد السلام ، لأن آل بوربون أنفسم كانوا ميالين الى الحرب والبذخ . وفي عام ١٧٢٥ تزوج لويس الخامس عشر من ماري ليبينسكا إبنة ملك بولندا السابق ، الذي كان قد فقد عرشه في نفس العام وعاش لاجئا في اسبانيا . استمر الكاردينال دي فاليري في إدارة أمور الدولة ، وحافظ فاليري على السلطة مدة سبعة عشر عاما حتى وفاته عام ١٧٤٣ ، وكان ملكا غير متوج لفرنسا رغم انه كان نفسه هو الذي علم لويس

الخامس عشر أن يحكم بنفسه ، وعمل فاليري على الاقتصاد في المصروفات وتنظيم الشؤون المالية ، حتى تمكن عام ١٧٣٨ من موازنة إيرادات والمصروفات .

حين توفي فاليري عام ١٨٤٣ اعتقد الجميع أن لويس الخامس عشر كان يحكم بنفسه وكان له ثلاثة وثلاثين عاما ، وكان وسيما ومحبوبا من قبل الشعب ، لكن الملك لم يعمل لإصلاح أوضاع البلاد ، فكان يتهرب من الإصلاح ويقضي أوقاته في الصيد والقنص والحفلات الليلية ، وتزايد نفوذ النبلاء ورجال الدين في عهده بشكل كبير الى حد إعفاءهم من دفع الضرائب ، في الوقت الذي كانت دول أوربا الأخرى تحكم من قبل ملوك أقوياء لهم شخصيتهم وقدراتهم في ذلك الوقت فكان هنالك فردريك الثاني في بروسيا (١٧٤٠-١٧٦٨) ، وماريا تريزا (١٧٤٠ ١٧٨٠) وجوزيف الثاني (١٧٨٠-١٧٩٠) في النمسا ، وكاترين الثانية (١٧٦٣-١٧٩٦) في روسيا وكان كل منهم يسعى لتأمين مصلحة بلاده ، وكان لويس الخامس عشر يعلم بخطورة الوضع في بلاده ولم يأبه لذلك ، وترك الحكم في أيدي الوزراء ، وكان يعيش حياة اللذة والترف في قصر فرساي ، وخاصة منذ سنة ١٧٥٠ فانقلبت محبة الشعب له الى كراهية حتى أن جماهير باريس هددوا بالهجوم على قصر فرساي وحرقه .

استمرت المشاكل المالية والتي ساهمت في خلق حركات معارضة للحكومة والملكية في فرنسا حتى في داخل البرلمان ، وفي المقابل انفق لويس الخامس عشر حوالي ٣٩٠ مليون جنية على بناء القصور وعلى الحفلات والنساء ، وكانت مخصصات أمراء الأسرة المالكة تتراوح بين نصف مليون جنية وتسعمائة ألف جنية سنويا ، وأدت هذه الحالة الى عجز الحكومة عن دفع مشترياتها ، وحتى عن دفع رواتب الجنود والضباط والجيش والبحرية ولمدة شهور طويلة ، كما أعفى الملك الطبقة الارستقراطية من الضرائب التي فرضتها الحكومة لمعالجة الأزمة ، وبدأت نتيجة لذلك معارضة قوية تظهر ابتدءا من عام ١٧٥٠ لإنتقاد مساوىء السلطة الملكية .

دخلت فرنسا في أثناء فترة حكم لويس الخامس عشر ثلاث حروب ، أولها هي حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٨) ودخلها لويس لكي ينتصر لصهره ضد تدخلات الحكومة الروسية في تنحيته وتعيين شخص آخر من مؤيدي روسيا ملكاً على بولندا ، وإنتهت الحرب بتوقيع معاهدة فينا عام ١٨٣٨ إنتقل بموجبها عرش نابولي وصقليا الى

اسبانيا ، وكذلك دوقية بارما بعد عام ١٧٤٨ ، أما دوقية اللورين فإنضمت الى فرنسا عام ١٧٦٦ ، وهكذا حل آل بوربون الذين يحكمون اسبانيا محل آل هبسبرك في الصقليتين وبارما . كما تدخلت فرنسا خلال مدة حكم لويس في حرب أخرى هي حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨) و حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، ودارت معارك هذه الحروب في أوربا وأمريكا وآسيا ، وكلفت فرنسا ثمنا باهظا ، هو إفلاس خزينتها وفقدان إمبراطوريتها الاستعمارية ، ومهدت السبيل للثورة الفرنسية ، ومع تلك المشاكل والأزمات كانت فرنسا أقوى دولة في أوربا وأغناها خلال القرن الثامن عشر .

ظهور بروسيا على مسرح الأحداث في أوربا

يعد دخول بروسيا في مجموعة الدول الأوربية الكبرى حدثاً هاماً من أحداث القرن الثامن عشر ، ويرتبط تاريخ بروسيا بأسرة هوهنزلرن وبالجيش البروسي ، وظلت الامبراطورية الرومانية المقدسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر تشمل العناصر الناطقة باللغة الألمانية ، وظل الديت الألماني يجتمع برئاسة الامبراطور ، وقد إنقسمت ألمانيا الى كاثوليك وبروتستانت ، وحتى البروتستانت إنقسموا الى كالفنيين ولوثريين ، وكان النزاع بينهما مستمراً ، وقد جلبت حروب الثلاثين عام في النصف الأول من القرن السابع عشر الدمار للبلاد ، وظهرت في ألمانيا بعد الحرب كيانات سياسية قوية إستطاعت أن تؤدي دور مهماً في المسرح السياسي في القرن الثامن عشر أهمها بروسيا .

كانت بروسيا إحدى المقاطعات الألمانية التي تعود في أصلها الى مقاطعة براندمبرغ الواقعة حول مدينة برلين والتي دخلت فيما بعد تحت سيادة آل هوهنزلرن ، وجعلت منها الإمبراطورية الرومانية المقدسة في العصور الوسطى ثغرا متقدما لها يحمي حدودها من الشرق ويرد عنها غازات القبائل السلافية ، وقد نجحت إمارة براندمبرغ في صد غازات المعتدين والتوسع أيضا بالامتداد شرقاً . وفي عام ١٤١٧ وهب الإمبراطور الى هوهنزلرن وهو احد الأشراف من جنوب ألمانيا حاكمية براندمبرغ مع منحه لقب ناخب ، وكان ذلك يعني أن الإمارة احتلت مركزاً متميزاً حيث خولها هذا اللقب مع ستة آخرين من الأمراء والأساقفة حق انتخاب الإمبراطور الألماني .

وفي عام ١٦١٨ إندمجت إمارة براندمبرغ مع مقاطعة بروسيا الشرقية ، وأخذت دولة بروسيا الصغيرة تلعب دورا متزايد الأهمية في الشؤون الألمانية ، واستطاعت توسيع أراضيها دون قتال ، وهكذا شهد القرن السابع عشر ضم دوقية كليف عن طريق الوراثة ، ومع منتصف القرن السابع عشر صارت لآل هوهنزلرن ممتلكات واسعة . إلا أن هذه الممتلكات لم تكن متصلة مع بعضها مما يجعل الدفاع عنها صعبا جدا ، كما كان يثير في الوقت نفسه مطامع الدول الأخرى ، ولهذا كان على حكام برلين أن ينتهجوا سياسة تتسم بالمرونة للعمل على اتصال أجزاء إمارتهم ، وقد شهدت أراضي بروسيا خلال حرب الثلاثين عام اجتياحا مستمرا من قبل جيوش ملك السويد وملك الدنمارك فأشاعوا الدمار فيها ، وما زاد في الأمر سوءا ضعف سياسة الناخب جورج وليم ١٦١٩–١٦٤٠ التي وسعت من طمع الآخرين في بروسيا كما أضاع عليها فرصة استغلال أحداث الحرب لتحقيق مكاسب إقليمية تسهل عملية اتصال أراضيها المتناثرة ، لكن أسرة هونزلرن استطاعت أن توسع أراضيها في معاهدة وستفاليا ، تلك المعاهدة التي جردت الامبراطور نوعا ما من اية سلطة على الدويلات الألمانية . وفيما يلي أهم الملوك الألمان الذين حكموا بروسيا وجعلوا منها دولة عظمى :

فردريك وليم الملقب بـ الناخب الكبير (١٦٤٠-١٦٨٨)

كان أمراء بروسيا من آل هوهنزلرن يلقبون أثناء القرن السابع عشر بناخبي براندمبرغ ، وقد لُقِّبَ فردريك وليم بالناخب الكبير لأنه يعد المؤسس الحقيقي لمملكة بروسيا ، وإستفاد هذا الناخب من حرب الثلاثين عام لتوسيع رقعة مملكته منتهزاً ضعف الإمبراطور ، فحصل على بوميرانيا الشرقية وعدد من الأسقفيات في مقدمتها مكدبرغ ، كان فردريك ميالاً الى الحكم المطلق المركزي ، وسعى لتركيز السلطة العليا في البلاد بيده ، ولذلك تمكن من تحديد سلطة المجالس الخاصة التي يسيطر عليها النبلاء وممثلو المدن في الأراضي البروسية الموزعة الى ثلاثة مناطق غير متصلة حيث تمكن من تجريد تلك المجالس من بعض سلطاتها السياسية وخاصة فيما يتعلق بأمور الضرائب فاخذ يجبي الضرائب مباشرة مما أمن له موارد مكنته من إيجاد جيش قوي دائم ، وقد أدرك النبلاء والبرجوازيون أبعاد سياسة فريدريك وليم فعارضوها بشدة وثاروا عليها ، إلا انه تمكن من الوقوف بوجه تلك الثورات

وأنهى سلطة مجالس المقاطعات واخضع البلاد لإدارة مدنية مركزية مارس فيها سيادة فعلية على جميع رعاياه .

وفيما يخص تشتت الأراضي الزراعية البروسية فقد كان شاغل فردريك وليم الأساسي وموجه سياسته التي اتصفت بالالتواء والمراوغة لحاجته الماسة لان يستمد من ضعفه العسكري والسياسي قوة تساعده في تحقيق أغراضه الملحة من الدول الكبرى ، فاستغل التناقضات بين بولندا والسويد ليفرض سيادته الكاملة على بروسيا الشرقية ، وفي مجال الاقتصاد شجع فردريك وليم الزراعة واستصلاح الأراضي وطور موارد البلاد الزراعية ، إلا إن إصلاحاته الاقتصادية جاءت بمردودات محددة بسبب فقر أراضي بروسيا وقلة عدد سكانها قياساً بأوربا ، لهذا استمر فردريك في الحصول على المساعدات المالية حتى نهاية حياته من اسبانيا وفرنسا وهولندا ، أما في المجال العسكري فقد انشأ اسطولاً قوياً في بحر البلطيق ، وكان إنشاء جيشه الممتاز من أهم الانجازات التي حققها ، ولقد بلغ تعداده عند وفاته عام ١٦٨٨ أربعون ألف جندي .

فردريك الأول (١٦٨٨ - ١٧١٣) وظهور الملكية في بروسيا

إستطاع فردريك الأول عام ١٧٠١ الحصول على إعتراف الإمبراطور ليوبولد الأول (١٦٨٥-١٧٠٥) به ملكاً على بروسيا مقابل إشتراكه في حرب الوراثة الإسبانية الى جانب النمسا ، وفي معاهدة اتراخت عام ١٧١٣ التي أنهت الحرب ، إعترفت جميع الدول الموقعة على المعاهدة ببروسيا مملكة مستقلة تحت حكم آل هوهنزلرن ، وأصبح حاكمها ملكاً بإسم فردريك الأول ، وبذلك أتيحت لملك بروسيا الفرصة للعمل على جمع أملاكه المبعثرة تحت تاج واحد ، وجمع فردريك الاول كل السلطة بيده ، وأضعف سلطة النبلاء والمجالس المحلية ، ونظم الإدارة والشؤون المالية ، وشجع الصناعة وإقامة المصانع ولاسيما مصانع الأسلحة في برلين ، ونمت بروسيا في عهده وأصبحت دولة كبرى ، وإزداد نفوس برلين ووصل الى ٢٠ ألف نسمة في نهاية القرن السابع عشر ، بينما كان بحدود ٨ آلاف في منتصف القرن ، كما أصبحت مملكة بروسيا في القرن الثامن عشر تشارك النمسا في زعامة ألمانيا ، لأنها أصبحت دولة عظمى من الدرجة الاولى .

فردريك وليم الأول (١٧١٣-١٧٤٠)

تولى هذا الملك حكم بروسيا وله من العمر ٢٥ عاماً ، وإتصف بالإقتصاد الى درجة الشح ليتمكن من زيادة قوة جيشه وتسليحه ، وكان جندياً بمعنى الكلمة وأنشأ كتيبة لتدريب الضباط ، وكان جميع الضباط في جيشه من أبناء النبلاء ، كما أنشأ الكثير من فرق الجيش ، وإهتم بتدريبها وتسليحها وكان يعتبر أن مهنة الجندية هي أشرف مهنة ، والتي عن طريقها يمكن لبروسيا أن تشق طريقها بين الدول ، وقرر فردريك وليم الأول تطبيق الخدمة الإلزامية بين رعاياه ، حتى أصبح جيشه من أفضل الجيوش في القرن الثامن عشر ، ورغم صغر مساحتها أصبحت بروسيا في عهده رابع دولة في أوربا من حيث القوة العسكرية ، وبلغ الجيش البروسي ٨٥ ألف جندي في عهده . أحظر فردريك وليم ٢٥ ألف لاجيء من جميع أنحاء اوربا الى بروسيا ، وأنشأ لهم مئات القرى وعدداً من المدن ، مما زاد عدد سكان بروسيا في عهده من ٤٤٠ ألف نسمة الى ٦٠٠ ألف نسمة .

شجع صناعة المنسوجات الصوفية وإستخدمها لكسوة رجال جيشه ، كما عمل على تصدير الكثير منها إلى الخارج ، وتمسك فردريك بالحكم المطلق كما هو حال أسلافه ، وفرض التعليم الإلزامي في بروسيا لإعتقاده أن التعليم والتهذيب يحسن نوعية جنوده ، وإستطاع أن يطور إمكانيات بلاده الإقتصادية ، كما تمكن من ضم الأراضي السويدية الواقعة على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق الى مملكته ، حتى أصبحت بروسيا في عهده من الدول العظمى في القرن الثامن عشر ، وترك فردريك وليم الأول لإبنه وخليفته جيشاً قوياً ومالاً وفيراً يساعده على مواصلة الإحتفاظ بالدولة ، واضطر الى سجن ولده فردريك الكبير وهدده بالإعدام بسبب ميوله للمطالعة والموسيقى وبغضه للعسكرية ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أعطاه وعداً بالتدريب على الأمور العسكرية والإدارية ، فأتقن ذلك في حياة أبيه الذي توفي عام ١٧٤٠ .

فردريك الثاني الكبير (١٧٤٠-١٧٨٦)

حكم فردريك الثاني مدة ٤٦ عام ، وعاصر كل من لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، وتحولت مملكة بروسيا في عهده الى دولة عظمى ، أمضى فردريك الثاني حياته المبكرة بصعوبة ، إذ كان والده يعامله بشدة ويريد أن يخلق منه جندياً ، في الوقت

الذي تميز فيه فردريك الثاني بمله الى الموسيقى والفلسفة والدبلوماسية ، وقد حاول الفرار حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ، بمساعدة أحد ضباط الجيش من أصدقاءه ، ولكن والده عذّب صديقه أمامه ثم قتله ، وبعد ذلك مرّنه والده على إدارة شؤون المالية ، ثم مرنه بعد ذلك على قيادة إحدى الكتائب ، وتمكن فردريك من أن يحول كتيبته الى كتيبة مثالية في الجيش .

تولى فردريك الثاني العرش عام ١٧٤٠ ، وله من العمر ٢٨ عاماً ، وكان ذكياً وحاذقاً إستخدم دبلوماسية مرنه في علاقاته الخارجية مستغلاً التناقضات بين بريطانيا وفرنسا لتحقيق مصالح بلاده ، وبعد تسلمه للعرش أظهر ميلاً شديداً الى الشهرة والمجد عن طريق الحرب والفتوحات ، وقد لُقّبَ بالمستبد العادل ، ضاعف فردريك الثاني من قوة مملكته بضم سيليزيا التي أخذها من النمسا ، وبضمه بروسيا البولندية التي أخذها من بولندا ، وذلك بعد دخوله في العديد من الحروب ، مثل حرب الوراثة النمساوية وحرب السنوات السبع ، وقد خرجت بروسيا من تلك الحروب ضعيفة لكنها منتصرة ، وأمضى فردريك الثاني العشرين سنة الاخيرة من عمره في إصلاح ما أفسدته حرب السنوات السبعة وفي تنمية ثروة مملكته ، وتمكن من تنظيم مالية بلاده ، وإهتم بالمحاكم وتحقيق العدالة ، وأشرف على جمع وتبسيط قوانين المملكة ، وألغى التعذيب في سبيل الحصول على الإعترافات ، وكان فردريك الثاني متسامحاً مع جميع الأديان والمذاهب لكنه كان يكره اليهود بسبب بعض الصفات الموجودة فيهم وليس لإعتبارات دينية .

وأسس فردريك اكاديمية العلوم في برلين وإهتم بالتقدم العلمي والتأمل العقلي ، وإهتم بأحوال البلاد الإقتصادية وخاصة الزراعة بإستخدام الأساليب العلمية في الزراعة ، وحاول تخفيف عبىء الضرائب على الفلاحين ، ونتيجة لسياسته الاقتصادية إستطاع أن يوفر مالاً ليزيد عدد جيشه ، ثم عمل بعد ذلك على تشجيع المهاجرين للاستيطان في بروسيا ، ووطن ٦٠ ألف مهاجر في منطقة سيليزيا ، وإزداد عدد سكان بروسيا في عهده من ٢,٥ مليون الى ٦ مليون نسمة ، أما الجيش فقد إزداد عدده كذلك من ٨٠ ألف الى حدود ٢٠٠ ألف جندي ، وأصبح من الجيوش الأوربية المتطورة ، كما أخذ ملك بروسيا دوره في الإشتراك في تسوية المسائل الدولية الكبرى بالإشتراك مع ملوك بريطانيا وفرنسا والنمسا

وروسيا ، ولم يدخل فردريك بعد عام ١٧٦٣ في حرب ، وقد نال حصته من تقسيم بولندا عام ١٧٧٢ بين روسيا وبروسيا والنمسا ، وخلفه في العرش فردريك وليم الثاني (١٧٨٦-١٧٩٧) الذي شهد عهده تقسيم بولندا مرتين ١٧٩٣ و ١٧٩٥ ، فتوسعت بلاده وتوحدت بعد أن كانت الأجزاء الوسطى من مملكته براندمبرغ وسيليزيا وبوميرانيا منفصلة إنفصالاً كلياً ، فكان تقسيم بولندا هو الحل الامثل لتوحيد أراضيه يساعده في ذلك ضعف بولندا وإتفاق دول الجوار معه ، وهكذا ظهرت وتطورت مملكة بروسيا التي ادت دوراً كبيراً في صياغة أحداث التاريخ الألماني في القرن التالي .

روسيا في عهد كاترينا الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦)

توفي بطرس الكبير عام ١٧٢٥ دون ان يعهد الى من يخلفه لأنه قتل إبنه وولي عهده في حياته لمخالفته إياه الرأي ، وتحت ضغط حراس القصر أصبحت أرملته كاترينا قيصرة على روسيا ، لكن السلطة الحقيقية إنتقلت الى المجلس الأعلى المكون من رجال الدولة الكبار ، وإستمر المجلس يمارس السلطة الى حين وفاة كاترينا عام ١٧٢٧ ، وكان بطرس الثاني ابن الكسيس وحفيد بطرس الكبير قاصراً ومات بالجدري قبل أن يتوج عام ١٧٣٠ ، فإستدعى المجلس الأعلى قريبات زوجة بطرس الكبير وهما آن واليزابيث اللتان حكمتا روسيا على التوالي وبقيت السلطة الفعلية بيد المجلس الأعلى ، ولما توفيت آن وبعد اضطرابات داخلية تولت اليزابيث عرش روسيا عام ١٧٤٢ . وخلال مدة حكم خلفاء بطرس الكبير منذ زمن كاترينا الثانية وآن واليزابيث ، لم تشهد روسيا تحقيق إنجازات مهمة ، فقد تدخلت القيصرة آن في حرب الوراثة البولندية (١٧٣٢-١٧٣٨) لمعارضتها المرشح الفرنسي للعرش البولندي ، كما إن الحرب ضد الدولة العثمانية لم تكن مثمرة ، وخلال حكم القيصرة اليزابيث تدخلت روسيا في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) بجانب فرنسا ضد بروسيا ومن دون أن تحقق روسيا إنجاز أو فائدة تذكر . وبعد وفاة اليزابيث إنتقل العرش الى إبن أخيها بطرس الثالث عام ١٧٦٢ ، ولكن هذا القيصر توفي بعد ستة أشهر وترك العرش لزوجته الألمانية كاترينا التي عرفت بكاترينا الثانية ، وهكذا فإن السنوات الأربعين التي فصلت بين بطرس الكبير وكاترينا الثانية كانت عقيمة بالنسبة لروسيا .

كانت كاترينا أميرة ألمانية بروتستانتية لها من العمر ٣٣ سنة وحكمت حتى عام ١٧٩٦ ، وكانت ذكية ونشطة وطموحة ، وقيل إنها إبنة فردريك الكبير ملك بروسيا . وبالرغم من أنها كانت من أصل ألماني إلا إنها كانت اقرب القياصرة الى قلوب الروس ، وعرفت كيف تتعامل مع أبناء البلاد ، فتعلمت اللغة الروسية وقربت الروس بدلاً من الألمان وأظهرت وطنية صادقة وتظاهرت بالارثوذكسية ، وكانت الأكثر نشاطا بين ملوك أوربا المعاصرين لها مثل فردريك الثاني وماريا تريزا وجوزيف الثاني ، وكانت تعمل خمسة عشر ساعة في اليوم مما أعاد الى الأذهان ذكرى بطرس الكبير، وكانت في نفس الوقت شديدة في حكمها ومنحت امتيازات كثيرة للاقطاعين النبلاء على حساب الفلاحين ، وحكمت البلاد بيد من حديد .

السياسة الداخلية

اهم أعمال كاترينا الثانية في الداخل كان في مجال التنظيم الإداري والقضائي لإمبراطورية روسيا ، التي قسمتها الى خمسين حكومة وهو التقسيم الذي ظل موجودا حتى قيام الثورة البلشفية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأنشأت عددا ضخما من المحاكم كل منها متخصصة في النظر بقضايا الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ومن نبلاء وبرجوازيين وفلاحين أحرار دون ان تكون هناك محاكم لعبيد الأرض ، كما ركزت جهودها في مجال إصلاح الأراضي وإنشاء القرى الزراعية حيث أنشأت مايقارب من مائتي قرية ومدينة صغيرة وأحضرت لها المهاجرين بالآلاف من الفولغا وأوكرانيا ، مما أدى الى تكريس النظام الإقطاعي وسيادته في روسيا ، واستولت كاترينا على أملاك الكنيسة وجعلتها ملكاً للدولة ، وأصبح رجال الدين تحت سيطرة الدولة أيضاً .

عدّت كاترينا نفسها من المتأثرين بفلسفة الاستنارة التي سادت في ذلك الوقت عند الألمان ، فكانت مستنيرة ومستبدة في نفس الوقت ، وقربت المفكرين المعاصرين مثل ديدرو وفولتير ودعتهما الى روسيا ، وأسست المدارس والاكاديميات لتعليم الطبقة العليا الروسية وجعلت اللغة الفرنسية هي لغة الدبلوماسية والمجتمع الراقي ، وأرسلت شباب الطبقة الارستقراطية الى أنكلترا لمعرفة آخر التطورات العلمية والفنية وخاصة في الزراعة ، لكن كاترينا لم تبذل جهداً لتحسين أحوال الفلاحين الروس ، وقالت بصراحة لأحد النبلاء : **" إن**

تحسين أحوال الفلاحين وتعليمهم معناه إنتهاء حكم القياصرة والنبلاء " ، ولذلك ثار عليها الفلاحون الذين طالبوا بالغاء عبودية الأرض في روسيا ، إلا أن كاترينا قضت على الثورة وأعدمت قائدها بكاشيف عام ١٧٧٥ ، وبعد تلك الثورة ساند جميع النبلاء وملاك الأراضي كاترينا ولم يعارضوها .

السياسة الخارجية

أما في السياسة الخارجية فإن كاترين الثانية قد واصلت سياسة بطرس الكبير الخاصة بتحطيم الجدار الذي كان يفصل روسيا عن أوربا متمثلا في الدولة العثمانية وبولندا ، وبعد أن إستولى بطرس الكبير على أراضي السويد في شرقي بحر البلطيق ، وكانت بولندا (بولونيا) الدولة المجاورة لروسيا تمر في مرحلة فوضى سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولما توفي أغسطس الثالث ملك بولندا بعد إنتهاء حرب السنوات السبع ، أخذت كاترينا الثانية تتدخل في شؤون بولندا ، وبتحريض من فردريك الكبير أقنعت نبلاء بولندا بإنتخاب بونيا توفسكي أحد المقربين من القيصرة ملكاً على بولندا عام ١٧٦٤ بإسم ستانسلاوس الثاني ، ولما أصبح هذا ملكاً سيطر الروس على بولندا ، وواجه الملك البولندي الجديد ثورة داخلية فأرسلت كاترينا جيشاً روسياً لإخمادها ، ولما عبر الجيش الروسي بعض أراضي الدولة العثمانية للوصول الى بولندا نشبت الحرب بين الطرفين .

إستمرت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا للمدة (١٧٦٨-١٧٧٤) ، وكانت الدولة العثمانية تقاتل روسيا لخشيتها من أن تكون الهدف التالي بعد بولندا ، وكانت فرنسا تشجع الأتراك في حربهم ضد روسيا لكن لويس الخامس عشر لم يقدم لهم دعماً حقيقياً بسبب الأزمة المالية في بلاده ، اما الدولة العثمانية فكانت في وضع سيء من حيث التنظيم والتسليح والتدريب العسكري ، فتوالت الهزائم على الجيش العثماني ، وأستولت روسيا على آزوف وولايتي ولاكيا ومولدافيا في رومانيا ، وادت هذه التطورات الى إبرام معاهدة كجك كينارجي عام ١٧٧٤ ، وتضمنت مايلي :

١- تنازل الدولة العثمانية عن آزوف وماجاورها من الأراضي شمال البحر الأسود الى روسيا .

٢- تبقى رومانيا بحوزة الدولة العثمانية وكذلك اليونان ، على أن يقوم السلطان ببعض

الإصلاحات .

٣- حرية الملاحة للسفن الروسية في المياه العثمانية .

٤- تكون روسيا هي الحامية للكنيسة الأرثوذكسية في اسطنبول .

وأصبح نهر الدنيستر حداً بين روسيا والدولة العثمانية بموجب معاهدة أخرى وقعت عام ١٧٩٢ ، وهكذا فإن روسيا أصبحت الدولة الرئيسية الاقوى في البحر الأسود ، وحصلت على منفذ للمياه الدافئة ، ونفوذاً كبيراً بين رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس . اما بولندا فقد إتفقت روسيا مع بروسيا والنمسا على تقسيمها عام ١٧٧٢ ، وأخذت روسيا كل الأراضي الواقعة شرق نهر الدون والدنيبر ، وأخذت بروسيا ، بروسيا الغربية بإستثناء ميناء دانزك ، كما أخذت النمسا غاليسيا عدا مدينة كاراكاو ، وبذلك جردت بولندا من ربع أراضيها وخمس سكانها ، وفي عام ١٧٩٣ قسمت بولندا مرة أخرى بين الدول الثلاث ، وقسمت نهائياً في عام ١٧٩٥ وأزيلت بولندا بعد التقسيم الأخير عن خارطة أوربا ، توفيت كاترينا الثانية عام ١٧٩٦ وقد تمكنت من أن تجعل روسيا قوة عظمى بمضاعفة سيطرتها على السواحل الشرقية لبحر البلطيق ، ووصولها الى البحر الأسود ، كما نجحت كاترينا في ضم أوكرانيا ومعظم بولندا الى روسيا .

انكلترا في عهد آل هانوفر (١٧١٤-١٩٠١)

كانت الثورة الجليلة عام ١٦٨٨ قد أكدت سلطة الشعب ، وإنتقل العرش البريطاني بعد الثورة الى وليم اورانج وزوجته ماري الثانية ثم الى الملكة آن ، وفرضوا عليهم أن يتعهدوا بالقسم على احترام الحقوق المحددة في تصريح رسمي ، وكان على الملك طبقا لهذا التصريح ألا يوقف سريان القوانين ولا يفرض الضرائب أو يجند الجيش دون مواقفه البرلمان ، واضطر ملوك بريطانيا في أوائل القرن الثامن عشر الى احترام مبادئ الثورة الجليلة الدستورية ، خاصة وإنهم كانوا من أسرة حاكمة جديدة هي أسرة هانوفر التي لم تكن لها جذور في البلاد ، وعند وفاة الملكة آن في الاول من آب ١٧١٤ رفض البرلمان البريطاني إنتقال العرش الى أخيها الكاثوليكي بإسم جيمس الثالث فتحول التاج الى ناخب هانوفر حسب مرسوم وراثة العرش الموقع بعد وفاة الملكة ماري الثانية ، وكان ناخب هانوفر حفيدا لجيمس الأول ، وأصبح ملكاً على بريطانيا بإسم جورج الأول عام ١٧١٤ .

جورج الأول (١٧١٤-١٧٢٧)

وصل جورج الأول الى العرش البريطاني وله من العمر ٥٤ عاماً ، وكان ألمانياً لا يتحدث اللغة الانكليزية ويتحدث مع وزراءه باللاتينية ، وظل ملوك بريطانيا يحكمون هانوفر وبريطانيا العظمى في نفس الوقت ، وكانوا يفكرون في هانوفر أكثر مما يفكرون في بريطانيا ، وربما نظروا الى الأخيرة على إنها من ملحقات هانوفر، وساعد كل ذلك على قله حضورهم في الاجتماعات ومداولات مجلس الوزراء ، وتركوا الوزراء يحكمون بأنفسهم وبعد ستة وثلاثين عاما من هذا الغياب الملكي تدعم التقليد بان الملك يملك ولا يحكم في بريطانيا ، وهكذا أصبحت السلطة في أيدي زعماء الحزب الأقوى في البلاد وهو الحزب الذي يسيطر على الأغلبية في مجلس العموم ، وكان في بريطانيا حزبين رئيسيين كما ذكرنا هما حزب الويك (الأحرار) وحزب التوري (المحافظين) وكان الأحرار من أهم المدافعين عن امتيازات الشعب ، اما حزب المحافظين فكانوا يدافعون على الإمتيازات الملكية ، كما كانوا من أنصار تقوية السلطة الملكية وقيامها بدور رئيسي في قيادة الدولة ، وقد احتفظ الاحرار بالسلطة خلال ما يقارب نصف قرن بدون انقطاع من سنة ١٧١٤ الى سنة ١٧٦٠ ، وحتى وصول جورج الثالث الى العرش .

كان الاحرار هم الأغلبية في مجلس العموم البريطاني في إنتخابات عام ١٧١٥ ، ولما حاول حزب المحافظين إقناع جيمس الثالث إبن الملك المخلوع بتغيير مذهبه الى البروتستانتية تمهيداً لعودته لحكم بريطانيا ، إتهمهم الاحرار بالتآمر فطاردوا عدد كبير من قادتهم الذين فروا الى القارة الأوربية ، وقد أدى إضطهاد الأحرار للمحافظين الى نشوب ثورة مؤيدة لجيمس الثالث عام ١٧١٥ سميت بثورة اليعاقبة لإعادة آل ستيوارت الى عرش بريطانيا ، إلا أن الثورة فشلت بسبب ضعف جيمس الثالث كقائد للثورة إذ لم يستطع وضع خطة عسكرية لحملته ، كما أن موقفه من الكنيسة الانجليكانية لم يكن واضحاً لدى مؤيديه ، فضلاً عن وفاة لويس الرابع عشر الذي كان قد تعهد له بالمساعدة في ذلك الوقت ، وعليه لما بدأت ثورة اليعاقبة في مرتفعات اسكتلندا دون تخطيط سابق ، وبتأييد قليل من حزب المحافظين تمكنت الحكومة البريطانية من إخمادها بسرعة ، وهذا هو السبب الذي جعل

الملك جورج الأول يتمسك بالأحرار في حكم بريطانيا ، وظل آل هانوفر مهددين من قبل آل ستيوارت حتى عام ١٧٤٥ حيث تم القضاء على آخر ثورة قام بها شارل ادوارد حفيد جيمس الثالث .

كان الوضع السياسي في اوربا غير مستقر ، لأن معاهدة اتراخت أثارت الكثير من السخط في الأوساط الأوربية ، فقد إحتجت إسبانيا على سيطرة النمسا على ايطاليا وحاول الملك الإسباني فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، الحصول على العرش الفرنسي ، بينما أراد امبراطور النمسا شارل السادس عرش اسبانيا وجزيرة صقلية التي أخذتها مملكة سافوي ، وفي الوقت نفسه كانت دول شمال أوربا في حرب مع السويد ، وقد تمكن جورج الاول من ان يبرم إتفاقية ويستمنستر عام ١٧١٦ مع النمسا ، نصت على المساعدة المتبادلة للطرفين للدفاع عن ممتلكاتهما ، كما وقّع جورج الأول مع فرنسا إتفاقية ضد الطامعين في العرش في كلا البلدين . وبرز من حزب الاحرار رئيس الوزراء السير روبرت والبول ، الذي أظهر خلال مدة رئاسته للوزارة البريطانية (١٧٢١-١٧٤٢) مقدرة فائقة في إدارة الدولة ، وتركيز قواعد الحكومة على أسس رصينة وإتبع سياسة لاتثير المعارضة الداخلية وكان يساير الرأي العام ، ووجد والبول أن مصلحة البلاد تتناقض مع فرنسا واسبانيا في التجارة والمستعمرات ، ومع ذلك إتبع سياسة سلمية معهما ، وإعتقد أن السلام ضروري لرخاء بلاده وإستقرارها .

إهتم والبول بالصناعة وتصدير المصنوعات للحصول على العملة والبضاعة الأجنبية ، كما ألغى الضرائب المفروضة على الصادرات ، وخفض الضرائب على الواردات التي تحتاجها بلاده فنشطت التجارة والصناعة ، وأصبحت بلاده أحسن تنظيماً من أية دولة أوربية أخرى إقتصادياً ، ويعد والبول أول رئيس وزراء في بريطانيا بالمعنى الحديث ، وتحت قيادته ظهر نظام الوزارة وتطور وأصبح مستقلاً عن الملك ، وإبتعد الملك تدريجياً عن جلسات مجلس الوزراء ، وترك رئاسة الجلسة لوزيره الأول السير روبرت والبول لأنه لايتكلم الأنكليزية ، وأصبحت هذه الظاهرة قاعدة عامة في زمن الملك جورج الثاني ، الذي لم يتكلم الانكليزية أيضاً ، وأصبح الحزب ذو الأغلبية في مجلس العموم البريطاني هو من يشكل الوزارة ، ولأول مرة استعملت كلمة رئيس الوزارة في زمن والبول

، وأصبحت الوزارة مستقلة عن الملك وتعتمد على ثقة أكثرية مجلس العموم لبقائها في الحكم .

جورج الثاني (١٧٢٧-١٧٦٠)

إستمر والبول في الوزارة حتى عام ١٧٤٢ ، وبإستقالته من رئاسة الوزارة فقد جورج الثاني أفضل الإداريين في عهده ، وكانت إستقالته بسبب تكتل بعض الشباب البارزين في حزب الأحرار ضده ، وكان قد اخرجهم من الوزارة في وقت سابق بسبب وقوفهم ضد سياسته الخارجية ، وتعود تلك المسألة الى عام ١٧٣٣ حينما وقعت اسبانيا وفرنسا اتفاقية سرية ضد بريطانيا في مجال السياسة التجارية والاستعمارية ، وعند إندلاع حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣-١٧٣٨) أعلن والبول حياد بلاده فيها كما توسط لإنهائها ، وكون علاقات صداقة مع اسبانيا وفرنسا حتى بعد معرفته بالإتفاقية السرية ضد بلاده ، لذا إنتهز معارضوه من كلا الحزبين الفرصة للهجوم على سياسة والبول التي أضرت بمصالح بريطانيا التجارية والاستعمارية حسب إدعائهم ، وفي الوقت نفسه إنتشرت قصص حول معاناة البحارة البريطانيين من سوء معاملة البحارة الاسبان ، الذين كانوا لايزالون يحتكرون التجارة في مستعمراتهم ويفتشون السفن البريطانية ويعتقلون بحارتها ، حاول والبول حل القضية بالمفاوضات بأن تدفع اسبانيا تعويضات للبحارة البريطانيين عن هذه الخسائر ، لذا إتهمه خصومه بالتخاذل بدلاً من إعلان الحرب ، ولما ثار الرأي العام البريطاني إضطر والبول الى إعلان الحرب بالضد من رغبته وقدم إستقالته التي رفضها جورج الثاني .

كانت الحرب أول الأمر لصالح بريطانيا ، إلا أن إندلاع حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ التي دخلتها فرنسا لتجزئة الامبراطورية النمساوية ، جعلت جورج الثاني يفكر في دخولها مع النمسا وضد فرنسا ، لكنه عاد ووقف على الحياد خشية فقدانه مقاطعة هانوفر الألمانية ، فثار الرأي العام البريطاني ضد الحكومة ، ولما أجريت إنتخابات عام ١٧٤١ فاز المعارضون واستقال والبول بداية عام ١٧٤٢ ، ولما تولى جورج الثاني قيادة إحدى الحملات العسكرية ضد فرنسا بعد دخوله الحرب ، إنتهز شارل ادوارد حفيد الملك جيمس الثاني الفرصة فشن الحرب على بريطانيا بمساعدة الاسكتلنديين ، إلا أن البريطانين

إنتصروا عليه في معركة كولودين عام ١٧٤٦ وبذلك إنتهت آخر محاولات آل ستيوارت لإستعادة العرش .

ولم يكن خلفاء والبول يمتازون بالكفاءة بإستثناء وليم بت ، الذي أبعده الملك عن الوزارة لأنه كان يكرهه ، لكن دخول بريطانيا في حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، وعدم إستطاعة الوزارة تسيير دفة الحرب ، أجبر الملك على إستدعاء وليم بت ليكون رئيساً للوزارة عام ١٧٥٧ ، وبرز وليم بت في البرلمان الانكليزي من خلال خطاباته المنمقة بحيث عُدّ أبلغ أهل زمانه ، وكان رجلاً ثرياً جمع أمواله من التجارة ، عارض بت سياسة رئيس الوزراء روبرت والبول فأصبح يمثل المعارضة ، وبعد تكليفه برئاسة الوزارة تمكن بت من تخليص البلاد من الخطر الداهم من خلال تحطيم قوة فرنسا في تلك الحرب ، وحصلت بريطانيا على مستعمرات فرنسا في الهند وكندا ، ولما علم بت بإتفاق فرنسا مع اسبانيا سراً عام ١٧٥٩ ، إقترح على زملاءه إعلان الحرب على اسبانيا فرفضوا فإستقال ، وبعد عام واحد توفي جورج الثاني .

جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠)

ولد جورج الثالث في انكلترا عام ١٧٣٨ في بريطانيا ، وكان أبوه فردريك إبن جورج الثاني قد توفي سنة ١٧٥٧ ، وكان جورج الثالث مختلفاً عن سابقيه فكان له من العمر اثنين وعشرين عاماً حين تولى الملك ، وكان قد ولد وتربي في بريطانيا فكان انكليزياً في كل شيء ، وإهتم بشؤون مملكته كملك يريد أن يمارس الحكم بنفسه ، وكان جورج الثالث يسعى الى إنهاء سلطة الحكومة البرلمانية وتقوية السلطة الملكية ، واستعان جورج الثالث بحزب المحافظين الذي كان نفوذه قد تضائل واضطر الى التسليم الى أسرة هانوفر حتى يصل الى الحكم ، لاسيما وإن المحافظين كانوا من أنصار المحافظة على امتيازات الملك ، كما أن جورج الثالث استخدم الرشوة لشراء عدد من نواب الأحرار حتى يساعدوا المحافظين في البرلمان . وتدريجياً تخلص الملك جورج الثالث من الأحرار وأحل المحافظين محلهم محاولاً تقوية سلطته الملكية في مواجهة البرلمان الذي إزدادت قوته منذ الثورة الجليلة فضلاً عن عهد أسلافه من آل هانوفر ، وكان لهذه السياسة آثار سيئة في الداخل وأثارت معارضة وطنية قوية ضد الاتجاهات الملكية الجديدة ، الأمر الذي أدى الى

نمو الصحافة من جانب والى إثارة فكرة ضرورة القيام بإصلاح النظام الانتخابي من جانب آخر ، وقد شهد هذا العصر ظهور صحف عديدة أهمها صحيفة التايمز .

كانت بريطانيا طوال هذه المدة هي الدولة الأوربية الوحيدة التي رفضت الخضوع لإرادة الملوك ، وظل البرلمان فيها يشارك في إدارة شؤونها في ظل قانون يحمي الأملاك والحريات ضد السلطة المطلقة للحكام ، وكان الفرنسيون والأجانب المقيمون في بريطانيا في ذلك الوقت أُعجبوا في هذا النظام ورغبوا في تطبيقه في بلادهم ، وقد ساعد استقرار النظام البرلماني على نمو بريطانيا في جميع المرافق وشهد القرن الثامن عشر ولاسيما عام ١٧٦٠ نمو الثروة الاقتصادية ، وبعد أن كانت بريطانيا بلدا زراعيا بدأت تتحول الى دولة صناعية كبيرة ويعود ذلك الى زيادة عدد سكانها وتوفر الأيدي العاملة ورؤوس الأموال ، كما وأصبحت بريطانيا من أغنى الدول الأوربية بالحديد والفحم والصناعات المعدنية إذ لم يستطع احد منافستها لمدة طويلة ، ومنذ عام ١٧٦٧ شقت الأنهار والترع ما بين ليفربول ومانشستر ، وأصبحت لديها شبكة مواصلات نهرية لنقل المواد الخام بأسعار زهيدة ، كما تم اختراع عدد من الآلات لمعالجة القطن وغزله ، كما وتم اكتشاف القوة البخارية مما زاد من قوة بريطانيا ورخائها الاقتصادي وأصبحت أول دولة صناعية في العالم .

إعتمد جورج الثالث على حزب المحافظين في حكم بريطانيا فكلف لورد بيوت ليشكل الوزارة عام ١٧٦١ ، فأعلن الأخير الحرب على اسبانيا فإستولى البريطانيون خلال الحرب على هافانا ومانيلا عام ١٧٦٢ ، ولما إنتهت حرب السبع سنوات وقعت معاهدة باريس عام ١٧٦٣ ، التي حصلت بموجبها بريطانيا على كندا فضلاً عن السيطرة التامة على الولايات المتحدة حتى غرب المسيسيبي ، كما حصلت بريطانيا على فلوريدا من اسبانيا وأعادت إليها هافانا ، وبإنتهاء حرب السبع سنوات تقلصت امبراطورية فرنسا الإستعمارية وراء البحار ، وفي عام ١٧٧٠ شكل لورد نورث الحكومة البريطانية من حزب المحافظين واستمرت في الحكم حتى عام ١٧٨١ ، وفي تلك الأثناء إندلعت ثورة في المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية عام ١٧٧٤ ، والتي تحولت بتأييد من فرنسا الى دولة مستقلة هي الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٣ .

لما وجد الملك جورج الثالث أن حكومته المحافظة أصبحت مكروهه اضطر أن يقيل لورد نورث وتعيين حكومة جديدة تقوم بإصلاحات ، ومن بين الإصلاحات الضرورية التي قامت بها الحكومة البريطانية أصبح البرلمان الإيرلندي مستقلاً في عام ١٧٨٢ ، وأصبح من حق الكاثوليك أن يصوتوا في الانتخابات للبرلمان الايرلندي ، وفي عام ١٨٠٠ اندمج البرلمان الايرلندي بالبرلمان البريطاني على غرار البرلمان الاسكتلندي والانكليزي عام ١٧٠٧ ، وعرفت بريطانيا بعد هذا التاريخ بإسم المملكة المتحدة . وإستمرت المطالبات بالإصلاحات البرلمانية ووضع قيود أكثر على النظام الملكي ، وتوسيع حق التصويت ليشمل كل فئات المجتمع البريطاني ، وأغلب المطالبين بالإصلاحات كانوا من حزب الأحرار ، لكن إنشغال الحكومة البريطانية بأحداث الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وماتبعها من حروب أدى الى تأجيل تنفيذ الاصلاحات البرلمانية في بريطانيا الى مطلع ثلاثينيات القرن التاسع عشر .

التنافس البريطاني-الفرنسي في المحيط الهندي

كانت الهند تحكم من قبل اسرة مغولية منذ القرن السادس عشر ، وشجعت هذه الاسرة التجارة ، ونتيجة لذلك أسس البريطانيون شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠١ للمتاجرة مع الهند ، وتوالى تأسيس المراكز التجارية البريطانية في الهند مثل مزولي باتام عام ١٦١١ ، وسورات ١٦١٢ ، وحصل البريطانيون على ثلاثة مراكز تجارية رئيسية في الهند ، المركز الأول حصن سانت جورج عام ١٦٤٠ الى الجنوب من مدراس ، والثاني بعد أن حصلت بريطانيا على مدينة بومباي في الساحل الغربي من الهند عام ١٦٦٢ ، والثالث هو كلاكتا على خليج البنغال التي بنيت عام ١٧٨٦ . في حين أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٦٠٤ في زمن الملك هنري الرابع ، لكن المركز التجاري الفرنسي لم يتأسس في سرات إلا في عام ١٦٦٨ ، وبدأ التنافس البريطاني-الفرنسي في الهند نهاية القرن السابع عشر ، وكانت المراكز التجارية الفرنسية في شاندرناغار ومركزهم التجاري الآخر بالقرب من مدراس في خطر كبير نتيجة لعدم إستقرار العلاقات البريطانية-الفرنسية .

أصبحت فرنسا رغم دخولها ميدان الإستعمار ببطء منافساً قوياً وخصماً عنيداً لبريطانيا ، وكانت فرنسا أغنى من بريطانيا واكثر نفوساً لكنها إنشغلت في الحروب

الأوربية ، واهمل لويس الرابع عشر تطوير الإسطول نتيجة لحروبه الكثيرة ، بينما كان البريطانيون بحكم موقعهم الجغرافي في وسط البحر وإنعزالهم عن القارة الأوربية ، إهتموا بالقوة البحرية وبناء اللإسطول بصورة متزايدة منذ حرب الأرمادا عام ١٥٨٨ ضد اسبانيا ، ولهذا كانت الدول الأوربية تخشى مجابهة الاسطول البريطاني في عرض البحار . انشأت فرنسا عددا كبيرا من الشركات التجارية الواحدة بعد الأخرى ، لكن هذه الشركات لم تتمكن من القيام بشيء مهم رغم حصولها على حق احتكار التجارة في الشرق في المناطق الواقعة فيما وراء رأس الرجاء الصالح ، وبعد ذلك نشأت شركة فرنسية حصلت على حق احتكار التجارة فيما بين رأس الرجاء الصالح ومضيق جبل طارق ، واستطاعت هذه الشركة من تحقيق بعض النجاح رغم المنافسة الانكليزية ، كما نجحت فرنسا بمنافسة الانكليز في أفريقيا والمحيط الهندي والمحيط الهادي . وطبقت فرنسا سياسة الاحتكار الاستعماري ووضعت المستعمرات في مرتبة المقاطعات الفرنسية وصادر الفرنسيون كل سفينة أجنبية تمر أمام السواحل والجزر التابعة لهم وعاقبوا بحارتها بالسجن والتجديف الإجباري في السفن الفرنسية مع دفع الغرامة .

وفي عام ١٧٤١ عينت فرنسا دوبلي حاكماً فرنسياً عاماً في الهند ، فأخذ يتقرب من أمراء الهنود وأسس جيشاً مدرباً منهم ، وبنى حصوناً تابعة لفرنسا هناك ، لكن دوبلي إصدم بنفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتمكن روبرت كلايف من طرد الفرنسيون والهنود الموالين لهم من كارناتيك ، وكلايف هو أحد موظفي شركة الهند الشرقية البريطانية ، لكنه انخرط في الجيش البريطاني بين عام (١٧٤٠-١٧٤٨) وبين كفاءة عظيمة بالحرب ، ورجع بعد الحرب الى مهنته الأولى ، إستدعت الحكومة الفرنسية دوبلي عام ١٧٥٤ الى فرنسا فأصبح كلايف سيد المنطقة ، وفي عام ١٧٥٦ إستولى روبرت كلايف على شدندغار الواقعة تحت السيطرة الفرنسية ، وكان الصراع في أوربا غالبا ما ينعكس على الصراع في المستعمرات مثلما حدث مع حرب السبع سنوات عندما اشتبك الانكليز والفرنسيون في حرب شاملة في أوربا وخارجها ، وأسفرت تلك الحرب عن استيلاء بريطانيا على أملاك فرنسا في الهند وأصبح الساحل الشرقي للهند تحت السيطرة البريطانية بما فيها البنغال ، وسمح للفرنسيين بالتجارة مع مراكزهم القديمة في الهند دون استعمارها .

وفي عام ١٧٦٥ عاد روبرت كلايف الى بريطانيا ومنحه الملك جورج الثالث لقب لورد وعُيِّن حاكماً على الهند ، وخلفه في هذا المنصب ويزن هستنغ الذي أصبح أيضاً حاكماً على ولاية البنغال ، ترقى هستنغ بعدها فأصبح حاكماً على جميع الممتلكات البريطانية في الهند عام ١٧٧٤ ، وكانت الهند قد أصبحت جزءاً أساسياً من الامبراطورية البريطانية بموجب قانون سنه البرلمان البريطاني قبل ذلك بعام واحد ، وأسس هستنغ إدارة مركزية قوية في الهند ، ثم خلفه كورنواليس(١٧٨٦-١٧٩٣) ثم المركيز ولزي (١٧٩٨-١٨٠٥) فتوسعت الممتلكات البريطانية في الهند ، وخضع لها أغلب الأمراء الهنود الذين أصبحوا يتقاضون الرواتب من البريطانيين . وظهرت بريطانيا كأقوى دولة استعمارية في أوربا عام ١٧٦٣ ، واستطاع البريطانيون توطين نفوذهم في المحيط الهندي والتغلب على فرنسا ، وأصبحت الهند من أهم المستعمرات الانكليزية كما اخذ الانكليز منذ القرن الثامن عشر بتقوية موصلاتهم البحرية مع هذه المستعمرة وحمايتها من الدول الأوربية الأخرى .

حروب القرن الثامن عشر

١- حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣-١٧٣٨) : كان العرش البولندي شاغراً بعد وفاة الملك أغسطس الثاني في ٢١ كانون الثاني ١٧٣٣ ، ولما كانت الملكية البولندية إنتخابية فقد تنافس على العرش البولندي إثنان هما فردريك أوغسطس إبن أوغسطس الثاني ، واحد النبلاء البولنديين وأسمه ستانيسلاس ليتشينسكي والد زوجة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وكان هذا الأخير قد إعتلى عرش بولندا في فترة سابقة ، وكان ستانيسلاس يحظى بدعم فرنسا في حين دعمت روسيا والنمسا فردريك أوغسطس ، وبعد أن إنتخب النبلاء البولنديين ستانيسلاس بأغلبية ساحقة إنتخب المعارضون البولنديون في براغا خصمه ملكاً لهم بإسم اوغسطس الثالث ، إلا إن ذلك لم يعني خلع ستانيسلاس رسمياً فهو لم يزل ملكاً في وارشو ، لكنه أدرك صعوبة البقاء فيها فبحث عن ملاذ آمن ، ولجأ الى ميناء دانزك بإنتظار الدعم الفرنسي ، وأثناء ذلك توجهت قوات روسية ودخلت العاصمة وارشو وتم تنصيب أوغسطس الثالث ملكاً على بولندا ، وأضطر ستانيسلاس الى ترك البلاد والتجأ الى بروسيا ومنها الى فرنسا .

تدخل لويس الخامس عشر لصالح صهره ، ولم يكن هذا التدخل مبنياً على العاطفة ، والعلاقات الأسرية وحدها ، ذلك أن فرنسا كانت تسير على تقليد منذ القرن السادس عشر ، يتلخص بضرورة الإستناد الى حليف في شرق أوربا يمكنه أن يهاجم النمسا من الخلف ، وكانت فرنسا قد تحالفت مع الأتراك العثمانيين ، ومع ملك السويد من أجل الوصول الى هذه النتيجة ، لكن تراجع قوة العثمانيين ، وإنهيار قوة السويد ، ومع ظهور روسيا القيصرية كقوة جديدة في شرق أوربا ، إضطرت فرنسا أن تركز تحالفها في شرق أوربا على بولندا .

لم يكن من السهل على فرنسا إرسال جيش الى بولندا إلا عن طريق البحر وكان ذلك يتطلب مخاطرة كبيرة ، وبإعلان فرنسا الحرب على النمسا حاولت مهاجمة املاك الإمبراطورية في الأراضي المنخفضة ، لكن وجود فرنسا هناك كان يثير بريطانيا لذلك لم يعد أمام فرنسا إلا أن تهاجم أملاك آل هبسبرك النمساويين في ايطاليا ، وتحالف ملك فرنسا مع سردينيا دوق سافوي ومع ملك اسبانيا ، وتعهد لويس الخامس عشر بمنح ابن ملك اسبانيا كل من نابولي وصقليا . كانت الحرب قصيرة ولم تستمر أكثر من عامين ، ورغم تدخل الروس فأن أوضاع قوات النمسا كانت سيئة ، سواء على نهر الراين أو في ايطاليا التي دارت فيها أهم المعارك ، وتمكن الاسبان من الاستيلاء على نابولي وصقلية بسهولة ، فأضطر الامبراطور الى الدخول في محادثات سنة ١٧٣٥ من اجل الصلح ، ولكن التسوية النهائية تأخرت لمدة ثلاث سنوات ، وتم الصلح في معاهدة فينا عام ١٧٣٨ ونص على تنازل ستانيسلاس عن العرش البولندي مع إحتفاظه بلقب ملك ، وحصوله على دوقية اللورين التي تعود الى فرنسا بعد وفاته ، وتنازل أمبراطور النمسا عن نابولي وصقليا لدون كارلوس ابن ملك اسبانيا فيليب الخامس ، كما أعترفت فرنسا بـ أوغسطس الثالث ملكاً على بولندا .

وهكذا نجد أن الحرب دارت لتحقيق مصالح خاصة ضيقة ، ودفع أمبراطور النمسا ثمناً كبيراً في هذه الحرب ، في حين ركزت فرنسا على مصالحها الخاصة ومصالح حلفائها من آل بوربون الاسبان ، كما ان حرب الوراثة البولندية إنتهت بنتيجة غير متوقعة ، وهي تأسيس أسرة حاكمة ثالثة من آل بوربون في نابولي ، وكذلك إتمام وحدة فرنسا الإقليمية

بضم اللورين الى أراضيها ، وكانت هذه الحرب هي الوحيدة التي إستفادت منها فرنسا طيلة عهد لويس الخامس عشر .

٢- حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-١٧٤٨) : ترتبط حرب الوراثة النمساوية بعدم وجود وريث ذكر لعرش الامبراطور النمساوي شارل السادس الذي أراد إقناع الدول الأوربية بأن تخلفه إبنته ماريا تريزا على عرش الامبراطورية النمساوية بدلاً من أي وريث ذكر من أقرباءه ، إلا أن ذلك لم يمنع أقرباءه من الذين حرموا من العرش من التآمر والتعاون مع أعداء النمسا لتحقيق مطامعهم في العرش ، فإنتهزت بعض الدول الفرصة لإقتطاع اجزاء من الامبراطورية النمساوية مثل اسبانيا الطامعة بممتلكات النمسا في ايطاليا ، وفرنسا التي تريد السيطرة على الأراضي المنخفضة (بلجيكا) ، وبروسيا المتحفزة للإستيلاء على سيليزيا . بمعنى آخر أن هذه الدول رغم التزامها بتعهداتها لشارل السادس بالإعتراف بإبنته وريثة للعرش ، إلا انها كانت مجرد وعود ، فبعد شهرين من وفاة شارل السادس في ١٩ تشرين الأول ١٧٤٠ إجتاحت الجيوش البروسية بقيادة فردريك الثاني سيليزيا مفتتحاً بذلك حرب الوراثة النمساوية عندما أعلنت النمسا الحرب على بروسيا .

كشفت المعارك ضعف الجيش النمساوي وعجزه مما دفع شارل البرت منتخب بافاريا الى المطالبة بالعرش بإسناد من فرنسا ، وفي سنة ١٧٤١ ضغط الجيش البروسي بإتجاه العاصمة فينا وكذلك فعل البافاريون ، وأستولى الفرنسيون على براغ ففرت ماريا تريزا الى المجر لتكسب المجريين للوقوف الى جانبها ، وأنهت نزاعها مع بروسيا بتنازلها لها عن سيليزيا مقابل إنسحاب القوات البروسية من الأراضي النمساوية ، فتفرغت للفرنسيين والبافاريين . أما بريطانيا فقد وجدت أن الوقوف بوجه النفوذ الفرنسي المتزايد في القارة الأوربية يقتضي بدعم ماريا تريزا ، فقدمت بريطانيا لها دعماً مالياً ثم دخلت الحرب الى جانبها حيث عقدت معها ومع ملك سردينيا شارل ايمانويل حلفاً عام ١٧٤٣ بأسم حلف وورمز مما دعا فرنسا الى عقد حلف فونتبلو مع اسبانيا ، وقد أدت المعارك التي دارت بين الجانبين الى قلب موازين الحرب لتصبح فرنسا في موقف مشابه لما كانت عليه الامبراطورية النمساوية عام ١٧٤١ ، وهنا أدرك فردريك الثاني ملك بروسيا خطورة الانتصار النمساوي على فرنسا ، لأن دحر بروسيا سيكون الهدف التالي للنمسا بعد إخضاع

فرنسا ، ولهذا تحرك فردريك بسرعة وهاجم القوات النمساوية محققاً الإنتصارات عليها ومرغماً إياها على عقد الصلح معه ، وقد حولت المعارك البروسية-النمساوية الحرب لصالح فرنسا مرة أخرى خصوصاً بعد إنفرادها بالقوات البريطانية بالاراضي المنخفضة وتحقيق الانتصارات عليها خلال سنتي ١٧٤٥-١٧٤٦ ، لكن دخول روسيا الحرب الى جانب بريطانيا ضيع فرصة الفرنسيين بالإحتفاظ بالأراضي المنخفضة .

وجدت القوى المتصارعة في نهاية الأمر أنها لن تستطيع تغيير الخارطة الأوربية تغييراً جوهرياً ، إذ لم يحرز أي طرف نصراً حاسماً يرغم الطرف الآخر على الخضوع لشروطه ، ولهذا إتجهت الدول المتحاربة الى إنهاء الحرب وتم ذلك في صلح اكس لاشابل في تشرين الأول ١٨٤٨ ، وأعترف ملك فرنسا وملك اسبانيا بموجبه بزوج ماريا تريزا فرنسيس إمبراطوراً على النمسا بعد تنازل ماريا له عن العرش لتقطع الطريق أمام الطامعين في عرشها ، وكان هذا التنازل قد تم قبل قيام الحرب .

٣- **حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٨٦٣) :** حينما إنتهت حرب الوراثة النمساوية كانت بذور حرب أخرى قد زرعت في نصوص صلح اكس لاشابل الذي أنهى تلك الحرب لأن بروسيا بقيت تحتفظ بسيليزيا ، لذلك أرادت إمبراطورة النمسا ماريا تريزا إستعادتها فتقربت من الأمراء الألمان ولاسيما أمير سكسونيا ، بعد ذلك حاولت ماريا تريزا جر فرنسا الى جانب النمسا ، وبرزت خلال منتصف القرن الثامن عشر ظاهرة التحالفات العسكرية بين الدول الأوربية ، وذلك لأن هذه الدول إستمرت في سعيها في التوسع وضم أراضي جديدة مما ادى الى إزدياد التنافس فيما بينها ، وإزداد التنافس الإستعماري بين بريطانيا وفرنسا حول المستعمرات خارج أوربا خلال هذه المرحلة ، وكان بروز بروسيا كدولة المانية قوية وإحتلالها لجزء من النمسا (سيليزيا) قد أدى الى إعتبارها العدو الاول للنمساويين ، فإتجهت النمسا للتفاهم مع فرنسا ، إذ كانت فرنسا في حينها أقل خطراً عليها لإنشغالها بمشاكلها مع بريطانيا وصراعها الإستعماري معها ، وكان التقارب الفرنسي-النمساوي الذي طوى صفحة طويلة من الصراع القديم بين آل هبسبرغ في النمسا وآل بوربون في فرنسا قد بدأ يتحول الى تحالف رسمي بين الدولتين .

أما ملك بروسيا فشعر أن التقارب الفرنسي-النمساوي سيضعه بين المطرقة والسندان فأسرع الى التحالف مع بريطانيا عدوة فرنسا ، وقد استجاب البريطانيين لرغبة بروسيا في التحالف معهم لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيخوضون حرباً في أمريكا الشمالية ، وهم في هذه الحالة بحاجة الى حليف قادر على مواجهة الفرنسيين في البر لكي يتفرغوا للقتال في البحر ، ولذلك وقعت بريطانيا وبروسيا إتفاق ويستمنستر في كانون الثاني ١٧٥٦ ، ومن اجل أن تحمي فرنسا ظهرها وتتفرغ لمواجهة بريطانيا أبرمت حلف فرساي في ايار عام ١٧٥٦ مع النمسا ، ولم تطالب فيها بشيء سوى تعهد النمسا بالبقاء على الحياد في حالة قيام حرب فرنسية-بريطانية ، وتعهد الطرفان بتقديم المعونة للآخر في حالة تهديده ، ثم إنضمت روسيا لقيصرية الى حلف فرساي لعدائها لبروسيا ، ويعود هذا العداء بينهما الى اطماع روسيا بالأراضي البروسية ، ولوقوف فردريك الثاني بوجه مصالح وأهداف روسيا في أوربا الشرقية ، ومن جهة أخرى فإن الإتفاق البروسي-البريطاني يعني وقوف بريطانيا ضد أي توسع روسي في بروسيا والأراضي الألمانية .

وهكذا إنقسمت أوربا الى معسكرين ضم الأول روسيا القيصرية والإمبراطورية النمساوية وفرنسا وإنضمت إليهما فيما بعد السويد واسبانيا وسكسونيا ونابولي وسردينيا ، أما الثاني فضم بروسيا وبريطانيا ثم دخلت معهم الحرب هانوفر والبرتغال ، ولم تكن كفة الميزان متعادلة لأن بريطانيا لايمكن أن تكون أقوى من الدول المضادة برياً ، وهذا يعني ان بروسيا هي من ستتحمل عبيء المواجهة البرية مع هذه الدول ، لذلك هاجمت بروسيا النمسا قبل أن تكمل الاخيرة إستعداداتها للحرب وحققت إنتصاراً عليها ، وتمكنت القوات البروسية من احتلال سكسونيا ، وادى الهجوم البروسي الى إرسال تعزيزات فرنسية وروسية الى النمسا ، وبعد وصول تلك التعزيزات أخذت الهزائم تتوالى على الجيش البروسي ولاسيما خلال سنتي ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وأصبح الجيش البروسي غير قادر على الصمود امام أعداءه بالرغم من المساعدات العسكرية البريطانية .

وخلال سنوات الحرب أدى الحظ دوره لمصلحة بروسيا ، فقد ظهرت التناقضات بين دول التحالف المضاد لها (فرنسا والنمسا وروسيا والسويد) ، ذلك ان احتلال القوات الروسية لبروسيا الشرقية قد أفزع حلفاء النمسا الآخرين ، كما ان فرنسا التي تحملت القسم

الاكبر من نفقات الحرب بدأت تدرك أنها تورطت في حرب لاتحقق لها مكاسب جديدة ، وخدم الحظ بروسيا مرة أخرى عندما توفيت قيصرة روسيا اليزابيث فخلفها بطرس الثالث الذي كان صديقاً لملك بروسيا ، والذي بادر حال تسنمه للعرش الى سحب القوات الروسية من منطقة بروسيا الشرقية وعقد الصلح مع بروسيا ، ثم إنسحبت السويد في العام نفسه ، وامام هذه التطورات لم يعد بإستطاعة النمسا تحقيق نصر أكيد ، وبعد ان إستعادت سيليزيا من بروسيا إتجهت الى التفاهم والمصالحة مع فردريك الثاني ملك بروسيا ، وعقد الصلح عام ١٧٦٣ الذي ضمن بقاء بروسيا دولة أوربية كبيرة وقوية .

إمتدت حرب السنوات السبع خارج أوربا وبشكل رئيسي في أمريكا الشمالية والهند ، وإستطاع البريطانيون تحقيق إنتصارات مهمة على القوات الفرنسية في كندا وأمريكا الوسطى وجزر الكاريبي ، كما نجح البريطانيون من إنهاء الوجود الفرنسي في الهند ، وبذلك خسرت فرنسا معظم مستعمراتها في الخارج ، وبعد سبع سنوات من القتال إنتهت الحرب بعقد صلح باريس مع بريطانيا ، وأكد الصلح تفوق بريطانيا في مجال السيادة على البحار ، وتنازلت فرنسا بموجب الصلح عن مستعمراتها في كندا والهند ، وعن كل الأراضي الواقعة غرب نهر المسيسيبي الممتدة من البحيرات الكبرى وحتى خليج المكسيك . كان لتلك الحروب آثاراً سياسية خطيرة على دول غرب أوربا بشكل خاص ، وبالتحديد فرنسا كونها فقدت إمبراطوريتها الإستعمارية كما كبدتها الحرب نفقات باهضة دون ان تحصل على نتائج مهمة ، الأمر الذي فاقم المشاكل الداخلية في فرنسا ، مما مهد الطريق لإندلاع الثورة الفرنسية والإطاحة بعرش آل بوربون .

٤- **حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣) :** في أواخر القرن الخامس عشر بدأ البريطانيون يشاركون في حركة الكشوفات الجغرافية ، وترتب على ذلك نجاح جون كابوت في الوصول الى نيوفاوندلاند ، وأسس البريطانيون فيما بعد أولى مستعمراتهم في أمريكا الشمالية عام ١٦٠٧ في ولاية فرجينيا والتي عرفت بإسم جيمس تاون والتي أسستها شركة لندن ، ثم أسست شركة ماساتشوستس مستعمرة أسمتها مستعمرة خليج ماساتشوستس عام ١٦٣٠ ، وبعدها توطد الاستعمار البريطاني هناك نتيجة لهجرات البريطانيين المتتالية ولاسيما من البيورتان المضطهدين في بريطانيا ، حتى وصل عدد المستعمرات البريطانية

الى ١٣ مستعمرة تركزت على الساحل الشرقي لامريكا الشمالية وهي كل من فرجينيا ومساتشوستس وديلاوير وبنسلفانيا ونيوجرسي وجورجيا وكنتيكت وومايلاند ووكارولينا الجنوبية ووكارولينا الشمالية ونيوهامبشير ونيويورك ورودآيلاند ، وكانت تلك المستعمرات تابعة لملك انكلترا في ظل حكم ذاتي تتمتع به ، وإحتفظت الحكومة البريطانية بحق السيطرة على هذه الشركات مثل شركة لندن وشركة ماساشوستس وشركة بلايموث وغيرها ، وكانت هذه الشركات تمنح من جانبها المستوطنين في الأراضي التي تستغلها جميع الحقوق والإمتيازات والواجبات التي يعامل بموجبها المواطن البريطاني في موطنه بريطانيا .

وكانت المستعمرات البريطانية أكثر إستقراراً وإنتاجاً من نظيراتها المستعمرات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية في قارة أمريكا الشمالية ، وذلك لأن البريطانين إستعمروا مساحات محدودة من الأراضي القريبة من الساحل قبل التوغل الى الغرب في داخل القارة الأمريكية ، بينما توسع البرتغاليون والإسبان وإستولوا على أرض واسعة للغاية قبل بنائهم المستعمرات مما أفقدهم السيطرة عليها إقتصادياً ، ومن جانب آخر فإن البريطانيين تخلوا عن البحث عن الذهب ، الذي وجدوا صعوبة في الحصول عليه فتحولوا الى زراعة الأرض وجني المحاصيل الزراعية ، وقد إتجهت الولايات الجنوبية ، التي تميزت عن نظيراتها الشمالية بإتساع أراضيها الزراعية ، الى إستيراد الأيدي العاملة الرخيصة من أفريقيا ، وجلب المستوطنون البريطانيون مجموعات كبيرة من سكان أفريقيا السود ليصبحوا عبيداً في الأرض الجديدة دون مراعاة لحقوقهم الإنسانية ، وبسبب خصوبة الأرض في الجنوب ظهر مزارعين وملاك كبار للأراضي ، في حين تميزت الولايات الشمالية بإزدهار الصناعة والتجارة فيها مع مساحات قليلة من الأراضي الزراعية ، وذلك بسبب طبيعة الأرض التي كانت قليلة الخصوبة وكثيرة الصخور والجبال ، يقابل ذلك ان هذه المناطق كانت تمتلك ثروة خشبية هائلة بسبب وجود مساحات من الغابات الشاسعة مما ساعد على تطور صناعة السفن والبناء الى جانب صيد الأسماك مما أعطى لهذه الولايات صفة صناعية وتجارية ، وقد رأت الحكومة البريطانية أن تربط تجارة مستعمراتها في أمريكا معها فقط ، لتصبح هذه المستعمرات سوقاً للمصنوعات البريطانية وتحصل منها على أكبر ربح تجاري ممكن .

أما من الناحية السياسية فكان الحكم البريطاني في تلك المستعمرات يعتمد على ثلاثة مراكز رئيسية ، وهي الحاكم والمجلس النيابي والمجلس الاستشاري ، وكان الحاكم هو المسؤول الاول عن رعاية شؤون ولايته ، والمحافظة على الأمن فيها ، ويتم تعيينه بقرار من ملك بريطانيا ، وكان المجلس النيابي ينتخب من قبل أهل الولاية ولفترة تنحصر بين عام وعامين ، وتنحصر مسؤوليته في سن الضرائب والإشراف على الموظفين وتقدير رواتبهم ، أما المجلس الإستشاري فكان بمثابة سلطة إستشارية في الولاية لها الحق في الإعتراض على قرارات الحاكم والمجلس النيابي .

بدأت الخلافات تتصاعد بين المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية والبلد الأم بريطانيا بسبب فرض الحكومة البريطانية الضرائب على تلك المستعمرات ، وكانت الحكومة البريطانية ترى أن من حقها فرض الضرائب على مستعمراتها لأنها هي من تتولى الدفاع عنها ضد أي خطر خارجي ، ودعمت وجهه نظرها بما جرى خلال حرب السنوات السبع ، وما تكبدته من نفقات باهضة لحماية مستعمراتها من فرنسا ، لذلك من واجب تلك المستعمرات دفع الضرائب لتعويض خسائر الحكومة البريطانية ، في حين رفض سكان المستعمرات سياسة الإحتكار التجاري وفرض الضرائب بشكل تعسفي من قبل البرلمان البريطاني بإعتبارهم غير ممثلين فيه ، لكن الحكومة البريطانية لم تصغي لمطالبهم ، وإزداد تشدد الحكومة البريطانية مع مستعمراتها بعد وصول جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠) الى الحكم ، فأصدرت الحكومة البريطانية عام ١٧٦٤ قانون السكر الذي فرض ضريبة على مايستورده المستوطنون من السكر والذي كانوا يصدرون مقابله الأسماك والأخشاب ، وكانت تجارة الولايات الشمالية رائجة في هذا المجال مما ادى الى إلحاق خسائر كبيرة بها . ثم صدر بعد ذلك قانون الطوابع في عام ١٧٦٥ الذي كان أشد وطأة من سابقه ونص على فرض رسوم على ترويج أي معاملة رسمية ، رفض المستوطنون هذه الضرائب متمسكين بضرورة أخذ رأيهم في فرضها ، ومن أجل ذلك عقدوا مؤتمراً في نيويورك عام ١٧٦٥ إشتركت فيه تسع ولايات أمريكية ، وكانت أهم قراراته مطالبة الحكومة بإلغاء هذه الضريبة ، ولتهدئة الموقف اضطرت الحكومة البريطانية الى إلغاء هذه الضريبة عام ١٧٦٦ ولكنها تمسكت بحقها في فرض أي ضرائب أخرى مما جعل الخلاف محتدماً ، وخاصة بعد أن

فرضت الحكومة البريطانية عدة ضرائب على الزيت والنبيذ والزجاج والورق وإستيراد الشاي .

عارض الأمريكيون هذه الضرائب وبدأوا يتهربون منها وامتنعوا عن استيراد الشاي البريطاني واشتروا المهرب منه عن طريق الهولنديين ، ولكن البريطانيين حاولوا إجبارهم على شراء الشاي من شركة الهند الشرقية البريطانية ، ولما حاول البريطانيون نقل كميات كبيرة من الشاي من لندن الى ميناء بوسطن وبعض الموانىء الأمريكية الأخرى لإجبار الأهالي على شرائه ، ألقى سكان بوسطن في كانون الأول ١٧٧٣ بحمولات ثلاث سفن بريطانية محملة بالشاي في البحر حيث تنكروا بزي الهنود الحمر ، وصعدوا الى مراكب التفريغ وقذفوا بالشحنة الى البحر أمام جمهرة من الأهالي المشجعين لهم مما أثار البريطانيون فأمر جورج الثالث بإغلاق ميناء بوسطن وهدد بمعاقبة سكان المدينة ، مما أدى الى تفجر الموقف وإندلاع الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين المستوطنين وبلدهم بريطانيا ، وخاصة بعد أن إنضمت العديد من الولايات الأمريكية الى سكان بوسطن في موقفهم المعادي للحكومة البريطانية .

عقد الامريكيون مؤتمراً في فيلاديفيا عام ١٧٧٤ ، وحضره جورج واشنطن ومن خلال هذا المؤتمر تأسس الكونغرس الأمريكي الأول من مندوبي الولايات ، وكانت من اهم قراراته تحذير الحكومة البريطانية من ان تصرفاتها تجاه المستعمرات الأمريكية سيؤدي الى الإضرار بمصالحها ، وإحتج المؤتمر على الإجراءات التعسفية التي تتخذها الحكومة البريطانية ضد سكان بوسطن ، ومع ذلك لم تأبه الحكومة البريطانية بهذا التحذير بل إستمرت في إرسال قواتها الى بوسطن في محاولة لتأديب أهلها الذين قاموا بإلقاء الشاي في البحر ، مما دفع سكان المستعمرات الأخرى الى الإستعداد للحرب ، فعقدوا إجتماعاً آخر في فيلاديفيا عام ١٧٧٥ إتفقوا فيه على تأسيس جيش أمريكي موحد ، كما ناشدوا ملك بريطانيا جورج الثالث بالكف عن الإجراءات التعسفية لحكومته حتى يظلون رعايا مخلصون له ، لكن الملك أصر على تشبثه بحقوقه المطلقة على المستعمرات التابعة لبلاده ، فإقتنع المستوطنون أن لا طريق أمامهم غير الإصطدام المباشر ، ونتيجة لذلك تم تعيين جورج واشنطن في ١٥ حزيران ١٧٧٥ قائداً عاماً لقوات المستعمرات الثلاث عشرة من قبل

الكونغرس ، لأنه كان أفصح المتكلمين في الكونغرس ولما توسموه فيه من الحكمة والكفاية والإستعداد للبذل والتضحية ، كما أعلن الكونغرس إستقلال الولايات الأمريكية في ٤ تموز ١٧٧٦ .

ومن الجدير بالذكر أنه لما قامت الحرب الفعلية بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية عام ١٧٧٦ ، لم يكن سكان المستعمرات يهدفون الى الإنفصال عن بلدهم الام ، بل ظلوا يخاطبون ملك بريطانيا بالملك الصالح ، ولم يكن هدفهم سوى الحصول على إستقلال داخلي ضمن السيادة البريطانية ، وقد اكد ذلك جورج واشنطن في عام ١٧٧٤ بقوله : " أنه لايوجد في أمريكا الشمالية رجل عاقل واحد يرغب في الإستقلال " . وقد نجح جورج واشنطن في إعداد جيش قوي متماسك وقادر على الصمود في وجه القوات البريطانية ، ومع ان البريطانيين فرضوا حصاراً بحرياً على المستعمرات الامريكية لتحطيم روحهم المعنوية ، فإن ذلك لم يثن من عزيمة واشنطن بل زاد من مثابرته واستعداده ضد البريطانيين . إصطدم الأمريكان بالجنود البريطانيين ووقعت المعارك كثيرة بين الجانبين ، وتمكن الامريكيون من تحقيق نصر مهم في موقعة ساراتوغا عام ١٧٧٧ مما كان له الأثر في تشجيع الدول الأوربية المعادية لبريطانيا على دخول الحرب الى جانب الولايات الأمريكية .

وجدت فرنسا في الثورة الأمريكية فرصتها المناسبة للإنتقام من بريطانيا التي أجبرتها على التخلي عن ممتلكاتها في الهند وكندا وامريكا الشمالية خلال حرب السنوات السبع ، فدخلت فرنسا الحرب بقوة الى جانب الأمريكيين ، ثم تبعتها اسبانيا الحاقدة هي الأخرى على بريطانيا لسلبها إياها الكثير من حقوقها البحرية والتجارية ، وبعد ذلك أعلنت هولندا الحرب على بريطانيا لمساندة الأمريكيين بسبب إحتكار بريطانيا للتجارة الأمريكية ، فعقدت هذه الدول فيما بينها حلفاً دعي بـ (الحياد المسلح) لصيانة حقوقها التجارية من التدخل البريطاني ، وهكذا أصبحت بريطانيا تواجه حرباً مع ثلاث دول أوربية بالإضافة الى مستعمراتها الأمريكية ، فكان ذلك من علامات هزيمة بريطانيا في تلك الحرب . صمد سكان المستعمرات ست سنوات ، وساعدهم في ذلك إتحادهم وطبيعة بلادهم الواسعة وتكتيكهم العسكري الفذ ، حيث قسموا قواتهم الى عدة جيوش للإحاطة بالبريطانيين من كل جانب فإذا هزم البريطانيون جيشاً من جيوشهم ظهر لهم جيش أمريكي آخر على بعد أميال قليلة ،

يضاف الى ذلك ماقدمته فرنسا وهولندا واسبانيا من دعم للثوار ، كما عطف الرأي العام الأوربي على مبادىء الثورة الأمريكية مما جعل البريطانيون عاجزين عن إخضاع الثورة المتسعة الأرجاء ، خاصة وإن نقل قواتهم عبر المحيط كان يكلفهم الكثير من النفقات .

ونتيجة لتوالي إنتصارات الثوار إرتد القائد البريطاني كورنواليس الى يورك تاون ، وهناك هاجمه واشنطن بمساعدة بعض الفرنسيين ، حتى تمت هزيمته في اكتوبر عام ١٧٨١ ، ولم يبق أمام الأمريكيين سوى تحرير نيويورك ، ونظراً لما لاقته بريطانيا من هزائم إضطرت أخيراً الى التفاوض وتوقيع الصلح فعقدت معاهدة باريس في عام ١٧٨٣ ، إعترفت بها بريطانيا بإستقلال مستعمراتها على أساس إعتبار نهر المسيسيبي هو حدها الغربي ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشرة مستقلة ، وإتخذت لنفسها إسم الولايات المتحدة الأمريكية ، وعين جورج واشنطن أول رئيس لها ونهض ببلاده بطريقة أكسبته محبة الامريكيين وإحترامهم ، كما كان أكثر ميلاً الى المبادىء والتقاليد المحافظة ، وفي عام ١٧٨٨ صدر دستور الولايات المتحدة الأمريكية ، والذي نص على وضع السلطة التشريعية بيد الكونغرس الذي يضم مجلسين الأول هو مجلس النواب وينتخب على أساس عدد السكان ، والثاني مجلس الشيوخ الذي تمثل كل ولاية فيه بعضوين ، اما السلطة التنفيذية فقد وضعت بيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية المنتخب ، ويكون عادة مرشح الحزب الفائز في الانتخابات ، كما نص الدستور على الفصل بين السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية .

الثورة الفرنسية ١٧٨٩

تعد الثورة الفرنسية حدثاً مهما في تاريخ فرنسا وأوربا والعالم ، لأنها واحدة من الثورات العالمية الكبرى التي جاءت بمفاهيم جديدة للعصر الحديث ، فهي تمثل تحولاً أساسياً وإستثنائياً كان له أثره في المباديء والنظم السياسية والاقتصادية والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ، وما صاحب ذلك من مشاكل وإنقلابات وحروب ونتائج إستمرت لفترة طويلة بعد قيام الثورة ، إن هذه الثورة لم تكن حدثاً فجائياً أو عرضياً ، وإنما جاءت نتيجة عوامل متعددة عميقة الجذور تفاعلت فيما بينها لتفجر المجتمع الفرنسي ضد نظام الحكم القائم وما أفرزه من تخلف وظلم وجوع في فرنسا .

أسباب الثورة الفرنسية

١- العامل الفكري : كان عامة الشعب الفرنسي يعانون من الفقر والظلم الإجتماعي وسوء نظام الحكم ، وفساد الكنيسة وتدهور الأحوال الإقتصادية ، وكان للمفكرين الذين برزوا في هذا المجتمع الفرنسي وللمباديء التي نادوا بها ، الأثر الفاعل في أن يشعر الفرنسيون بحجم الظلم الواقع عليهم فيثورون ضد هذه الأوضاع التي رزحوا تحت نيرانها سنين عدة ، وفي مقدمة هؤلاء المفكرين :

أ- فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) : من أشهر كتاب القرن الثامن عشر ، وإشتهر بالجرأة في كتاباته ، وزُجّ به في سجن الباستيل فترة بسبب تحديه لأحد النبلاء ، زار بريطانيا وأُعجب لما لمِسه من حرية الشعب البريطاني ، فقرأ لكبار الكتاب والأدباء البريطانيين مثل جون لوك وآدم سمث ووليم شكسبير ، تميزت كتاباته بالإسلوب الساخر اللاذع في نقده ومنها مؤلفه (رسائل عن انكلترا) أوضح فيه كيف أن المواطن البريطاني يستطيع أن يعبر عن آراءه دون أن يناله أي عقاب ، وهاجم الكنيسة وإنحرافها عن المسائل الروحية ، وتدخلها ورجالها بالسياسة ، ونادى بإصلاح القضاء ، وإصلاح نظام الضرائب ، وإلغاء الضرائب المحلية المتعددة . وهكذا يُعَد فولتير في مقدمة الذين نادوا بالمساواة بين جميع الأفراد ، وحقُّهم بالتمتع بالحريات المختلفة السياسية والدينية والفكرية .

ب- مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) : من أشهر الكتاب الذين إنتقدوا القيود التي تفرضها الكنيسة على حرية الفكر ، وسخِر من إدعاءات رجال الكنيسة عن قدرتهم على صنع المعجزات ، ونادى بمبدأ التسامح الديني وزار بريطانيا أيضاً ، وأبدى إعجابه بالنظام الملكي المقيد فيها . من أشهر مؤلفاته كتاب روح القوانين الذي نشر عام ١٧٤٨ ، والذي ناقش فيه النظريات السياسية السائدة في عصره ومختلف نظم الحكم ، وأشاد بالنظام الدستوري البريطاني ، وطعن في الحكم الاستبدادي ، وكان له أكبر الأثر في نفوس معاصريه .

ج- **جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) :** كان له تأثير كبير على عواطف الفرنسيين في آراءه وكتاباته ، ويعد كتابه (العقد الإجتماعي) الذي ظهر في عام ١٧٦٣ بمثابة إنجيل الثورة الفرنسية ، فهو يرى أن الانسان ولد حراً لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان ، ويرى أن المجتمع السليم يقوم على أساس العقد الإجتماعي بين أفراد متساوين في الحقوق ومتساوين

في الواجبات ، ويعرف الحكومة على أنها عقد إجتماعي يضمن للأفراد حمايتهم ، فيتنازل الأفراد لقاء ذلك عن بعض حقوقهم للحكومة ، وبذلك تصبح الحكومة الصحيحة هي القائمة على رغبة الشعب ، وإن للشعب الحق في الثورة على الحكومة إذا ما اخلت بشروط التعاقد أو استبدت في حكمها ، وبذلك كان روسو اول من أباح الثورة والخروج على الحكومة .

د- الإنسكلوبيديون : وهم جماعة من الفرنسيين ترأسهم ديدروا ووضعوا موسوعة (دائرة معارف) ذكروا فيها انواع الحكومات ، وإنتقدوا النظام السياسي السائد في فرنسا والكنيسة ونبهوا الناس الى عيوب المجتمع ، وقد إشترك في هذا العمل أكثر كتّاب فرنسا ومفكريها .

ه- الفيزوقراطيون : وهم الإقتصاديون الطبيعيون الذين تأثروا بآراء الاقتصادي البريطاني المشهور آدم سمث وبكتابه المشهور ثروة الأمم ، وكان أبرز رجال هذه المجموعة هم المركيز ميرابو ، والدكتور كيناي وتركو ، وتقول أفكار هؤلاء أن الزراعة هي مصدر الثروة الوحيد ، وإن حرية التجارة بين الأمم وإالغاء الضرائب والإكتفاء بضريبة الأرض ضرورة مهمة لإعادة النظام والرفاه للبشرية ، كما دعوا الى عدم تدخل الحكومة في الأعمال الإقتصادية بل عليها أن تتركها تسير سيرها الطبيعي .

٢- العامل السياسي : إتسم نظام الحكم في فرنسا منذ عصر لويس الرابع عشر بسيادة الحكم الملكي المطلق المستند إلى نظرية الحق الإلهي في الحكم ، والتي تتلخص في أن الملك الفرنسي يستمد سلطته من الله ، لذلك لايحق لأحد مراقبته أو محاسبته وإنما يجب على الجميع طاعته ، وقد تمسك الملوك الذين جاءوا من بعد لويس الرابع عشر بهذه النظرية ، وكان آخرهم لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٩١) الذي أنهت الثورة الفرنسية حكمه الملكي المطلق . لقد منح الحكم المطلق للملك صلاحيات غير محدودة ، فهو الذي يصدر القوانين ويعلن الحرب والسلم وهو فوق كل القوانين ، فالإستبداد كان حقاً من الحقوق المعترف بها في تقاليد السياسة الفرنسية ، ولم تكن هناك مؤسسات برلمانية تستطيع أن تحد من سلطات الملك أو تراقب أعماله عدا محكمة باريس أو برلمان باريس ، وكانت هذه المؤسسة مسؤولة عن تسجيل القوانين التي يصدرها الملك ولاتعتبر شرعية إلا إذا سجلت فيها ، وكان الهدف من إنشائها إيجاد حماية للمواطنين من إمكانية صدور قوانين ظالمة بحقهم ، لكن أهمية هذه المؤسسة قد تلاشت في الفترة الواقعة بين عهد ريشيليو ولويس

الخامس عشر ، وإستعادت مكانتها في عهد لويس السادس عشر بسبب ضعف السلطة الملكية ، وأصبحت هذه المؤسسة تناقش القوانين قبل تسجيلها مما ساعد على كشف مساوىء تلك القوانين فكان لذلك اثره في إيقاظ مشاعر أبناء الطبقة العامة تجاه التعسف والظلم .

كان من أبرز مساوىء الحكم المطلق هي الرسائل المختومة التي كان لويس السادس عشر يستصدرها للإنتقام من منتقدي السلطة الملكية والإيقاع بأعداءه الشخصيين ، أما رجال البلاط وحاشية الملك فقد كان عددهم في السنة التي قامت بها الثورة ١٨ ألف يتقاضون مرتبات عالية دون أن يكون لأكثرهم عملاً يؤديه ، فضلاً عن المبالغ الضخمة التي تصرف على الحفلات والولائم في القصور الملكية . كان النظام الادراي في فرنسا مضطرباً ومتخلفاً وكان لكل مقاطعة فرنسية قوانين خاصة بها بما فيها المقاييس والمكاييل والضرائب ، وكانت الرسوم الكمركية تفرض عند الإنتقال من مقاطعة الى أخرى مما كان يعرقل الى حد كبير تطور البلاد التجاري ويحول دون قيام وحدة إقتصادية في البلاد ، ومما زاد من مساوىء الإدارة المحلية أن كل منطقة كانت تحكم من قبل موظف يدعى وكيل الملك ، له صلاحيات واسعة للغاية كان يستعملها في جمع الضرائب مما جعله مكروهاً من قبل الفلاحين وبقية أبناء الإقليم الذي يحكمه ، أما القضاء فقد كان بعيداً عن العدالة ، فالقاضي يشتري منصبه أو يحرص على أن يرثه أبناؤه في هذا المنصب ، فأصبحت معظم المناصب القضائية وراثية لاتعتمد على الكفاءة والمقدرة .

يكاد يجمع مؤرخوا الثورة الفرنسية على أن لويس السادس عشر كان شخصية جيدة إلا إنه كان ضعيفاً ومتردداً ، وتحكمت به زوجته ماري انطوانيت وبعض أعوانه المقربين ، فكان عليه أن يتحمل وزر تجاوزاتهم وإستغلالهم لمواقعهم ، أما زوجته ماري إنطوانيت ، إبنة امبراطورة النمسا المشهورة ماريا تريزا ، فقد كانت متكبرة ومغرورة وتدخلت في شؤون السياسة ومؤامرات تعيين وعزل الوزراء وتوجيه شؤون البلاد ، وكانت الإشاعات عن إسرافها في الصرف وشراء أغلى القصور بينما كان الشعب يعاني من آثار المجاعة والأزمة الاقتصادية تثير سخطاً لدى عامة الناس فإزدادت كراهيتهم لها .

٣- العامل الإجتماعي : إحتفظ البنيان الإجتماعي في فرنسا بالطابع الإرستقراطي ، كأثر من بقايا النظام الإقطاعي القديم في أوربا ، والذي يعتمد على الأرض بإعتبارها الثروة الوحيدة

، وعانى المجتمع الفرنسي من الفروقات الكبيرة بين أفراده وطبقاته الإجتماعية ، وإنقسم المجتمع في فرنسا الى ثلاث طبقات ، أولها هم **النبلاء أو الأشراف** الذين كانوا يحتفظون بإمتيازاهم القديمة الموروثة من النظام الإقطاعي ، وبالرغم من أن الدولة في زمن لويس الرابع عشر قد إستعادت منهم معظم سلطاتها ، إلا إنهم إحتفظوا بسلطات متفاوتة على من يعمل على أرضهم ، كما فقد الأشراف نفوذهم في مجلس الطبقات بعد تعطيل هذا المجلس ، لكنهم كانوا لايزالون يتمتعون بإمتيازات عديدة فهم معفيين من كثير من الضرائب ، وكثير منهم تركوا ضياعهم تحت إدارة أتباعهم وعاشوا عيشة البذخ في باريس وغيرها من المدن الكبرى ، ولابد ان نشير الى أن فريق من الأشراف كانوا ميالين الى الإصلاح ورفع الظلم عن الطبقات الدنيا من المجتمع الفرنسي .

أما الطبقة الثانية فهم **رجال الدين** ، إذ تمتع كبار رجال الدين بالثراء الفاحش ، وإنصرف عدد كبير منهم عن أمور الدين الى شؤون الدنيا ، كما كانت الكنيسة في فرنسا مسيطرة على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية تقدر بخمس مساحة فرنسا ، وكانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب ، هذا بينما كان رجال الدين الصغار يعانون كباقي أفراد الشعب من الفقر والحاجة . أما **الطبقة العامة** فهي تشمل من بقي من أفراد المجتمع الفرنسي التي وقع عليها أعمال السخرة والتجنيد والضرائب المتنوعة ولاسيما ضريبة العشر التي تدفع الى الكنيسة ، ومن أبرز مكوناتها المتعلمون والمفكرون ورجال القانون والعاملون في الصناعة والتجارة ، الذين كانوا يحقدون على الأشراف لما يتمتعون به من إمتيازات وإحتكارهم لبعض الوظائف ، وجمع هؤلاء المثقفون وصغار التجار والصناع ثروات من التجارة والصناعة ، كما كانوا يشاركون في الحركة الفكرية السائدة في عصرهم ، لكنهم لم يكونوا راضين عن أوضاعهم ، وعن الإمتيازات التي يتمتع بها الأشراف دونهم . أما الفلاحون فشكلوا أغلبية أبناء الطبقة العامة ، وقد تنبهوا إلى وطأة نظام الإمتيازات المجحف وتطلعوا الى التخلص منه ، وكانوا أكثر المكونات الإجتماعية في فرنسا بؤساً وأسوأهم حالاً والأكثر تأثراً بالأعباء المالية والضرائب والكساد الإقتصادي .

كانت الطبقة الارستقراطية تمثل أقلية في المجتمع الفرنسي ، إذ لم تتجاوز نسبتهم على ٢٥٠,٠٠٠ نسمة في حين كان عدد أبناء الطبقة العامة تقريباً ٢٥ مليون نسمة ، ولذلك

يمكننا القول أن فرنسا كانت تنقصها المساواة الإجتماعية والحرية السياسية ونظام عادل للضرائب ، وسلطة تنفيذية ذات كفاية ومقدرة ، فالإمتيازات العقيمة الضارة التي يرجع أصلها الى العصور الوسطى كانت قد شملت جميع أنظمة المجتمع وهيئاته ، فهناك إمتيازات الكنيسة وإمتيازات النبلاء ، وإمتيازات الهيئات القضائية ، ومؤسسات أخرى كثيرة تمتعت بنفس الإمتيازات والسلطة ، وقد لوثت هذه الإمتيازات العدالة ، ونقلت الشطر الأكبر من أعباء الضرائب الى أكتاف الفقراء ، وحرمت الطبقة الوسطى من المناصب في الجيش والإسطول والكنيسة والقضاء .

٤- **العامل الإقتصادي :** كانت فرنسا في أوائل القرن الثامن عشر تعد من الدول الرئيسة الكبرى في أوربا الى جانب كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا ، إذ إنها كانت تمتلك موارد زراعية ضخمة فضلا عن صناعة النسيج الدائمة وتجارتها الخارجية النشطة ، لكنها مع حلول منتصف القرن الثامن عشر بدأت تواجه مشكلة اقتصادية حقيقية ، وأصبحت الخزينة تعاني من عجر كبير في مواردها بسبب الحروب المستمرة التي خاضها لويس الرابع عشر ، وتفاقمت المشكلة الإقتصادية خلال عصر لويس الخامس عشر دون حلول حقيقية للمشكلة بسبب دخول فرنسا في حرب الوراثة البولندية وحرب الوراثة النمساوية ثم حرب السنوات السبع ، وإزداد حال فرنسا المالي سوءاً بسبب تمويل حرب الإستقلال الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣) ، فقد تواصل إنعدام التوازن بين المصروفات والإيرادات في الخزينة الفرنسية مع تواصل البذخ والإسراف الذي مارسه آل بوربون والأشراف من ذوي الإمتيازات خلال تلك المرحلة ، وبلغت المصروفات عشية الثورة ٦٢٩ مليون فرنك في حين كانت الإيرادات ٥٠٣ مليون فرنك ، أي أن هناك عجزاً واضحاً .

وكانت أغلب موارد البلاد تذهب لتسديد الفوائد المستحقة عن ديون الدولة ، وأُرهقت الطبقة العامة بالضرائب المتنوعة لتسديد تلك الديون ، مثل ضريبة العقار التي خضعوا لها وأعفي منها الأشراف ورجال الدين من إعتادوا على عدم دفع الضرائب ، وتحويلها الى صيغة هدايا للملك وكانت ضريبة الرأس التي فرضها لويس الرابع عشر لتسديد نفقات حروبه وكان المفروض أنها ضريبة مؤقتة لكنها إستمرت ، كما كان من المفروض أن تجبى من الجميع ، إلا أن التطبيق العملي إنحصر في جبايتها من العامة فقط ، وهناك ضريبة

المشروبات وضريبة الملح التي كانت تقتطع من كل فرد بعد إضطراره الى شراء كمية معينة من الملح الذي إحتكرته الحكومة ، إذ كان يتوجب على كل فرد شراء ذلك الملح حتى لو كان لا يمتلك قوت يومه ، وزاد من وطأة الضرائب تكليف الحكومة لوكلاء عنها لجباية الضرائب وقد خرج هؤلاء عن الإسلوب المفترض إتباعه ومقدار المبلغ المراد تحصيله من المكلفين . ومن جهة أخرى إزدادت الأسعار بنسة ٦٥% عما كانت عليه قبل خمسين عاماً ، ولم تزداد الإجور إلا بنسبة ٢٢% في المدة نفسها .

أصبح رغيف الخبز شحيحاً في فرنسا وإزدادت المجاعة في الوقت الذي كانت فيه الحكومة تصدر القمح خارج البلاد ، ونتيجة للفقر والجوع والحرمان وعجز الحكومة عن حل مشكلة الإمتيازات التي عانى منها الفلاحون والعمال أدى هؤلاء دوراً مهماً في الثورة الفرنسية في مراحلها الأولى بشكل خاص ، وبالإضافة الى الضرائب كانت النظم المتبعة في الزراعة سيئة جداً ، وفرضت القيود على حرية تنقل المنتجات الزراعية بين اقليم وآخر ، وفرضت الضرائب الكمركية الداخلية على القمح حتى أصبح الشعب يشكو من ندرة الخبز . وقد حاول الملك إصلاح الوضع المالي المتدهور للبلاد فإستعان بعدد من الخبراء الإقتصاديين ومنهم تركو ونيكر وكالون ، لكن جهود هؤلاء الخبراء لم تجدي نفعاً ، فبالرغم من أنهم جميعاً إتفقوا على مجموعة إجراءات تتلخص في إلغاء الإمتيازات التي كان يتمتع بها الأشراف ورجال الدين من خلال فرض الضرائب على جميع أفراد الشعب من دون استثناء ، وطالبوا أيضاً بتقليص مصاريف القصر بما يتناسب وإمكانيات البلاد الحالية . لقيت تلك الإصلاحات معارضة شديدة من قبل الأشراف ورجال البلاط لأنها ستفقدهم نفوذهم وإمتيازاتهم ، وتآمروا على استبعاد رجال الإصلاح وكانت في مقدمتهم الملكة ماري انطوانيت .

نجح الأشراف والملكة في إعاقة جهود الخبراء الإقتصاديين ، فأقنعوا الملك بإقالة تركو ونيكر ، أما كالون فدعا مجلس الأعيان للإجتماع عام ١٧٨٧ لمناقشة الأوضاع الإقتصادية للبلاد ، وقدم لهم كالون تقريراً شرح فيه أوضاع البلاد المتدهورة ، وإقترح عليهم مجموعة إجراءات لإصلاح الأوضاع المالية السيئة تتلخص في فرض الضرائب على الجميع لكنهم رفضوا مقترحاته ، إلا أن التقرير الذي قرأه أمامهم سرعان ما إنتشر بين

الفرنسيين فإطلعوا خلاله على بشاعة الأوضاع المالية وأسبابها ، إذ كانت الطبقة العامة هي المتضررة الوحيدة من جراء ذلك ، ولما رفض برلمان باريس من جهته أيضاً تسجيل القوانين الخاصة بفرض ضرائب على الجميع لحل المشكلة المالية ، وعجز وزراء المالية المتعاقبون تركو ونيكر وكالون على حل المشكلة ، دعا الملك لويس السادس عشر مجلس الطبقات للإنعقاد .

إندلاع الثورة وأبرز أحداثها

١- تشكيل الجمعية الوطنية (١٧٨٩-١٧٩١) وسقوط الباستيل : أصر النبلاء على أن من يحق له فرض الضرائب على جميع فئات الشعب الفرنسي هو مجلس طبقات الأمة ، فطالبوا بعقد هذا المجلس الذي لم ينعقد منذ عام ١٦١٣ لأن آل بوربون أهملوا دعوته للإنعقاد ، وتعود أسباب مطالبة النبلاء بإنعقاد مجلس الطبقات الفرنسي هو أن هذا المجلس مكون من ثلاث قاعات منفصلة يجلس فيها نواب منتخبون عن كل طبقة ولكل قاعة صوت واحد ، ودائماً ماتتفق أصوات طبقتي النبلاء ورجال الدين ضد الطبقة العامة ، وبهذا يستطيع النبلاء إفشال أي محاولة لفرض ضرائب عليهم عن طريق مجلس الطبقات .

دعا الملك الى إنعقاد مجلس الطبقات الفرنسي لمناقشة إصلاح الوضع المالي المتدهور للبلاد ووضع الحلول المناسبة ، ووضع نيكر بتكليف من الملك نظاماً إنتخابياً جرت على وفقه الإنتخابات في عموم فرنسا ، وتألف مجلس الطبقات الجديد من ١٢٠٠ عضو نصفهم من الطبقة العامة والنصف الآخر من النبلاء ورجال الدين ، وحدد الملك الاول من أيار ١٧٨٩ موعداً لإفتتاح المجلس ، وشارك الجميع في الإنتخابات يحدوهم الأمل لتحقيق مصالحهم الخاصة ، فالعامة أرادوا الحصول على الخبز ، أما البرجوازيون فقد ارادوا قسطاً من الحريات والحق في المشاركة في الحكم ، أما النبلاء ورجال الدين فقد أرادوا منع الإصلاح عن طريق التصويت على أساس الطبقات وليس على أساس الأفراد ، اما الملك فكان يريد الحصول على موافقة المجلس لفرض ضريبة جديدة لمعالجة أزمة بلاده المالية .

وفي الخامس من أيار إفتتح الملك مجلس الطبقات الفرنسي في فرساي بخطاب لم يشر به الى الإصلاحات التي طالب بها الشعب بل قدم نيكر ليوضح حال المالية وعجزها

وطلب المساعدة من النواب في فرض ضرائب جديدة ، ومن جهة أخرى إندلع نزاع بين النواب حول طريقة التصويت ، فطالب النبلاء ورجال الدين بالإبقاء على طريقة التصويت على أساس الطبقات فيما أيد رجال الدين من صغار القساوسة وعدد من النبلاء الأحرار بقيادة لافاييت الطبقة العامة بمطالبهم القاضي بالإجتماع في قاعة واحدة والتصويت على أساس الفرد ، وإزدادت الخلافات بين الطرفين وقرر نواب الطبقة العامة في ١٧ حزيران ١٧٨٩ الإستمرار في إجتماعاتهم لوضع دستور جديد للبلاد وأطلقوا على انفسهم إسم الجمعية الوطنية ، وأعلنوا ترحيبهم بكل من ينضم إليهم من طبقتي النبلاء ورجال الدين ، وعندما سمع الملك بإجتماعهم أرسل بتحريض من النبلاء قوة من حرسه لإغلاق قاعة الإجتماع ، فإنتقل نواب الطبقة العامة الى ساحة مجاورة لملعب التنس وأقسموا على عدم الإنصراف مالم يضعوا دستوراً لفرنسا ، وإنضم اليهم عدد من النبلاء ورجال الدين .

دعا الملك نواب الطبقات الثلاث الى إجتماع يوم ٢٣ حزيران ١٧٨٩ ، عرض فيه خطة الحكومة للإصلاح وتجاهل في خطابه الجمعية الوطنية مؤكداً على ضرورة إجتماع النواب على أساس الطبقات ، ثم إنسحب الملك ومن بعده النبلاء ورجال الدين ، إلا أن ممثلي الطبقة العامة بقوا في أماكنهم مع مؤيديهم من الطبقتين الأخريين ، ولما جاء إليهم رئيس حرس الملك يطلب منهم إخلاء القاعة ، قال ميرابو الملقب بخطيب الثورة عبارته المشهورة : **" إذهب وقل لسيدك إننا مجتمعون هنا بإرادة الأمة ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب "** ، وفي الوقت الذي إستمرت فيه إجتماعات الجمعية الوطنية أدت هذه الأحداث الى إنتشار الفوضى في باريس وشل أجهزة الحكومة الفرنسية ، فلم تعد الضرائب تدفع ووقعت عشرات الهجمات في الريف على مساكن النبلاء ، مما أدى بالملك الى إستدعاء بعض الفرق العسكرية الى باريس ، وترددت أنباء عن إقالة نيكر من منصبه وإستبداله باحد أعوان الملك مما أشعل المظاهرات في شوراع باريس التي شارك فيها العاطلون عن العمل والعاجزون عن شراء الخبز ، وسيطر الثوار على بلدية باريس وشكلوا فرق عسكرية للدفاع الشعبي أطلقوا عليها اسم الحرس القومي بقيادة لافاييت .

وفي ١٤ تموز هاجم الثوار سجن الباستيل ، وهو حصن قديم يعود الى مرحلة العصور الوسطى ، وكان هذا السجن في نظر الناس رمزاً للطغيان الملكي ، وبعد ان تمكن

الثوار من تحطيم أبواب السجن والإندفاع داخله لإطلاق سراح المعتقلين لم يجدوا في داخله سوى سبعة سجناء ، وعلى الرغم من ذلك يعد سقوط سجن الباستيل البداية الحقيقية للثورة الفرنسية وإنهيار النظام الملكي ، وكانت له عواقب سياسية خطيرة قي توجيه الاحداث في فرنسا ، ولما سمع سكان الأقاليم بسقوط الباستيل حتى هاجموا قصور النبلاء ودمروا مافيها من سجلات تثبت حقوق النبلاء الإقطاعية ، وهرب هؤلاء النبلاء الى خارج البلاد وعمت الفوضى في كل مكان وأصبحت باريس في قبضة الثوار . ونتيجة لتطور الأحداث وتفاقمها وتردد الملك وإفتقاره الى الحزم والذكاء الذي يتناسب مع الظروف إستسلم الملك للأمر الواقع واظهر إستعداده لتقديم بعض التنازلات ، فأعاد نيكر الى وزارة المالية ، وأبعد الجند عن باريس ، وزار باريس حاملا شعار الثورة على صدره ، وأمر برفع علم الثورة المثلث الألوان .

٢- **أعمال الجمعية الوطنية :** لم يكن موقف الملك المؤيد للثورة كافياً لإمتصاص نقمة الجماهير وهياجها ، وكان الجميع يشعرون أنه لابد من القيام بأعمال أكثر جدية لتهدئة الأوضاع في المقاطعات الثائرة ، فإجتمعت الجمعية الوطنية في ٤ آب وإتخذت القرارات التالية :

١- إلغاء جميع حقوق النبلاء الإقطاعية الامر الذي أدى الى تحرير الفلاح من قيودهم .

٢- إلغاء أعمال السخرة والضرائب المفروضة على المطاحن والأفران .

٣- إلغاء إمتيازات الجمعيات الحرفية .

٤- إلغاء ضريبة العشر التي كانت تدفع الى الكنيسة .

٥- إعلان المساواة التامة بين جميع المواطنين في الحصول على الوظائف العامة .

٦- إصلاح القضاء بحيث يتساوى الجميع امامه في الحقوق والواجبات .

وفي ٢٦ آب أعلنت الجمعية الوطنية لائحة حقوق الأنسان التي أبرزت فيها الحقوق الأساسية للمواطن على الدولة وأبرز هذه المباديء هي :

١- أن الناس يولدون أحراراً ويظلون احراراً متساوين في الحقوق .

٢- الغرض من قيام الحكومات هو ضمان وحماية الحقوق الطبيعية للإنسان .

٣- لايسجن أحد إلا في الحالات التي يحددها القانون والمتهم بريء حتى تثبت إدانته .

٤- لكل أمة الحق في مشاركة حكومتها في وضع القوانين والضرائب .
٥- الآراء الخاصة مصانة على أن لا تخل بالنظام والقانون .
٦- حق التملك مقدس ولايجوز السيطرة على ممتلكات الغير إلا بتعويض .
٧- حرية الأفكار والآراء من أثمن حقوق الإنسان ، ولكل شخص الحق في التعبير عن آراءه بحرية على أن لاتتعارض مع القانون .

رفض الملك الموافقة على لائحة حقوق الإنسان لأنها تجرده من نفوذه وصلاحياته المطلقة ، فتأزم الموقف في باريس وإشتدت المجاعة بين صفوف الفقراء ، وتوجهت مسيرات حاشدة من الثوار الى قصر الملك مطالبين بالخبز ، وإستطاعوا إقتحام قصر فرساي وتهديد حياة الملك ، ولكن وصول لافاييت على رأس قوة من الحرس الوطني أنقذ الموقف وطلب من الملك الإنتقال الى باريس ، فأصبح الملك تحت حماية لافاييت .

إستمرت الجمعية الوطنية في أعمالها ، فقررت إلغاء التقسيم الإداري القديم للبلاد فأصبحت فرنسا بموجب ذلك مقسمة الى ٨٣ مقاطعة متساوية في المساحة ، كما تم إلغاء الإقطاع ، وفي مجال القضاء وضعت الجمعية نظاماً قضائياً ينسجم مع مباديء حقوق الإنسان وجعل منصب القاضي إنتخابياً ومنعت شراء المناصب القضائية ، وتم أيضاً مصادرة أملاك الكنيسة الكاثوليكية ، وصدر القانون المدني لرجال الدين الذي عدّ رجال الدين موظفين حكوميين منتخبين لهم رواتب معينة ، مما أفسح المجال للبروتستانت للمشاركة في المواقع الوظيفية بعد عهد طويل من الإضطهاد ، وقد إنتهت العلاقة بين الكنيسة الفرنسية والبابا في روما بإصدار هذا الدستور مما دعى البابا الى إصدار قرار الحرمان بحق كل رجل دين يقبل بالقسم للدستور الجديد .

شعر لويس السادس عشر بالذنب والإثم جراء صدور هذا الدستور ، وعدّ نفسه مسؤولاً عن ذلك ، وإن تعاونه مع الجمعية الوطنية في هذا المجال يتعارض مع إيمانه بالكنيسة الكاثوليكية فقرر الفرار مع عائلته من باريس الى خارج فرنسا والاستعانه بأنصاره من الملكيين والدول الأوربية للقضاء على الثورة ، وفي ٢١ حزيران ١٧٩١ إستطاع الخروج من العاصمة في عربة مغلقة والسير بإتجاه الحدود الشمالية-الشرقية ، لكن أمره إنكشف واعتقل وأعيد الى باريس وسط مظاهر من الضيق والإحتقار ، ما جعل الشعب

ينظر الى الحادثة على أنها خيانة لقضية الشعب ، عندئذ إندلعت المظاهرات التي تطالب بخلع الملك وإعلان الجمهورية ، وقررت الجمعية الوطنية وقف الملك عن ممارسة سلطاته حتى يتحدد تقرير مصيره ، والإنتظار لحين إكمال الدستور لعرضه على الملك ، فإذا أقره أعيد الى ملكه وإذا رفضه فقد عرشه .

وفي ١٤ أيلول ١٧٩١ تم إعداد دستور جديد لفرنسا ، وأقره الملك وأقسم على إحترامه وصيانه بنوده ، وأبقى الدستور الجديد على النظام الملكي ولكن مع سلطات مقيدة ، كان أهم مبادئه :

١- فصل السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية .

٢- جعل الأمة هي المصدر الأساسي للسطات التي يجب ان تمارسها الهيئات المنتخبة .

٣- إناطة تشريع القوانين وفرض الضرائب بالجمعية التشريعية المنتخبة من قبل الشعب وليس لأحد حق حلها .

٤- يرأس الملك السلطة التنفيذية والجيش وقوات البحرية والبرية والإدارة الخارجية ، وله حق الإعتراض على بعض القوانين والتشريعات التي تصدرها الجمعية التشريعية .

وبعد أن وضعت الجمعية الوطنية دستوراً لفرنسا أعلنت حل نفسها .

٣- الجمعية التشريعية (١٧٩١-١٧٩٢) : أجريت إنتخابات جديدة في فرنسا أفرزت عن تشكيل الجمعية التشريعية ، وعقدت الجلسة الاولى للجمعية التشريعية في تشرين الأول ١٧٩١ ، وضمت الجمعية التشريعية ٧٤٥ عضواً ، وإنقسمت الى ثلاث فئات هي :

١- اليمين : أيد أنصار هذا الإتجاه الملكية الدستورية المقيدة ، وكانوا بقيادة لافاييت وبلغ عددهم ٢٦٤ عضواً ، وغالبية هؤلاء من النبلاء ذوي الإتجاه التحرري .

٢- اليسار : وهم المتطرفون اليساريون وعددهم ١٣٦ عضواً ، وكانوا مناهضين للنظام الملكي ، ويدعون إلى إقامة نظام جمهوري في فرنسا ، وينقسمون الى مجموعتين الأولى هم الجيروندیون لأن أغلب زعماؤها من إقليم جيروند الواقع جنوب غرب فرنسا ، ومن أبرز زعماؤهم ديموريه ، والثانية هم اليعاقبة نسبة الى دير قديم لجماعة معروفة بهذا الاسم إتخذه اليعاقبة نادياً لهم ، وينحدر غالبيتهم من أصل برجوازي ، ومن أبرز زعماؤهم دانتون وروبسبير .

٣- أما الفئة الثالثة فهم الوسط أو المستقلون ، وعددهم ٣٤٥ عضواً ، وهم لايتبعون أي حزب أو جهة سياسية .

بالإضافة لما سبق كانت هناك قوى سياسية أخرى تعمل ضد الثورة ومع إعادة النظام القديم والمحافظة على الملك وحقوقه المطلقة وتكونت من المهاجرين النبلاء خارج فرنسا بقيادة الكونت آرتو أخو الملك ، فتعاونوا مع القوى الخارجية لتحقيق طموحاتهم ، ووقفت النمسا وبروسيا الى جانبهم لأن هذه الدول وجدت أن أفكار الثورة الفرنسية ستتسرب الى شعوبها لتهدد حقهم الإلهي في الحكم ، لقد كان لوجود هذه القوى السياسية وتأثيرها على الساحة أثره في إصطدام الثورة بأعدائها ، مما أدى الى إندلاع الحرب بين فرنسا من جهة والنمسا وبروسيا من جهة أخرى .

واجهت الجمعية التشريعية تحديات داخلية وخارجية خلال مدة وجودها بين تشرين الأول ١٧٩١ وأيلول ١٧٩٢ ، ففي الداخل كانت لاتزال مشاعر النبلاء مع الملكية السابقة فيما حرض رجال الدين الفلاحون في الريف ضد الثورة فقاموا بإضطرابات عام ١٧٩١ وعام ١٧٩٢ ، كم إنتشر التذمر في المدن ولاسيما في باريس بين العمال لعدم حصول تحسن في أوضاعهم ، وفي الخارج واجهت الجمعية التشريعية مشكلة النبلاء المهاجرين من أنصار النظام القديم الذين تحشدوا على طول الحدود الشرقية لفرنسا ولاسيما على نهر الراين ، وأخذوا يحرضون ملوك اوربا والرأي العام ضد الثورة ، كما واجهت الجمعية التشريعية مشكلة الصدام مع الكنيسة الكاثوليكية التي كانت قد إرتبطت بالملكية الفرنسية إرتباطاً وثيقاً لاسيما بعد أن إستولى النظام الجديد على أملاك الكنيسة الفرنسية .

فضلاً عن ذلك واجهت الجمعية التشريعية مشكلة مخاوف القوى الأوربية الكبرى ولاسيما النمسا وبروسيا الذين إزدادت مخاوفهم من إنتشار الثورة الفرنسية في أوربا ووصولها الى بلدانهم ، وبدأت بوادر التدخل الخارجي تظهر حينما أصدر كل من ليوبولد الثاني (١٧٩٠-١٧٩٢) إمبراطور النمسا وفردريك وليم الثاني (١٧٨٦-١٧٩٧) ملك بروسيا بياناً من بلنتز في إقليم سكسونيا بألمانيا عدّا فيه أن إعادة النظام والملكية لفرنسا هدف يهم جميع ملوك أوربا ، في ذلك الوقت كان الجيروندیون يلحون في إعلان الحرب على النمسا في حين عارض اليعاقبة الحرب لأنها ستلحق الدمار بفرنسا ، واخيراً إنتصر

الرأي المؤيد لإعلان الحرب على أساس ان النصر العسكري سيجمع صفوف الشعب الفرنسي في ولاءه للثورة والدستور .

٤- الحرب مع أوربا : تحت ضغط الجيروندیين ولتحقيق أهدافه الشخصية بإثارة الدول الأوربية أعلن لويس السادس عشر الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ ، وتولى لافاييت قيادة الجيش الفرنسي وتحمس الفرنسيون للحرب ، وشعروا أنهم يقاتلون من اجل قضية الحرية والمساواة والقومية فأسرعوا بالذهاب الى جبهات الحرب ، وتحالف الجيروندیون مع اليعاقبة والملكيين ، وأسندت المناصب الوزارية الى دعاة الحرب من كلا الطرفين ، بدأت الحرب بهجوم الجيش الفرنسي على بلجيكا فحقق لافاييت مكاسب سريعة ، إلا أن النصر تحول الى هزيمة مع تقدم القوات النمساوية وبالتالي تحولت فرنسا من الهجوم الى الدفاع ، وبعد ستة أيام إنسحب الجيش الفرنسي الى داخل البلاد بينما تحشد الجيش النمساوي على الحدود الفرنسية ، ومع بداية تموز ١٧٩٢ أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا وتشكلت قيادة مشتركة للجيشين النمساوي-البروسي البالغ تعدادهما ٨٠,٠٠٠ جندي بقيادة برونزويك البروسي ، وتأكدت شكوك الشعب الفرنسي بتواطؤ الملك مع النمسا وبروسيا حينما أعلن برونزويك في ٢٥ تموز ١٧٩٢ أنه سيعاقب العاصمة الفرنسية بعقاب ليس له مثيل إذا ما أصيب الملك بسوء ، ووجه بياناً الى الشعب الفرنسي أعلن فيه عزمه على وضع حد للفوضى داخل فرنسا وإعادة السلطة الشرعية والحرية الى ملك فرنسا ، مما أدى الى حصول إنتفاضة في باريس في ٩ آب ضد الملكية وطالبت جماهير باريس بإسقاط الملك الذي هرب مع عائلته الى الجمعية التشريعية فيما ذبح الثوار أفراد حرسه السويسريين في قصر الملك الذي نهب ودمرت محتوياته .

قررت الجمعية إيقاف الملك عن ممارسة سلطاته وان يتم ترك موضوع مصير الملك والنظام الملكي لمؤتمر وطني ، إلا أن ذلك لم يمنع من إعتقال الملك وأعوانه ، وفي ١٩ آب عبرت الجيوش النمساوية-البروسية الحدود الفرنسية ، وتوالت الهزائم على الجيش الفرنسي حتى حاصرت القوات الأجنبية مدينة فردان الفرنسية في الثاني من أيلول ، وظهرت في العاصمة الفرنسية جماعات مسلحة من الثوار المتطرفين هاجموا السجون التي اعتقل فيها النبلاء فأُعدم عدد كبير منهم ، وبعد سقوط فردان تطوع عدد كبير من الفرنسيين للمشاركة

في الحرب ، وصمد الجيش الفرنسي في مرتفعات فالمي في أواخر أيلول ١٧٩٢ مما أوقف الزحف المعادي لفرنسا بسبب الصمود البطولي ، وبسبب الخلافات التي دبت بين النمسا وبروسيا وروسيا حول تقسيم بولندا ، ثم جرت مفاوضات إنتهت بإنسحاب الجيوش الأجنبية من فرنسا ، مع وصول أنباء توقف القتال كانت الإنتخابات تجري لعقد مؤتمر وطني إنتهت في ٢٠ أيلول ، وبذلك إنحلت الجمعية التشريعية وتشكل المؤتمر الوطني .

٥- المؤتمر الوطني وإستمرار الحرب (١٧٩٢-١٧٩٥) : بدأ المؤتمر الوطني إجتماعاته في ٢٠ أيلول ١٧٩٢ ، وضم الأعضاء البارزين في الجمعية الوطنية والجمعية التشريعية ، لذا جاءت تشكيلته على النحو التالي :

١- اليعاقبة : الذين إتخذوا مقاعدهم في أعلى القاعة في أقصى اليسار ، وقد تميزوا بالجرأة في إعلان الجمهورية وصيانتها بكل وسيلة ، ومنها القمع الذي لم ينص عليه دستور الثورة وهم أقل عدداً من غيرهم .

٢- الجيروندیون : وقد جلسوا يمين قاعة المؤتمر الوطني وهم اكثر من اليعاقبة عدداً إلا أنهم لاميلون الى العنف بل نفروا منه مع مناوأتهم للجمهورية ووقوفهم ضد اليعاقبة خشية تسلطهم .

٣- المحايدون : ويطلق عليهم أيضاً حزب الصامدين وهم بين اليعاقبة والجيروندیين ويشكلون غالبية المؤتمر ، وسرعان ماوقفوا مع اليعاقبة لحماية الثورة تحت ضغط الرأي العام .

كان من أول أعمال المؤتمر الوطني إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في ٢١ أيلول ١٧٩٢ ، كما ناقش المؤتمر مصير الملك ومحاكمته ، لكن الجيروندیين حاولوا تأجيلها ، خشية إستفزاز الدول الأوربية ، إلا إنهم فشلوا بعد أن جرى تقديم الأدلة وإكتشاف وثائق رسمية تفيد بوجود إتصالات بين الملك وأعداء الثورة الفرنسية ، وبعد خمسة أيام بدأت محاكمته بتهمة التآمر والتواطؤ مع الدول الأجنبية ضد فرنسا والعمل على قلب دستورها ، وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم بالمقصلة يوم ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ وسط حشد كبير من الناس . تزامن إعدام الملك مع تحقيق إنتصارات في الخارج فقد تمكنت القوات الفرنسية بين اواخر أيلول وبداية تشرين الثاني ١٧٩٢ من إخراج القوات الأجنبية من أرضها وإحتلال

بلجيكا وولايات الراين ونيس وسافوي ، وبعد احتلال الجيوش الفرنسية لهذه المناطق ظهرت نظرية الحدود الطبيعية بإعتبار نهر الراين هو الحد الطبيعي لفرنسا ، مما أثار الدول الأوربية التي بدأت تعد العدة لمواجهة فرنسا ، وتصاعدت الحماسة لدى الفرنسيين بعد أن أصدر المؤتمر الوطني بياناً في كانون الأول ١٧٩٢ تعهد فيه بدعم كل شعب يبغي إقامة نظام حر أو ديمقراطي ، مما أفصح عن رغبة فرنسا بنشر الثورة في الداخل والخارج .

أثارت نظرية الحدود الطبيعية والتبشير بمبادىء الثورة الفرنسية الدول الأوربية ، وقد تفجرت الأزمة معها بعد إعدام لويس السادس عشر ، وإزداد قلق بريطانيا بعد إستيلاء الفرنسيين على بلجيكا وهولندا القريبة من السواحل البريطانية مما يشكل تهديداً كبيراً على أمنها ، فتشكل التحالف الأوربي الأول ضد فرنسا وإنضم إليه كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا وهولندا واسبانيا والبرتغال وسردينيا ، ونزلت القوات البريطانية في ميناء طولون ، وفي الشمال تمكنت قوات التحالف من إلحاق الهزائم بفرنسا حتى تراجعت خلف حدودها ، لكن الفرنسيين إعادوا تنظيم صفوفهم بالرغم من الإضطرابات الداخلية التي حدثت في فرنسا ، وتمكنوا من إسترداد ميناء طولون الذي سيطر عليه البريطانيون ، وقاد الهجوم الناجح لإسترداد الميناء ضابط المدفعية الشاب نابليون بونابرت في كانون الاول ١٧٩٣ ، كما أحرز الفرنسيون سلسلة إنتصارات أعادتهم الى هولندا فدخلوا العاصمة امستردام واستولوا على الإسطول الهولندي ، اما الدول الأوربية الأخرى فلم يبقى تحالفها كما هو وخرجت بروسيا وروسيا وهولندا من الحرب ، ولم يبقى سوى بريطانيا والنمسا في الميدان ، وبذلك إستطاعت فرنسا ان تفكك التحالف الأوربي الأول .

وخلال تلك المرحلة ظهرت فوضى وإضطرابات داخلية كبيرة في فرنسا ، ونشط أنصار الملكية من جديد مستغلين الهجوم الذي قام به التحالف الاوربي الأول ضد فرنسا ، وعندما إستفحل العصيان إتخذت الثورة موقفاً صلباً لإنهاء الثورة المضادة ، وظهر ما أطلق عليه العهد الإرهابي بقيادة اليعاقبة الذي استمر من صيف عام ١٧٩٣ الى صيف عام ١٧٩٤ ، وتميز هذا العهد بالسعي لتصفية أعداء الثورة في الداخل ووقف الحرب الأهلية ، ثم التصدي بعد ذلك للزحف الأجنبي ، وتشكلت محكمة الثورة بقرار من المؤتمر الوطني لمحاكمة المتهمين ، وتحولت سياسة الشدة الى حملة إرهابية دموية بقيادة روبسبير زعيم

اليعاقبة ، وأدت الى تصفية رجال الثورة بعضهم للبعض ، إذ تمت تصفية الجيروندبين ، كونهم من المعتدلين ، على يد اليعاقبة ، وقتل آلاف الأشخاص خلال تلك المرحلة ، ورغم مساوىء عهد الإرهاب إلا أنه أنقذ فرنسا من اخطار داخلية كادت ان تطيح بالجمهورية مع توفير المجال للمؤتمر الوطني للقيام بالإصلاحات ، فقد وضع المؤتمر الوطني القانون المدني الفرنسي ، وأنشأت المدارس وأبعد نفوذ رجال الدين عنها ، وأقر التعليم الإجباري ، ووضع نظاماً جديداً للمقاييس والمكاييل والأوزان ، وهو النظام العشري أو المتري ، الذي مازال معمولاً به حتى الآن ، وتم تأسيس متحف اللوفر في باريس .

كما وضع المؤتمر الوطني دستوراً جديداً للبلاد تم إنجازه اواخر عام ١٧٩٥ عرف بدستور السنة الثالثة للجمهورية ، والذي نص على فصل السلطات تحاشياً للدكتاتورية ، فأوكلت السلطة التشريعية الى مجلسين هما :

١- مجلس الخمسمائة : ويضم ٥٠٠ عضو لاتقل أعمارهم عن ٣٠ عاماً .

٢- مجلس الشيوخ المؤلف من ٢٥٠ عضو لاتقل أعمارهم عن ٤٠ عاماً .

اما السلطة التنفيذية فقد عهدت الى حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء يختارهم مجلس الشيوخ من قائمة مؤلفة من عشرة أسماء يقدمها مجلس الخمسمائة ، ويتناوب أعضاء حكومة الإدارة على الرئاسة كل ثلاثة أشهر ، ويتم تغيير عضو واحد كل سنة ، وأشترط الدستور الجديد أن يكون ثلثا أعضاء مجلس الخمسمائة من أعضاء المؤتمر الوطني ، وذلك للحيلولة دون فوز الملكيين في الانتخابات ، مما أثار إستياء الأوساط الملكية المعتدلة التي إستجمعت قواها ، فنظمت تظاهرة قوامها أكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص في ٥ تشرين الأول ١٧٩٥ حاولت مهاجمة مقر المؤتمر الوطني ، للسيطرة عليه ، إلا أن باراس أحد أعضاء حكومة الإدارة إستعان بنابليون بونابرت الذي شتت المتظاهرين بطلقات قليلة من المدفعية وأنهى التمرد ، الأمر الذي سهل لنابليون حصوله على الترقية لقيادة القوات الداخلية .

وفي ٢٠ تشرين الأول جرت الإنتخابات ففاز ٣٧٩ من أعضاء المؤتمر الوطني وكان أكثرهم من الجمهوريين المعتدلين الذين شكلوا ثلثي أعضاء مجلس الخمسمائة ، أما

الثلث الآخر فكان أغلبهم من الملكيين الكاثوليك فيما إندحر اليعاقبة وإنحل المؤتمر الوطني لتحل محله حكومة الإدارة ومجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ .

٦- حكومة الإدارة (١٧٩٥-١٧٩٩) : إتبعت حكومة الإدارة سياسة حازمة تجاه أنصار الملكية ، ودعت الى إنعاش الروح الوطنية والقضاء على التعصب الحزبي ، والعمل على إعادة السلام الى فرنسا وتشجيع التجارة والعلوم والفنون ، كما أعلنت حكومة الإدارة عن تطبيقها عقوبة الإعدام بحق كل من يسعى الى إعادة الملكية أو يشجع الحركات اليسارية المتطرفة ، ومن جانب آخر عاود اليعاقبة نشاطهم المضاد للحكومة بعد السماح لهم بإصدار الصحف وإعادة فتح نواديهم ، أما في الخارج فقد واجهت حكومة الإدارة مهمة إكمال الحرب مع أعداء الثورة ، ولم يبقى صامداً بوجه فرنسا من التحالف الأوربي الأول سوى النمسا وبريطانيا ، فقررت حكومة الثورة توجيه ضربة قوية للنمسا لإخراجها من الحرب ، وتم إختيار نبليون ليكون قائداً للجيش الفرنسي الذي توجه لمهاجمة النمسا في ايطاليا ، وعبر نابليون جبال الألب ودحر جيش سردينيا ثم زحف بإتجاه عاصمتهم تورينو التي إضطر ملكها الى طلب الصلح وتنازل لفرنسا عن نيس وسافوي ، ثم عبر نابليون نهر البو وطهر سهول لمبارديا من الجيوش النمساوية ودخل ميلانو في الوقت الذي خضع له أمير كل من بارما وموديا والبابا الذي تنازل لفرنسا عن بعض ولاياته في ايطاليا ، ثم تقدم نابليون الى فينا بعد أن سحق جيشاً نمساوياً مقداره ٦٠,٠٠٠ جندي في معركة أركول التي إضطرت بعدها النمسا الى توقيع صلح كامبوفورميو في تشرين الأول ١٧٩٧ ، وأعترفت النمسا بموجب المعاهدة بنهر الراين حداً طبيعياً لفرنسا ، وتنازلت لها عن الأراضي المنخفضة التابعة لها والجزر الأيونية وعن ميلانو مقابل البندقية التي ضمتها النمسا ، كما إعترفت النمسا بالتغييرات التي أحدثها نابليون في شمال ايطاليا .

ولما عاد نابليون الى فرنسا إستقبله الشعب الفرنسي بحفاوة بالغة كونه فاتح ايطاليا ومنقذ فرنسا ولأنه قضى على التحالف الأوربي الأول الذي لم يبق منه في الميدان سوى بريطانيا ، قررت حكومة الإدارة توجيه ضربة الى بريطانيا عن طريق إحتلال مصر وقطع طريق مواصلاتها الى الهند ، وأبحرت الحملة الفرنسية لإحتلال مصر بقيادة نابليون من ميناء طولون الفرنسي عام ١٧٩٨ ، وعلى أثر تلك الحملة شكلت بريطانيا التحالف الأوربي

الثاني ضد فرنسا ، الذي ضم كل من بريطانيا والنمسا والدولة العثمانية وروسيا ونابولي والسويد ، ونجح الإسطول البريطاني في تدمير الإسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية في ٢ آب ١٧٩٨ مما أدى الى قطع الإتصالات بين الحملة وفرنسا ، وواجه نابليون بعد احتلاله لمصر مشاكل عديدة تمثلت بالمقاومة الوطنية في مصر وبلاد الشام ، فضلا عن إعتماده على مصر لتمويل جيشه بعد تدمير الاسطول الفرنسي في أبي قير .

اما في فرنسا فقد أخذت جيوشها تتراجع على مختلف الجبهات امام ضغط الجيوش الأوربية المتحالفة مما أفقد حكومة الإدارة هيبتها ومكانتها ، وتجددت الإضطرابات الداخلية مرة أخرى حيث عاود اليعاقبة نشاطهم ووقع تمرد قام به أنصار الملكية ، ولما سمع نابليون بما يحدث في بلاده عاد سراً من مصر الى فرنسا في آب ١٧٩٩ ، ونسّق سييز وهو أحد أعضاء حكومة الإدارة مع نابليون للقيام بإنقلاب فكانت البداية لإستلام نابليون السلطة في فرنسا .

٧- فرنسا النابليونية وأوربا حتى معركة لايبزك (١٧٩٩-١٨١٤) : إستلم نابليون السلطة في فرنسا بعد نجاح الإنقلاب ضد حكومة الإدارة ، وأصبح قنصلاً أول يعاونه اثنين من القناصل هما كاوبا سيريس وليبران ، ووافق الشعب الفرنسي على تولي نابليون السلطة لأنه عدّه رجل الساعة الذي تحتاجه البلاد ، وورث نابليون من حكومة الإدارة مشاكل خارجية تتعلق بالتحالف الأوربي الثاني ضد فرنسا ، وكانت القوات الفرنسية قد نجحت في هزيمة الروس على الحدود السويسرية الامر الذي اجبرهم على طلب الصلح من فرنسا في تشرين الأول ١٧٩٨ ، وبعد خروج روسيا من التحالف الأوربي الثاني حاول نابليون حل مشاكله مع النمسا وبريطانيا بالوسائل الدبلوماسية إلا أنهما رفضتا ذلك ، فقرر نابليون توجيه ضربة الى النمسا لإخراجها من التحالف ، فقاد جيشه لقتال النمسا وحقق عليها إنتصاراً كبيراً في معركة مارنجو في ١٤ حزيران ١٨٠٠ ، وبعد خمسة أشهر حقق الفرنسيون إنتصاراً آخر على النمساويين أجبرهم على عقد صلح لونفيل في ٩ شباط ١٨٠١ الذي كان تاكيداً لصلح كامبوفورميو الذي منح فرنسا نهر الراين كحد طبيعي لها ، وخسرت النمسا في هذا الصلح حوالي سبع أراضيها وفقدت مكانتها في المانيا ، ولم يبقى صامداً أمام نابليون غير بريطانيا.

كانت بريطانيا قد أرهقتها مصاريف الحرب وإزدادت فيها نسبة الضرائب ، وإستقال رئيس وزرائها وليم بت وحلّ محلّه ادنجتون المؤيد للصلح مع فرنسا ، لذا جرت المفاوضات وإنتهت بعقد صلح اميان في ٢٥ آذار ١٨٠٢ ، إعترفت بريطانيا بموجبها بحدود فرنسا الطبيعية أي بضم بلجيكا وقسم من هولندا وأراضي لضفة اليسرى لنهر الراين ، وقبلت بريطانيا ببقاء النفوذ الفرنسي في ايطاليا ، كما تعهدت بريطانيا بإعادة كل ما أخذته من مستعمرات لفرنسا وهولندا واسبانيا أثناء الحرب ، وإحتفظت بريطانيا بالمقابل بجزيرتي سيلان (التي أخذتها من الهولنديين) وترينيداد (التي أخذتها من الاسبان) ، وتعهدت فرنسا بالإنسحاب من مصر وإعادتها للعثمانيين وبالجلاء عن نابولي والأراضي البابوية ، وكان هذا الصلح نصراً لنابليون لأنه حصل على إعتراف شرعي وقانوني من بريطانيا بزوال الملكية في فرنسا وجعلها تعترف بالحدود الطبيعية لفرنسا .

أصبح نابليون بونابرت إمبراطوراً على فرنسا في ٢ كانون الاول عام ١٨٠٤ ، وظهرت الإمبراطورية الفرنسية الى الوجود ، وفي الوقت نفسه لم يلتزم طرفا صلح اميان بتطبيق بنوده ، الأمر الذي أدى الى تجدد الصراع العسكري البريطاني-الفرنسي ، وحاول نابليون إحتلال الجزر البريطانية هذه المرة ، وجمع مايقارب من ٢١٠,٠٠٠ جندي من مختلف أنحاء أوربا من أجل عبور البحر وإنزالهم على السواحل البريطانية ، إلا أن الاسطول البريطاني أسرع لمهاجمة الاسطول الفرنسي والاسطول الاسباني المتحالف معه ودمرهما في معركة الطرف الأغر في ٢١ تشرين الثاني ١٨٠٥ ، فإنهارت خطط نابليون في عبور بحر المانش واحتلال الجزر البريطانية ، ونتيجة لهذه الاحداث تشكل التحالف الاوربي الثالث ضد فرنسا .

إنضمت النمسا وروسيا والسويد الى بريطانيا ليكتمل التحالف الأوربي الثالث ضد نابليون ، أما بروسيا فإنتظرت نتيجة الصراع لاسيما بعد أن وعدها نابليون بمنحها ميناء هانوفر الانكليزي الذي استولى عليه ، وضع نابليون خطته لضرب جيوش التحالف الجديد كل على حدة ، وتقدمت الجيوش الفرنسية صوب النمسا وحققت أول إنتصار عليها في معركة أولم في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٠٥ ، فإتجه الجيش النمساوي المندحر صوب الشرق للإلتقاء بالجيش الروسي القادم لنجدته ، فباغتهم نابليون وحقق عليهم إنتصاراً ساحقاً في

معركة أوستر ليتز في ٢ كانون الأول ١٨٠٥ ، ووقعت النمسا مع فرنسا صلح بيرسبورغ الذي فقدت فيه النمسا ثلث مساحتها ، وأعترفت بنابليون ملكاً على ايطاليا وإطلاق يده في المانيا ، وبهذا إنسحبت النمسا من التحالف الأوربي الثالث ، أما روسيا فقد إنسحبت من الحرب دون توقيع معاهدة .

واجه نابليون بعد إنتصاره على دول التحالف الاوربي الثالث مشاكل مع بروسيا ، التي إتجهت للتنسيق مع روسيا المهزومة كما إنضمت بريطانيا والسويد اليهما فتشكل التحالف الأوربي الرابع ضد نابليون ، وبدات بروسيا بالتحرش بنابليون بأن طلبت منه الإنسحاب الى ماوراء الضفة الغربية لنهر الراين ، فهاجمها نابليون وانتصر عليها في معركة بينا ١٨٠٦ وتقدم في الأراضي البروسية ودخل برلين ظافراً ، وعندما وصلت القوات الروسية خاض نابليون مع الدولتين معركة فريدلاند في شباط ١٨٠٧ ، وحقق فيها إنتصاراً جديداً ، أما السويد فقد هاجمتها قوة فرنسية من الدنمارك وقوة أخرى من فنلندة ، واجبرتها على عقد الصلح وقطع علاقاتها التجارية مع بريطانيا ، وهكذا إنتهى التحالف الأوربي الرابع ، ولم يبقى أمام فرنسا سوى بريطانيا التي استمرت تقاوم القوات الفرنسية في البحر وتفرض سيطرتها عليه .

بعدما عجز نابليون عن غزو بريطانيا فكر في خنقها إقتصادياً لإرغامها على عقد الصلح ، فأصدر مراسيم برلين الشهيرة عام ١٨٠٦ ، أو مايسمى بالحصار القاري الذي منع بموجبه دول اوربا من التعامل التجاري مع بريطانيا ، كما منع رسو السفن البريطانية في الموانىء الأوربية ، واعلنت كل من الدنمارك والسويد والنمسا وبروسيا وروسيا التزامها بالحصار القاري ، وبالمقابل فرض الاسطول البريطاني حصاراً شديداً على مونىء الدول المتحالفة مع نابليون مما أدى الى حدوث أزمات اقتصادية وإنتشار الرشوة والتهريب لإدخال البضائع الى أوربا ، ولم تقطع البرتغال علاقتها التجارية مع بريطانيا في حين أعلن البابا حياده ، وكرد فعل على ذلك نفى نابليون البابا عام ١٨٠٦ وربط املاكه بالامبراطورية الفرنسية ، أما البرتغال فقد إستطاع نابليون احتلالها عبر الاراضي الاسبانية ، وبعد إحتلال البرتغال قرر نابليون احتلال اسبانيا بالرغم من إنها كانت دولة حليفة لفرنسا ، ومسوغاً إحتلالها بأنها كانت مصدراً من مصادر تهريب البضاعة البريطانية الى أوربا ، ونتيجة لذلك

إندلعت مقاومة شعبية اسبانية ضد القوات الفرنسية المتشتتة في أوربا ، وشجعت هذه المقاومة البرتغاليين على حمل السلاح بوجه نابليون يساعدهم في ذلك الجيش البريطاني بقيادة ولنكتون الذي انزل قواته جنوب البرتغال واخذ يزحف شمالاً ، ومع بداية عام ١٨١١ إستطاع ولنكتون بالتعاون مع البرتغاليين والاسبان تحرير معظم الاراضي الاسبانية ودخل العاصمة مدريد .

وخلال مدة تطبيق الحصار القاري حشدت النمسا جيشاً يقدر بـ ٤٥٠,٠٠٠ جندي لمهاجمة الجيش الفرنسي ، وإستطاع نابليون هزيمتهم في معركتي اكمول ووكرام عام ١٨٠٩ ، لذا طلبت النمسا الصلح فوقع نابليون مع النمسا معاهدة فينا في تشرين الأول ١٨٠٩ ، إلا أن المستشار النمساوي مترنيخ استطاع تخفيف آثار الهزيمة بتزويج نابليون من إبنة امبراطور النمسا ماري لويز التي أنجبت لنابليون ولداً بعد عامين أصبح يلقب بملك روما ، أما روسيا فقد تضررت كثيرا جراء الحصار القاري ولم تقطع علاقتها التجارية مع بريطانيا ، ولكونها بلد زراعي فهي بأمس الحاجة الى المنتوجات الصناعية فضلاً عن عدم إيفاء نابليون بوعوده بتحقيق الاطماع الروسية في الدولة العثمانية ، وفي نيسان ١٨١٢ إنطلقت حملة فرنسية ضخمة مكونة من ٧٠٠,٠٠٠ جندي لإخضاع روسيا ، فحصلت أولى المعارك بين الطرفين في آب التي انتهت بإنتصار الفرنسيين الذين لاحقوا الروس المنسحبين حتى وصل الجيش الفرنسي الى موسكو التي أحرقها الروس في ١٤ أيلول ١٨١٢ قبل إنسحابهم منها ، ونتيجة للجوع والبرد وطول مدة الحصار ، لم يبق من الجنود الفرنسيين سوى ١٠٠,٠٠٠ جندي ، ومات عشرات الآلاف في طريق العودة الى فرنسا بسبب هجمات القوزاق على الجنود الفرنسيين وإنتشار الأمراض بين صفوفهم .

وبدأت الامبراطورية النابليونية تنهار نتيجة الحملة الفاشلة على روسيا ، وتحول الروس من الدفاع الى الهجوم وإستمروا بملاحقة الجيش الفرنسي ، وتحالفت بروسيا مع روسيا في شباط ١٨١٣ لكن نابليون إستطاع بفعل عبقريته الحربية أن يحقق بعض الانتصارات عليهم معاً ، الامر الذي أدى الى ولادة التحالف الأوربي الخامس ضد نابليون والمكون من روسيا وبروسيا وبريطانيا والنمسا الذين ألحقوا الهزيمة بالقوات الفرنسية في معركة لايبزك (معركة الامم) في تشرين الاول ١٨١٣ التي دامت أربعة أيام ، فتراجع

نابليون الى حدود فرنسا القديمة ، وزحف الحلفاء الى فرنسا ودخلت جيوشهم باريس في ٣١ آذار ١٨١٤ ، ولما أيقن نابليون بعدم جدوى المقاومة تنازل عن الحكم في فرنسا ونفي الى جزيرة ألبا في البحر المتوسط مع إحتفاظه بلقب إمبراطور .

تشكلت حكومة فرنسية جديدة برئاسة تاليران ، وفي ٣٠ آيار وقعت معاهدة باريس الأولى بين فرنسا والدول المنتصرة ، وقد أعادت المعاهدة فرنسا الى حدودها السابقة قبل الثورة ، وسمح لها بالإحتفاظ ببعض المناطق في الألزاس وجهات نهر الراين ، كما إستعادت فرنسا معظم مستعمراتها ولم تفرض عليها غرامة حربية ، وأعيد النظام الملكي وأصبح لويس الثامن عشر ملكاً على فرنسا . وسعى الملك الجديد الى إعادة البلاد تدريجياً الى الوراء ، فأعاد الى النبلاء حقوقهم وفرض الرقابة على الصحافة ، وسرح الضباط الجمهوريين من الجيش ، ومنح أبناء النبلاء مناصب وإمتيازات واسعة ، وإستبدل علم الثورة بعلم آل بوربون الأبيض ، وفي المجال الإقتصادي تأزمت الأمور وانتشرت البطالة فصار الشعب يتمنى عودة نابليون .

وبعد سماع نابليون بما آلت إليه الاوضاع في بلاده غادر منفاه سراً في ٢٦ شباط ١٨١٥ ، وبعد وصوله إستقبله الشعب الفرنسي استقبال الأبطال ودخل باريس في آذار بعد هروب لويس الثامن عشر ، وأعلن نابليون قبوله معاهدة باريس ، لكن الحلفاء الاوربيين لم يأبهوا لإعلانه ، فتجمعت الجيوش الأوربية المتحالفة ووقعت المعركة الفاصلة في واترلو في ١٦ حزيران ١٨١٥ ، وتم نفي نابليون الى جزيرة سانت هيلانه في المحيط الهندي وبقي هناك حتى وفاته في ٥ آيار ١٨٢١ ، وبعد معركة واترلو فرض الحلفاء على فرنسا معاهدة باريس الثانية في ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ نصت على فرض غرامة حربية على فرنسا قدرها ٧٠٠ مليون فرنك ، وإعادة فرنسا الى حدودها عام ١٧٩٠ ، وكذلك إبقاء جيش قوامه ١٥٠٠٠ جندي في فرنسا لمراقبة تطبيق المعاهدة ، وبنهاية الامبراطورية النابليونية تطلب الأمر رسم خارطة جديدة لأوربا تنسجم مع مصلحة الدول المنتصرة ، وتمحوا التغييرات التي أحدثها نابليون في اوربا ، ولذلك إنعقد مؤتمر فينا عام ١٨١٥ لهذا الغرض .

قائمة المصادر

اولا: المصادر العربية والمعربة :

- أحمد برقاوي ، محاولة في قراءة عصر النهضة (الاصلاح الديني ، النزعة القومية) ، ط٢ ، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٩ .

- أحمد علي الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، ط٢، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨١ .

- أشرف صالح محمد السيد ، أصول التايخ الأوربي الحديث ، ط١ ، دار ناشري للنشر الالكتروني ، الكويت ، ٢٠٠٩ .

- اسحق عبيد ، تاريخ عصر النهضة الاوربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .

- أيوب أبو ديّة ، علماء النهضة الأوربية ، ط١ ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠١٠ .

- البير سوبول ، تاريخ الثورة الفرنسية ، ترجمة : جورج كوسى ، ط٤ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٩ .

- توريا شرف ، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي ، ترجمة : عبد العزيز طريح شرف ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ .

- جلال يحيى ، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكنرية ، د.ت .

- جلال يحيى ، تاريخ أوربا في العصور الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨١.

- جوزيف برجر ، مكتشفو العالم الجديد ، ترجمة : السيد يوسف نصر ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٩١ .

- جيري بروتون ، عصر النهضة مقدمة قصيرة جدا ، ترجمة : ابراهيم البيلي محروس ، ط١ ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٤ .

- زينب عصمت راشد ، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ت.

- شوقي عطا الله الجمل وعبدالله عبدالرزاق ابراهيم ، تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- صالح حسن العكيلي ، فرنسا بين ثورتين ١٧٨٩-١٨٣٠ ، ط١، الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٥.
- ..... ، الوجه الآخر للنهضة الأوربية محاضرات في تاريخ أوربا في عصر النهضة ، ١٤٥٣-١٧٨٩ ، ط١ ، الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٦ .
- صاموئيل اليوت موريسون ، كريستوفر كولمبوس المكتشف العظيم ، ترجمة : فوزي قبلاوي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- ضمد كاظم وسمي ، النهضة الاوربية وقضية الحرية ، اصدار منتديات ليل الغربة ، ٢٠٠٩ .
- عبد الحميد البطريق وعبد العزيز سليمان نوار ، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين ، التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- عبد الفتاح أبو عليه واسماعيل أحمد ياغي ، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، ط٣ ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ١٩٩٣ .
- عبد المنعم ابراهيم الدسوقي الجميعي ، العالم الاوربي في التاريخ الحديث والمعاصر منذ عصر النهضة الى عصر البيروسترويكا ، ط١ ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- علي حيدر سليمان ، تاريخ الحضارة الاوربية الحديثة ، ط١ ، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع ، بغداد ، ١٩٩٠ .
- فتحي علي يونس ، أثر العرب المسلمين في الحضارة الأوربية ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- لويس عوض ، ثورة الفكر في عصر النهضة الأوربية ، ط١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- محمد عصفور سلمان ، تاريخ أوربا الحديث من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الأولى (١٧٨٩-١٩١٤) ، المطبعة المركزية ، جامعة ديالى ، ٢٠١٤ .
- محمد محمد صالح ، تاريخ أوربا من عصر النهضة الى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩ ، مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٢ .
- محمد مظفر الادهمي ، تاريخ اوربا الحديث ، عصر النهضة – الثورة الفرنسية القرون ١٦-١٨ ميلادية ، مطابع اعدادية ١ حزيران ، بغداد ، ١٩٨٩ .
- نور الدين حاطوم ، تاريخ عصر النهضة الاوربية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- هاشم صالح ، مدخل الى التنوير الاوربي ، ط١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
- هاني المبارك وشوقي أبو خليل ، دور الحضارة العربية الاسلامية في النهضة الاوربية ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٦ .
- ه. أ. ل. فشر ، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية الى الثورة الفرنسية ، نقله الى العربية : زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى ، ط٣ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

ثانيا: المصادر الاجنبية :

- Andrew C. Fix, The Renaissance, the Reformation, and the Rise of Nations, The Teaching Company Limited Partnership Part I, 2005 .
- Alison Weir, Henry VIII The King and His Court, The Random House Publishing Group UK Ltd, London, 2001.
- Bud Hanning, American Revolutionary War Leaders A Biographical Dictionary, McFarland & Company, Inc, Publishers, London, 2009 .
- C. Raymond Beazley, Primce Henry The Navigator The Hero of Portugal and of modern discovery 1394-1460, The Knickerbocker Press, London, 1895 .
- Carole Levin, The Reign of Elizabeth I, Palgrave Publishers Ltd, Hong Kong, 1988.

- Charles G. Nauert, Historical Dictionary of the Renaissance, Historical Dictionaries of Ancient Civilizations and Historical Eras, No. 12, The Scarecrow Press, Inc., Oxford 2004 .
- Charles P. Kindleberge, A Financial History of Western Europe, George Allen & Unwin (Publishers) Ltd, London, 1985 .
- Daniel Marston, The Seven Years' War, Osprey Publishing Limited, Oxford, 2001 .
- David Onnekink, War and Religion after Westphalia 1648–1713, Ashgate Publishing Limited, Mixed Sources, London, 2009 .
- Elizabeth Spiller, Science, Reading, and Renaissance Literature The Art of Making Knowledge, 1580–1670, Cambridge University Press , Cambridge , UK , 2004 .
- Francois-Auguste Mignet, History of the French Revolution from1789 to 1814, Biblio Bazaar, Charleston, 2006 .
- Geoffrey Parker, The Thirty years war, Routledge, London and New York, 2006 .
- Geraldine A. Johnson, Renaissance Art : A Very Short Introduction, Oxford University Press, Oxford, 2005 .
- H.G. Koenigsberger, George L. Mosse and G. Q. Bowler, Europe in the sixteenth century, Longman Singapore Publishers (Pte) Ltd., Malaysia, 1989 .
- James MacCaffrey, History of the Catholic Church from the Renaissance to the French Revolution, Vol. II , Dodo Press , London , 1914 .

- Jeff Wallenfeldt , The American Revolutionary War and the War of 1812: people, politics, and power, Britannica Educational Publishing, New York, 2010 .
- Jerry W. Markham, A financial history of the United States From Christopher Columbus to the Robber Barons(1492 -1900), M. E. Sharpe, Inc., London, 2002 .
- John Hale, England and the Italian Renaissance The Growth of Interest in its History and Art, Blackwell Publishing Ltd, Oxford, 2005 .
- Israel, Jonathan, The Dutch Republic : Its Rise, Greatness and Fall, 1477-1806 Oxford History of Early Modern Europe, Oxford University Press, Oxford, 1995 .
- Julia Ortiz-Griffin And William D. Griffin, Spain and Portugal: A Reference Guide from the Renaissance to the Present, Facts On File, Inc. An imprint of Infobase Publishing, New York, 2007 .
- Lilian H. Zirpolo, Historical Dictionary of Renaissance Art, The Scarecrow Press, Inc., Plymouth,2008 .
- Malcolm Crook, Revolutionary France 1788–1880, Oxford University Press, Oxford, 2002 .
- Maureen Perrie, The Cambridge History of Russia From Early Rus' to 1689, Vol. I, Cambridge University Press, Cambridge, 2006 .
- Maureen Perrie, Russia : a reference guide from the Renaissance to the present, Facts On File Inc., New York, 2004 .
- Paul Bushkovitch, Peter the Great The Struggle for Power 1671-1725, Cambridge University Press, Cambridge, 2004 .

- Paul Douglas Lockhart, Sweden in the Seventeenth Century, Palgrave Macmillan, Hampshire, 2004 .
- Schroeder, Paul W., The Transformation of European Politics, 1763-1848 Oxford History of Modern Europe, Oxford University Press, Oxford, 1994 .
- Peter D. G. Thomas , George III King and politicians 1760–1770, Manchester University Press, Manchester, 2002 .
- Peter McPhee, The French Revolution 1789–1799, Oxford University Press, Oxford, 2002 .
- Peter McPhee, A Social History of France 1789–1914, Palgrave Macmillan Ltd., Hampshire, 2004 .
- R. B. Mowat, A History of European Diplomacy 1451-1789, Edward Arnold & Co, London, 1928 .
- R. J. White, A Short History Of England, Cambridge University Press, Cambridge , 1967 .
- Richard S. Tompson, Great Britain: A Reference Guide from the Renaissance to the Present, Facts On File, Inc., New York, 2003 .
- Robert Bideleux and Ian Jeffries, A history of Eastern Europe Crisis and change, Routledge, London, 1998 .
- T. C. W. Blanning, The Oxford History of the Modern Europe, Oxford University Press, Oxford, 2000 .
- T.A.Morris. , Europe and England in the sixteenth century, Routledge, London, 1998 .
- Thomas Henry Dyer, A History of Modern Europe from the fall of Constantinople, Vol.III, George Bell and Sons, London, 1901 .

- Wim Blockmans and Nicolette Mout, The World of Emperor Charles V, Royal Netherlands Academy of Arts and Sciences, Amsterdam, 2004 .
- William E. Burns, A Brief History of Great Britain, Facts On File, Inc., New York, 2010 .
- William J. Roberts, France: A Reference Guide from the Renaissance to the Present, Facts On File, Inc., New York, 2004 .